الأمير شكيب أرسلان

ولاءٌ حتّى الفناء



الأمير شكيب أرسلان/ ولاءٌ حتّى الفناء

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٠٥٥٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١ - ٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

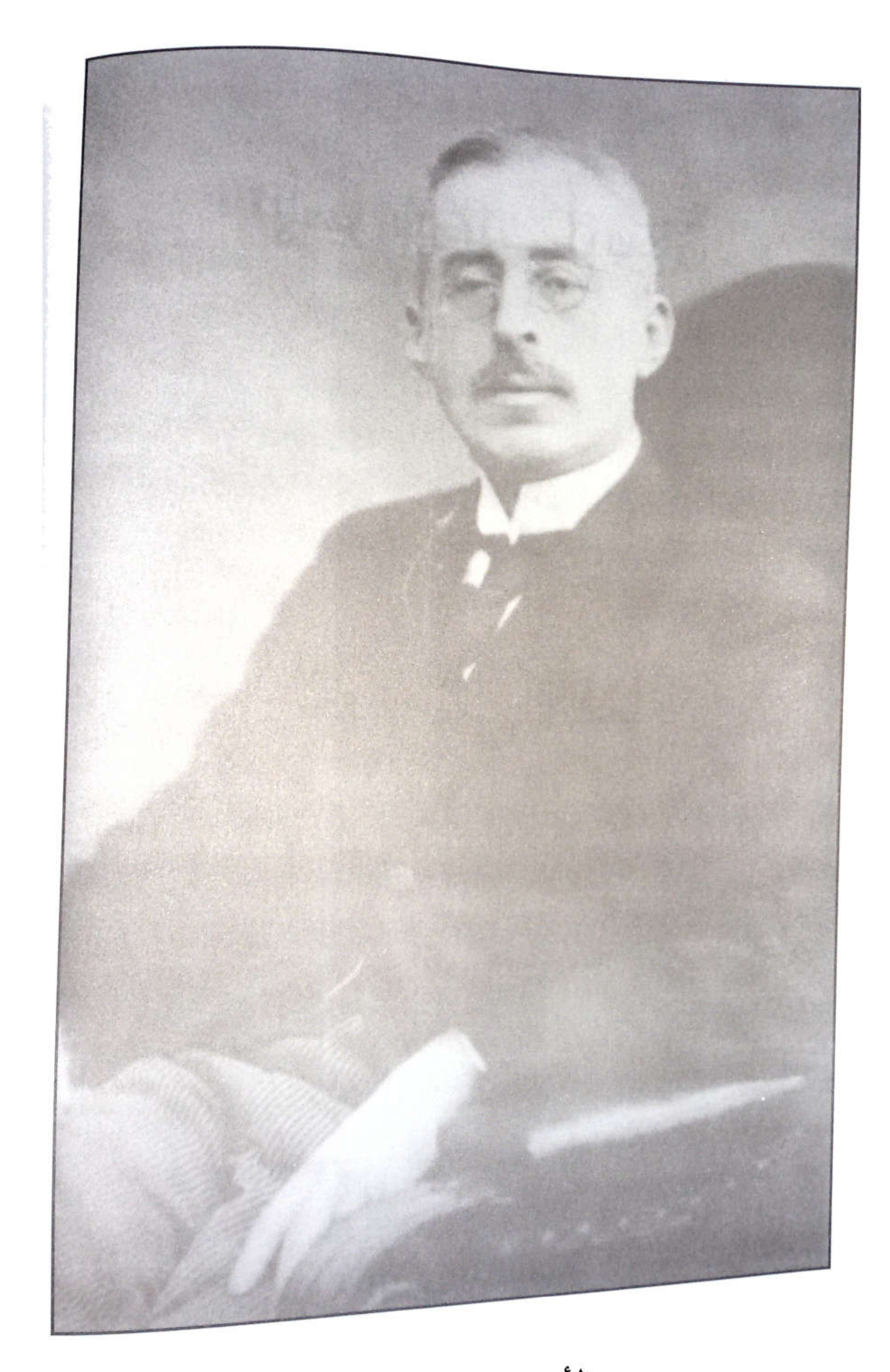
http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، ت١ ٢٠١١

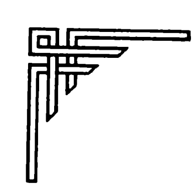
الأمير شكيب أرسلان

ولاءٌ حتّى الفناء

الدار التقدّمية



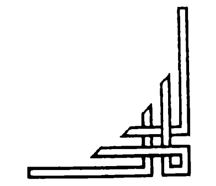
الأمير شكيب أرسلان



كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية



مقدّمة الناشر

شأنُه شأنُ كلِّ وطنيٍّ شريف، اندفع يَراعُه يُعنى بقضايا القوميّة العربية الإسلامية، والفكرة تدفع الفكرة، والرأي واضح صادقٌ، عاتٍ كالطوْد لا أعداء له إلاّ ريحٌ لها عبثٌ بأوراقه تثنيها ولا تُبعثرها.

معظم القضايا التي تضمّنتها مقالات هذا الكتاب دفاعيةٌ في أمور أرّقَتِ الأمّة فطاولها بسَداد رأيٍ وقوّة حجّة وسلامة ذوق؛ من حديثٍ في السياسة الاستعمارية وما يستتبعها من افتراء ومظالم، إلى الردّ الرصين على ما يُسيء إلى البلاد والعباد أو يحاول مساس شخصه هو.

وكأني به لا يطيق الضيم، ولا يؤتي مسألةً إلاّ تامّةً وافيةً. فكيف لا تسْلَم أسسٌ نهضويةٌ اَفتداها الأمير شكيب أرسلان بعينٍ ساهرةٍ وشغفٍ كبير، بعد أن كان دعامتها الصلبة؟

وإذا كان عباس محمود العقّاد قد قال بأنَّ «الكتب كالناس» فنحن نقول بأنَّ الكتب هي الناس، لا سيّما وإن كانتِ الطامحة لأمّةٍ عربيةٍ صالحة، فهذا واحدٌ من مؤلّفات الأمير شكيب يتحدّث عنه، عن روحه. وأغلب الظنّ ألاّ حافزَ كان يدفعُ الأميرَ للكتابة أقوى من حسّه الوطنيّ الذي بارَكه وخلّده التاريخ!

في ٣٠ أيلول ٢٠١١

الدار التقدّمية

نكتة من نكات العدل الفرنسي...
في تونس

لحضرة صاحب السعادة الكاتب العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان

لا أدّعي التعرّض لجميع ما جرى ويجري في تونس من مظالم الفرنسيين، واعتدائهم على حقوق البشر وإرهاقهم الأهالي هناك عسفًا يفوق ما رواه الراوون، ورآه الراؤون فإنّ ذلك غاية لا تدرك، وأمد لا يملك، وإنّني لأُوصي مَن شاء أن يرتوي بعض الشيء من معين هذا الموضوع أن يقرأ كتاب "تونس الشهيدة" الذي أخرجه بعض أدباء[1] ذلك القطر بالفرنسية ولا أعلم هل له ترجمة عربية أم لا. فإن لم يكن لهذا الكتاب تعريب فمن أشدّ الأمور ضرورة أن يبادَر إلى ذلك، وأن يُنشر معرّبًا وتُوَزّع منه ألوف من النسخ على الناطقين بالضادّ ليعلم الناس مقدار سعة الخلف بين دعوى فرنسا في الحرّية وأعمالها في مستعمراتها...

وهذا الكتاب "تونس الشهيدة" لا يتضمّن شيئًا من الملاحظات والمقابلات، ولا يعلّق إلاّ النزر على الأوامر المحرّرة والنصوص الصريحة والقوانين المنشورة التي يجد فيها القارئ من فظاعة العسف وبشاعة الاعتداء على حقوق التونسيين لمجرّد امتلاء جيوب المستعمرين الفرنسيس ما يغنيه من تعليق الملاحظات والخوض في الاستنباط والقياس والتقبيح والإنكار.

وإنّما كان غرضي من هذه المقالة حكاية نكتة من أعمال الفرنسيس بتونس يتأمّل فيها الإنسان بمقدار ما أمعَن فيه هؤلاء الناس ـ ولا ينحصر ذلك في الفرنسيس وحدهم من الأوربيين ـ من احتقار الشعوب الإسلامية.

الفرنسيس في كلّ الديار التونسية بضعة عشر ألف شخص والأهالي مليونان. فلمّا نشبت الحرب العامّة واحتاجت فرنسا إلى الرجال دار رجالها وعيونهم تفيض بدموع التماسيح يدعون المغاربة من تونسيين وجزائريين ومراكشيين إلى نصرة (دول الحقّ والعدل) اللاتي يجاهرْنَ لأجل تحرير الشعوب، بعكس الألمان الذين يقاتلون لوضع القوّة فوق الحقّ...

---

(١) مجلّة الشورى ـ الذي نعرفه أنّ الواضع لكتاب "تونس الشهيدة" هو السيِّد عبد العزيز الثعالبي، زعيم تونس، وقد طُبع منه بضعة آلاف نسخة.

وما تركوا وعدًا من الوعود الخلاّبة إلاّ بذلوه لأهل تلك الديار فيما لو نصروهم في تلك الحرب. وبالاختصار كان أقلّ ما وعدوا به تونس أن تصبح بإزاء فرنسا مثل أسترالية أو الكندا بإزاء إنكلترة.

فلمّا انتهت الحرب وكان نصيب تونس من ورائها ـ مع أنّ تونس لا علاقة لها بها ـ ٤٠ ألف قتيل وفقيد من أصل ٩٠ ألف مقاتل. قام التونسيون يطالبون بالمكافأة ويذكّرون الرئيس بوفائه بالوعود فأسفرت تلك الوعود كلّها عن مجلس يقال له: تمثيلي، أشبه بمجلس سورية ولبنان محدود الصلاحية، ضيق الاختصاص، مع قصر نفوذ الوطنيين فيه إلى الحدّ الذي لا يجعل لهم من التأثير شيئًا.

فأعضاء الفرنسيس في هذا المجلس ٤٠ شخصًا عن ١٠ آلاف، وأعضاء الوطنيين ١٨ شخصًا عن مليونين، منهم ١٥ مسلمون و٣ يهود وهم جميعًا يجلسون في دائرة واحدة ويدخلون من باب واحد، ولكن الأعضاء الفرنسيس يجلسون في الطبقة العليا، والأعضاء الوطنيين يجلسون في الطبقة السفلى. وبين الطبقتين درج ينحدر به كتّاب المجلس لتبليغ أعضاء الطبقة السفلى قرارات الطبقة العليا!

سألت العضو الفرنسي الذي أخبرني بهذه التربية المضحكة المبكية من غرائب الغطرسة الفرنسوية: كيف تتذاركون إذًا في المسائل المطروحة للبحث أمامكم وهم الأعلون وأنتم الأسفلون ولستم جالسين في طبقة واحدة؟

قال لي: نحن نتذاكر بعضنا مع بعض وهم يتذاكرون بعضهم مع بعض. وعلى كلّ حال فنحن لا نقدر أن نقدّم ولا أن نؤخّر شيئًا إلاّ إذا انقسم أعضاء الفرنسيس من فوقنا فقد نرجّح الميزان لفئة على فئة. أمّا في الأمور التي يتّفقون فيها فالقرار يعتبر مسمطًا من فوق!

فأنت ترى أنّ الفرنسيس يأنفون حتّى الجلوس مع زملائهم من المسلمين في مقعد واحد وهم جميعًا أعضاء مجلس واحد.

وهذا أشبه بحظرهم على المسلمين ركوب العربة في الجزائر ما دام لها طالب فرنسي، هذا حسبما سمعته من ثُقات.

وأشبه بوضعهم الأجانب جميعًا من الإفرنجة حتّى المالطيين واليهود فوق المسلمين في الرتب الاجتماعية.

وعملهم بقانون يقضي بعدم إعطاء مكافئات عقارية للجزائري المسلم إلاّ أن تنصر... (انظر إلى هذا وطابِق بينه بين دعوى فرنسا أنَّ حكومتها لا دينية).

ولا تظنّ أنَّ هذا منحصر في الفرنسيس وحدهم فإنَّ إيطاليا أيضًا في طرابلس الغرب تستقبل في الأعياد تهاني الطليان فالآخرين من الإفرنج فالمالطيين فاليهود فالمسلمين... هذا رأيته في إعلاناتهم الرسمية.

أمّا الإنكليز فسَلْ عنهم من هذه الجهة في الهند... يخبروك بالعجب العجاب. لا بل سَلْ ضبّاط الجيش المصري الذي كان يرافقهم في السودان، لا بل سَلْ المصريين أنفسهم بنفس مصر...

لي صاحب من شبّان مصر الأُباة الأعِزّة هو اليوم من أعضاء المجلس النيابي المصري سألته عن سبب هجرته مصر أيام الحرب فقال لي كنت قاطعًا تذكرة في الدرجة الأولى من القطار فصعدت إلى عربة من تلك الدرجة، فإذا فيها ضابط إنكليزي فأشار إليَّ بالخروج فامتنعت محتجًّا بأنَّ لي الحقّ في الركوب بالدرجة الأولى بموجب التذكرة التي معي. فنادى الضابط الإنكليزي جنديًّا معه فأخرجني بالقوّة. وهكذا رأيت نفسي مغصوبًا حقّي، محتقرًا مكاني، في وسط بلدي. فلم أتحمّل هذا التصوّر فرحلت.

نعم، بهذا وبأفظع منه تعامل الدول المتمدّنة... المسلمين الذين استضعفتهم. وقد تصيب في ذلك من وجهة المصلحة الإسلامية لأنَّ هذه دروس أليمة تلقيها على المسلمين حتّى يترجّلوا ويعافوا الحياة أو يتحرّروا.

ومن الغريب أنَّ كثيرًا من الشرقيين لا يزالون ينتقدون ما كان في الماضي يفعله بعض المسليمن مع النصارى واليهود في بلاد الإسلام ـ وهو انتقاد في محلّه ـ من عدم إعطائهم الحرمة الواجبة ومن زحزحتهم عن رتبة المماثلة. ومن قولهم كلمة «أشمل» أي أنَّ المسلم لا بدَّ له أن يمشي على اليمين. وهو تعصّب قبيح غير مندوب ولا مستحبّ، بل الشريعة في أصلها لم تأمر بشيء من هذا. وقوله تعالى ﴿ وليجدن فيكم غلظة ﴾ معناه أنه يجب قتال المشركين بشدّة والأغلاظ عليهم في الحرب وليس معناه احتقار غير المسلمين في المعاملات الشخصية، بل النبيّ (ﷺ) قام لعديّ بن حاتم وهو نصراني وأجلسه على وسادته.

مع هذا طالما تسمع هذا النفر من الشرقيين يتحدّثون بفظاعة (أشمل) ونحن معهم في ذلك. ولكنّي لأراهم يكبرون شيئًا من أنواع احتقار الدول الاستعمارية لأمم الإسلام ممّا

يفوت (أشمل) بمراحل... فكأنهم يرون أنَّ للإفرنجي أن يفعل ما يشاء وأنَّ كلّ ما يفعله مقبول، بل كلّه صواب وسداد...

وأعرق من هذا في الغرابة أنك إذا ذكرت لفرنساوي أفعال قومه هذه في الجزائر وتونس فلم يقدر أن ينكر عليك حصولها لأنها ثابتة كان أول جواب يهتف به عليك. أنت عدوّ فرنسا!

وينسى أنَّ العداوة لفرنسا ونظائر فرنسا هي من هذا وأشباهه.

برلين، ١٦ دسمبر ١٩٢٤ — شكيب أرسلان

* * *

من زعيم سوري إلى نائب فرنسوي

اتّصلت بنا صورة كتاب جليل الشأن بعث به الأديب الحربي صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان إلى نائب معروف من أصدقائه من رجال البرلمان الفرنسوي، وكان إرسال هذا الكتاب بمناسبة الحفلات التي أقيمت في بيروت لوداع الجنرال فيغان عند مغادرته أرض سورية وطنّطت صحف فرنسا بهذه الحفلات قال الأمير لا فُضّ فوه ولا انثلم قلمه:

صديقي العزيز والنائب النبيل

إنَّ جرائد الاستعمار الفرنساوي تفيض شرحًا ووصفًا لأبّهة الوداع الذي جرى للجنرال فيغان عند مفارقته سورية، محاولة بذلك الوصول إلى نتيجة كون الأهالي راضين بحالتهم الحاضرة.

فأنا ليس عندي أدنى انتقاد أوجّهه إلى الجنرال فيغان الذي كان ينفّذ سياسة دولته وربّما كان ينفّذها بصورة أمهر من الصورة التي أنفذها به الجنرال غورو.

ولكنّني أقول: ليعفنا هؤلاء الناس من ذكر الاحتفالات والوداعات والاستقبالات، فإنَّه مهما كان عمل من هذا النوع للجنرال فيغان فلا يبلغ ما عمل لجمال باشا الذي يلقّب الآن بـ«جمال السفّاح».

وأين الاحتفلات التي صنعت للجنرال فيغان من الاحتفالات التي صنعت لأنور عند زيارته الأولى لسورية.

ففيغان وغورو وفيصل وجمال وأنور، وهكذا رجوعًا إلى الوراء حتّى نصل إلى مدحت باشا أبي الدستور العثماني، عُملت لكلّ منهم هذه المظاهر الفخمة ولن يبلغ فيغان في هذا الأمر درجة أولياء الأمور الأتراك الذين يقال عنهم «برابرة» اليوم.

وأخشى أن يظنّ في فرنسا أنَّ هذه المراسم المعتادة لممثّلي كلّ دولة حاكمة في سورية تدلّ على كون الأهالي راضين بحالتهم الحاضرة.

والحقيقة أنَّ البلاد لا ترضى حتّى تحصل على حرّيتها واستقلالها، وبدون ذلك لا ترجى منها صداقة لفرنسا. هذه هي الحقيقة، وتقبّلوا يا صديقي العزي...إلخ.

شكيب أرسلان

برلين

(الشورى ـ لقد تلطّف الأمير الكريم في مخاطبة النائب الفرنساوي كثيرًا ونحن لو كنّا مكان سعادته لأفهمناه أنَّ السوري أرقى بكثير من الفرنساوي، وأرقّ إحساسًا وأصلح لإدارة أمور البلاد منه.

نحن نعرف أنَّ التركي في الشرق هو كالفرنسوي في الغرب نزق الطبع حادّ المزاج، ولكن الفرنسوي زاد عليه بهياج أعصابه وشدّة وقاحته، ألم ترَ كيف أَنَّ التركي إن صحّ أنه كان يتعمّد الظلم، كان إذا ظلم وصرخ الناس في وجهه أنت ظالم. سكت، وكيف أنَّ الفرنساويين يرتكبون أنواع الجرائم في تونس وسورية ولبنان، فإذا نبسَ الناس بكلمة توجع فتكوا بهم ونسفوا بهم القرى!

نعم، كان الناس في سورية يحتفلون باستقبال أنور ووداع جمال وكان الحكّام الترك يوعزون للناس بذلك لا أقلّ ولا أكثر. وأمّا الفرنسويين فإنّهم كانوا لا يزالوا يفعلون ذلك حتّى الساعة، وقد زادوا على الترك بفظاعة أخبار الأهالي على تزيين البيوت والحوانيت ورفع الأعلام الفرنسوية وهم يغرّمون كلّ مَن يقصّر في تأدية هذا الغرض ويخربون بيته! وممّا فاق فيه الفرنسوي غيره من الاستعماريين أنه بعد أن يتمّ إقامة الزينات على هذه الصورة بقوّة الحراب وفتح أبواب السجون يطلق شركة هافاس فتذيع في العالم إنَّ السوريين قد قاموا عند استقبال ووداع، ممثّل فرنسا بمظاهرات الولاء والإخلاص لفرنسا "الأمّ الحنون"...إلخ.

أمّا إن كان هناك ما يقال فيجب أن نقول إنَّ الحقّ في ذلك ليس على عمّال فرنسا، بل على تلك الأمّة الميتة التي لا تتحرّك ولا ترفع رأسها إلاّ لترفع آيات الشكر الحمد لذلك الذي يطأ جبهتها بنعله ويلهب أجسام أبنائها بكرباجه).

من الأمير شكيب أرسلان إلى صديق له في مصر

اطّلعنا على رسالة خاصّة وردت على مصري كبير من أصدقاء الأمير الأرسلاني، فأحببنا أن نقتطف منها القطعة التالية تصحيحًا لرواية قد يدوّنها التاريخ على غير وجهها. قال الأمير:

"كتب لي شقيقي أنكم انتقدتم كتابتي عن مسألة توسيط إيران في المسألة المصرية لدى جمعيّة الأمم وذلك من جهة عدم التصريح بالاسم، فيما أخي أنه لمّا حصل ما حصل وطاشت الأحلام وبلغ منّا الحزن مبلغه بما وقع على مصر من الضغط، وكان بيني وبين الأمير الجليل الهمام "أرفع الدولة" صداقة، أسرعتُ بالكتابة إليه في عرض القضيّة على جمعيّة الأمم عملاً بقانون هذه الجمعيّة "إنَّ طلب أحد أعضائها كافٍ لعرض أيّ خلاف دولي عليها" وقرأت في الجرائد السويسرية أنَّ غيري أيضًا التمس منه هذه الوساطة نفسها، وأجابه بأنه لا يقدر أن يبدي ولا أن يعيد بدون إذن حكومته. ثمَّ ورد لي منه جواب إلى برلين قد اطّلعتم عليه في "السياسة" ومؤخّرًا رجعت من برلين إلى سويسرا وواجهته في جنيف وكرّر لي القول نفسه، وهو أنَّ الحكومة الفارسية ما دامت لا تأذن له بالتوسّط فإنَّه لا يقدر من نفسه أن يتوسّط وأنه ما دامت الحكومة المصرية هي نفسها لا تريد توسيط "فارس" فهذه لا تقدِم بالبداهة على هذا الطلب. وأمّا قولكم لماذا لم أصرّح بأَسمي فجوابه، قد خفت أن يكون ذلك من قبيل الاعتداد والافتخار بما عملته من الخديعة لمصر وخفت أيضًا أن يقوم واحد من المصريين الذين يبرأون من كلّ شيء غير مصري، وهم كثيرون بمصر، فيقول لي: ماذا يعنيك أنت أيّها الشامي من عمل يخصّ مصرًا وحدها؟ فإنَّني أعلم أنَّ بمصر نفرًا من هذه الطبقة، وليس كلّ المصريين. أحمد زكي باشا يرضى أن يشاركنا في الجامعة العربية الرابطة الشرقية...إلخ ونفتخر به ويفتخر بنا ويعلم الله أنني لولا أن رأيت مجلس النوّاب أبرق إلى جمعيّة الأمم بالشكاة ممّا جرى على مصر ما كتبت ذلك الخطاب إلى الأمير الأرفع، ولا تجاسرت على هذه البدعة..." ا.هـ.

***

(الشورى) شكر الله جهاد الأستاذ الأمير، وجزاى عن الشرق خيرًا.

أمّا ظنّ سعادته أنه يوجد في مصر مَن ينكر عليه هذا الفضل، فإنّنا نستبعده، وأمّا وجود مَن لا يرضى بالجامعة العربية أو الشرقية فهذا حقّ وكثيرون من شبّان مصر المفكّرين يرون هذا الرأي ولكن ما دام الأمير الجليل يخدم الأمم الشرقية كافّة فلا يضير خطّته مخالفة البعض لها ولعمري أننا ما علمنا أنَّ الأمم تخدم برضاها، وإنَّما الذي نعرفه أنَّ أهل الإصلاح يخدمون الأمم ويجرّونها إلى الخير برغم أنوفها، ورُبّ قوم يُقادون إلى الجنّة بالسلاسل!



أزفت ساعة الاتّحاد، أيّها العرب!

لسعادة الكاتب العربي الأكبر الأمير شكيب أرسلان

إن كانت مقالتي «العسكري المغربي يفيد فرنسا قاتلاً مقتولاً» هي التي راقت جلالة الملك حسين أو كانت مقالة أخرى من بديع ما يخطّه قلم صاحب الشورى في المواضيع التي هي حكاكات هذه الأمّة، فأنا شاكر على كلّ حال انتباه جلالته لكلّ ما يكتب، ومعجب بنجابة حسّيات جلالته. ولا أنسى أنه قبل خروجه من الحجاز بقليل، كان أحد أصحابي من خيرة أدباء دمشق، كتب إليَّ بأنه اطّلع على مرسوم ملوكي بقلم صاحب الجلالة الهاشمية يتلطّف فيه كثيرًا في الكلام عن هذا العاجز، ويثبت له المعرفة وسداد الرأي وغير ذلك ممّا رشّح فيه القلم الأعلى عن إناء طبعه، كما أنه يظهر الارتياح إلى تبليغ رقيقه، هذا مآل الأمر الكريم. والكتاب الذي فيه تلك العبارات هو عندي. وبينما أنا أهمّ بجواب ذلك الأديب الدمشقي وأن أبثّ له ما في نفسي من أنَّ الحالة التي آلت إليها الأمّة العربية تدعو إلى تناسي الأحقاد، وأنه كيف كان الماضي فيجب أن نطوي بساطه، وأن نقدّم النظر إلى جروح هذه الأمّة على جروحنا الشخصية، وأكلّف ذلك الأديب الخيّر أن يعرض جوابي هذا للسدّة الهاشمية، إذ جرى ما جرى في الحجاز وكتب الله أن ينصرف الملك حسين عن مكّة وأن يستقرّ في العقبة وأن تتمطّى هذه الحرب بصلبها، لا بل تردف أعجازًا وتنوء بكلاكلَ ولا رادّ لقضاء الله.

ولمّا كنت طول حياتي أكره الوقيعة فيمَن تدور عليه الدائرة مهما كان من سابق، وكنت لا أجهل مكانة الملك حسين في العرب وإمكان استفادتهم منه حتّى بعد الدائرة التي دارت، فقد تناسيت كل ما كانت تلذعني به جريدة «القِبلة»، لا بل نسيت ما هو أقدم عهدًا من ذلك وهو الكتابة الرسمية في الطعن بي إلى الباب العالي يوم ذهبت إلى المدينة المنوّرة قبل الحرب وطويت كشحًا على تلك المقالات المحزنة في «القبلة» و«الفلاح» وعلى مقالة «فيلسوفنا شكيب» وأمثالها وقلت مع قصوري وعجزي وضعف إدراكي قد حقّق الله ما تُهكم بي فيه وأني كنت «فيلسوفًا» على الأقلّ في المسئلة العربية. وإنِّي رأيت المستقبل ممثلاً أمام عيني كما هو اليوم لا كما تخيّله غيري. فليس الآن وقت الشماتة ولا أوان التشفّي، لا بل هذا وقت تضميد الجروح وتسكين الأحقاد. فكتبت إلى الأهرام مقالة أشير فيها إلى

وجوب توقير الحرمة لجلالة الملك حسين، وتوقير مقامه في العرب ومكانه من بنوّة النبوّة وسلالة الرسالة، وأن لا ننسى أنه الآن شيخ قريش وسنام هاشم، وإنَّ فيه من الشمم والإباء وأخلاق الآباء ما لا ينكره منصف. وكان مرادي المضي على هذه الخطّة وأن يفهم سيِّدنا أنَّ مكانته وجلالته لم تكونا بعرش الحجاز، بل بأصالته الشخصية ورئاسته الطبيعية وأنَّ الأمر كما قيل.

إنَّ الأمير هو الذي	يمسي أميرًا يوم عزله
إن زال سلطان الولا	ية بات في سلطان فضله

وزاد رغبتي في هذه السياسة ما قرأته من كون الملك الهمام في حال ترحاله عن البلد الحرام وفي أشدّ ما كان عليه من الحنق لتغلّب ابن سعود عليه، لم يغب عن رشده ولم يستحسن عمل أولئك الحمقى المغفّلين من أهل الحجاز، الذين في هيعة الخوف من قدوم النجديين أسرعوا بطلب الحمايات الأجنبية وقال لهم ـ وهو ما رواه أخي وقرّة عيني عادل في هذه الشورى نفسها ـ «إنَّه يفضل أن يكونوا تبعًا لابن سعود على أن يكونوا خولاً للأوربيين» وهي كلمة جدير بمَن كان في سلسلة نسبه بضعة وثلاثون غطريفًا هاشميًّا ينتهون إلى رسول الله (ﷺ) من جهة، وإلى ابن عمّه أمير المؤمنين من جهة ثانية أن يقولها ويعمل بها، وكان مرادي بما لي من عظيم الدالّة على الأستاذ القدوة الحجّة السيِّد رشيد رضا أن أترجّاه بكفّ غربه عن النيل من جلالة الملك، وأن نسعى معه ومع غيره من صناديد الإسلام في تأليف ملوك العرب هؤلاء بعضهم مع بعض وإقناعهم بأنَّ القضيّة ليست قضيّة تاج ولا صولجان وإنَّما هي قضيّة الأمّة العربية التي ينبغي أن يكون أمرها فوق الإمارات والولايات، وأنه خير للمرء أن يكون راعي ضأن في عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاّء. وهل من سلطان أعظم أو أصغر لمَن سيطر الأجنبي عليه وقاده كما يقاد البعير؟ أَوَ ليس مولاي يوسف بالمغرب هو السلطان الأعظم وهو الخليفة وهو أمير المؤمنين هناك؟ فهل يوجد مع الفرنسيس له من الأمر شيء أو لأولئك المؤمنين من الأمر شيء؟

وكان يصحّ أن نؤلّف بين الأشراف العبادلة كلّهم الملك حسين والأمير علي حيدر باشا وسائر أعيان البيت الهاشمي، ونجعلهم كلّهم يدًا واحدة مع السلطان عبد العزيز بن سعود، ونعقد بينهم حلفًا يتناول أيضًا الإمام المتوكّل على الله يحيى بن محمَّد بن حميد الدين متعاهدين متضامنين متواثقين على حفظ الجزيرة العربية، والذبّ عن ذمارها وتراثها

أيًا كان وأنى وجدّ، وأن نعقد مؤتمرًا في مكّة يكون له القول الفصل في حلّ المعضلة الحجازية على وجه يرضى به الجمهور وتستقيم الأمور.

ولمّا أقام الملك حسين في العقبة وأخذ الإنكليز يداورونه ويراوغونه على إخلائها لهم وعبد الله، ابنه، يسعى بين أيديهم في تسليطهم على جانب من مفاتيح الحجاز والملك حسين يأبى التخلّي لهم عن شبر من أرض الحجاز فخطر ببالي أن نسعى إلى تقديم احتجاج على إنكلترة لإنكلترا لأجل التخلّي عن هذه المواقع كلّها للحجاز كما كانت ونمضيه من جلالة الملك حسين ومن عظمة السلطان ابن سعود ومن الإمام يحيى، ومن الملك علي ومن السيّد السنّوسي ومن السيّد الإدريسي وتثبت به لأوربة الناظرة الآن إلى العرب والشرق أجمع بالمكبرات أنَّ أمراء العرب وإن تحارَبوا وتقاتَلوا فإنَّهم يعرفون أن يجتمعوا ويتّحدوا في قضيّة عامّة وأنَّ الفريقين اللذين تسيل دماؤهما في ميدان الحرب وجهًا لوجه لا ينسيان واجباتهما أمام ملّتهما ووطنهما ويتذكّران قول شاعر الحماسة:

وذوي ضِباب مضمرين عداوة ... قرحى القلوب معاودي الأفناد

ناسيتهم بغضاءَهم وتركتهم ... وهم إذا ذكر الصديق أعادي

نعم، يُجاء إلى ذوي الأحقاد. وهذه فرانسة التي في باطنها تكره إسبانية وهذه تكرهها، وبينهما من المنافسة ما يعرفه كلّ مَن عرف أحوالهما ومن الأحقاد ما هو ملء قلوبهما، قد اتّحدتا وسيّرتا جيوشهما معًا إلى حرب الريف بحجّة أنهما وقّعتا بإزاء خطر عامّ. مع أنه غير معقول أنَّ دولتين عندهما ١٢٠ مليون نسمة يخشى عليهما من مليون نسمة ولن تتلجلج الدولتان أن تسمّي حركة الريف خطرًا عامًّا. وكذلك الطليان الذين في قلوبهم من الحقد على الفرنسيس ما لا يعرفه إلاّ الله تعالى... تجد جرائدهم على اختلاف نَزعاتها حتّى الديموقراطية منها وحتّى الاشتراكية تنادي صباح مساء بوجوب قهر الريف وقلع شوكته من محلّها ورفض كلّ صلح مع عبد الكريم إلى أن يكون انقاد باخعًا وسلّم سلاحه خامعًا. وليس منهم هذا التضامن كلّه عن مجرّد صفاء فيما بينهم وحبّ فريق لفريق، وإنّما لعلمهم أنهم وإن تنابذوا وتدابروا بُغْض بعضهم بعضًا فلا يخرجون عن كونهم أبناء جنس واحد وأنَّ عدوّهم واحد. ولا تكتم جرائد إيطالية القول بأنَّ استقلال الريف بثق في شمالي أفريقية إذا لم ينسدّ وصل إلى الجزائر فتونس فطرابلس وانتهى بمصر وسورية وبلاد العرب...إلخ وإن في هذا على أوربة من الخطر ما فيه. أفَترى خطرنا نحن ـ هذه الأمّة المسكينة الممزّقة

أشلاء ـ أعظم على أوربة من خطر أوربة الطويلة العريضة العزيزة المنيعة التي كلّ دولة من دولها كفوء وحده للأمّة العربية ـ على البلاد العربية ـ التي تحتلّها أوربة من كلّ مكان تقريبًا، أي الخطرين أعظم؟ لا شكّ أنَّ الخطر الأوربي على العرب أعظم من الخطر العربي على أوربة. فلماذا تتّفق تلك الدول الكبيرة العزيزة وتتعاضد بإزاء هذا الخطر الضئيل؟ ولا تتّفق هذه الإمارات الصغيرة بإزاء هذا الخطر الجليل؟

ما كان أبدع تلك الورقة التي يمضيها الملك الحسين بن علي وبجانبه السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن السعودي وبجانبه الإمام يحيى بن محمَّد بن حميد الدين وبجانبه مَن بقي من أمراء العرب، وما كان أشدّ وقعها على جمعيّة الأمم، وما كان أبهجها وأحلاها في نفوس الأمّة العربية وأشدّها لهم إنعاشًا وهي صكّ التضامن الذي يفهم منه الشرق والغرب أنه يوجد أمّة عربية[...] والبروسيين لا يصفون الودّ للبافاريين في وسط ألمانية ولكنّهم جميعًا على الأجنبي كالكرة المصمتة التي لا جوف لها ولا منفذ منها. وكان يمكن أن يكون ابن سعود والحسين بهذه المنزلة وأن يقتديا بالأمم الراقية ولا يفعلا ما يذكّر الناس بملوك الطوائف.

وكذلك كان ينبغي أن يكون إمضاء الملك حسين بجانب إمضاء السلطان عبد العزيز والإمام يحيى، في الاحتجاج لدى جمعيّة الأمم على قرار مؤتمر السلاح الذي جعل جزيرة العرب كلّها ببرّها وبحرها من المناطق الممنوعة، وحظر أخذ السلاح إليها ومنها وفيها وأدمجها بذلك في عداد بلاد الهمجيّة أو الممالك التي تحت السيطرة أوربة الرسمية. لأنه معلوم أنَّ كلّ دولة مستقلّة ذات سلطان قومي لها الحقّ الصريح بشراء السلاح وجلبه ونقله. وبناءً على ذلك عاد مؤتمر السلاح في جنيف فأباح لمصر وللحبشة ولفارس أن تشتري الأسلحة وتصنّعها وتشحنها. ولكن جزيرة العرب التي فيها ثلاث ممالك مستقلّة تمامًا هي الحجاز ونجد واليمن فقد عوملت في هذا المؤتمر بسياسة الدول الثلاث ـ إنكلترة وفرنسا وإيطالية ـ معاملة الطوغوا والكمرون أو الأوغاندة. وهذا موضوع سنفرد له مقالة مشبّعة. ولكنّنا الآن نقول إنَّه كان يليق بملوكنا الثلاثة أن يحتجّوا على هذا القرار الأعوج لدى جمعيّة الأمم ولدى الدول ويبلغوهنَّ أنهم لايعترفون به لا حالاً ولا استقبالاً، ولا أقول إنَّ الدول كنَّ يرجعنَ عن قرارهنَّ في أمر السلاح أو أنَّ إنكلترة كانت ترجع عن قرارها بشأن العقبة ومعان، وإنَّما أقول إنَّهنَّ يعرفن من هذا الاحتجاج، ولا سيّما إذا ختمه مَن هم أضدّاد بعضهم لبعض، أنَّ الأمّة العربية لا تريد أن تذوب ولا أن تضمحلّ وأنها تعرف ما لها

بخلاف ما لو سكتوا إلى الآخر عن هذه الاحتجاجات مع فظاعة القرارات الصادرة عليهم في غيابهم، فإنَّ أوربة تعرف عند ذلك أنه لا يوجد في الجزيرة أحد. ثمَّ إنَّ الاحتجاج اليوم قد يكون أساسًا تُبنى عليه أمور في المستقبل.

وإنِّي أعتقد أنَّ الملك حسينًا لا يتردّد عن الوقوف بجانب سائر ملوك العرب غي النضال عن حفنة من تراب الجزيرة العربية فضلاً عن تلك الحقوق الجليلة سواء كان ملكًا على الحجاز أم لم يكن، وسواء بقي ابن سعود في مكّة أم تحوّل عنها. ولكن المصيبة هي في أولاده أو بالأحرى بعض أولاده ومَن إليهم من الأطراف والأذناب والسفراء والمعتمدين... وعبد الله، ولطف الله، وأمر الله وأولئك الذين يقدّمون ثلاثة أرباع جزيرة العرب أن لزم هبة إنكلترة حتّى تجود لهم بالإمارة على الربع الرابع. وطالما نبّهنا إلى ما في التساهل بأمر الشؤون الخارجية والتمثيل الأجنبي من الضرر ولا نزال. وهي هذه الشجرة مستثمرة مع أنَّ سيِّدنا علم أنَّ ظروف الرخاء هي كالظروف النحوية يتوسّع فيها ما لا يتوسّع في غيرها وقد يجوز العبث في أيام الإقبال أجيالاً ولكن إذا سارت الأمور إلى هذه الشدّة فيصبح حتمًا في الأعين أن تتّخذ هذه المسائل لعبًا ولهوًا.

وكذلك أعمال الأمير عبد الله في شرق الأردن ليست ممّا يزيد الحرارة في تهوين ما أصاب جلالة والده. فإنَّ الناس يرون هذا الأمير لا يهمّه شيء سوى اكتساب رضى الأجانب فرنسيًّا كانوا أو إنكليزًا حتّى يصير أميرًا في البلقاء أو يصير ملكًا على سورية! ولقد اتّفقت الكلمة على أنه في هذا الباب ليس عنده من حقوق العرب شيء عزيز. وحدّثني ضابط كبير كان عندهم في الحرب العامّة ـ وهو اليوم في العراق ـ أنَّ عبد الله كان يدعو الإنكليز في تلك الأيام إلى دخول المدينة المنوّرة وأنهم كانوا إذا قالوا له: إنّنا نتحامى الدخول إلى الحرمين الشريفين مراعاة لعادة المسلمين أجابهم هازئًا بهذه العادة. والضابط الذي حدّث بذلك صديق لعبد الله ليس من أعدائه ليفتري عليه.

نحن لا نريد أن نذكر الماضي ونحبّ أن نطويه على غرّة، ولكنّنا نقول إنَّ تلقيب لويد جورج للكولونل لورانس بـ «ملك العرب غير المتوّج» هو أخبث هجو للأمّة العربية وأدلّ دليل على غفلتها وتسامحها في أسرار بلادها. ومتى كان عبد الله يدعو عساكر الإنكليز تدخل المدينة فلا عجب أن يسود هذا الولد المسمّى لورانس في تلك الأقطار وأن يصير ملكًا للعرب لا ينقصه سوى التاج! ولقد رأينا الإنكليز عندما ترجموا لورانس كم أحصوا من

مئات من المرّات التي عطّل فيها هذا الولد السكّة الحجازية ودمّر من مواقع العثمانيين ووفّر من الدماء والخسائر على إنكلترة. والحال أنه ما فعل شيئًا من ذلك إلاّ بالأعراب الذين كانوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم. ويا ليت الإنكليز قدّروا للملك حسين وللأعراب هذه الخدمات الجليلة وراعوه اليوم من أجلها، بل حصروا فضلها في دهاء لورانس وتلاعبه بالعرب وسوقه إيّاهم كالأنعام! ولمّا قضوا وطرهم من شقّ العرب عن الترك وهدم بنيان السلطنة العثمانية عاملوا الحسين بما يعرفه كلّ واحد وكانت النهاية في قبرص.

ولقد صحا صاحب الجلالة الهاشمية ممّا كان فيه من رين الاعتقاد بهم وأقرّ بأنه أخطأ ولكن عن حسن نيّة. أمّا عبد الله فلا يزال ممعنًا في سيره يوطيء للأجانب مناكب البلاد ويساعدهم على التمكّن من العقبة ومعان وتبوك ومدائن صالح وينازع ابن مسعود على الجوف وسكاكة حتّى يتهيّأ للإنكليز أن يمدّوا سكّة حديدية من شرق الأردن إلى العراق ويحصروا الجزيرة العربية برًّا بهذه السكّة وبما سيبنى على جوانبها من مراكز الطيران كما هم حاصروها بحرًا من الجهات الثلاث. ومن المعلوم أنّ أرهف سلاح لهذه الجزيرة هو هذه البيداء التي تحدّها من الشمال والتي كانت الواقي لها من غارات الأمم الفاتحة فيريد الإنكليز أن يستولوا على هذا الحاجز الوحيد الذي بقي للجزيرة تستجنّ به ويريد ابنك عبد الله يا سيّدنا الحسين أن يكون لهم رائدًا في هذا العمل الخطير على العرب حتّى يبقى أميرًا في عمان! وماذا يجدي العرب إذا كان ابنك أميرًا وهو أينما وجد مثلٌ السيطرة الأوربية أي مثل عبودية العرب وسقوطهم، لا جرم أنّ هوانا مع ابن سعود من أجل أعمال ابنك عبد الله والزمرة المحيطة به وبابنك علي وأنهم يرون لأنفسهم الحقّ في إهدار كلّ ما يقدرون على إهداره من حقوق العرب وأملاكهم غنيمة باردة للإنكليز إذا كان هؤلاء يمكّنون عليًّا من الحجاز ويتركون عبد الله في شرق الأردن.

وسيّدنا يدري أنّ المفكّرين من العرب ومن المسلمين يجوزون لأولاده عداوة ابن سعود ومحاربتهم إيّاه بكلّ سلاح إلاّ سلاحًا واحدًا وهو الاستعانة عليه بالأجانب والرضوخ للأجانب بحقوق العرب في مقابلة هذه المساعدة. وذلك في معنى مساعي ناجي الأصيل التي تؤول إلى إمضاء المعاهدة التي أنت رفضتها تفاديًا من الإقرار بالانتدابات وبالوطن الصهيوني وإلى وضع الحجاز في جمعيّة الأمم التي هي آلة في يد إنكلترة وفرانسة.

فمثل هذه الحركات تصرف القلوب عن سيِّدنا وتخمد تلك الحرارة التي كانت

موجّهة إلى تأليف ذات البين وجمع الشمل. وأحرِ بمَن وراءه أعمال عبد الله وأولئك الأعوان أن تعود ناره الموقدة ثلجًا من صنّين.

ومع هذا كلّه فلا أزال على رأيي من وجوب جمع الكلمة بين ملوك العرب وتأليف الإمام يحيى وسلطان نجد مع الملك حسين على شرط أن يتحالف الثلاثة على عدم إدخال الأجانب في أمور الجزيرة ويترك إلى مؤتمر عربي إسلامي فصل مسئلة الحجاز، وبهذا يكون العرب أفهموا أوربة الرابطة بالمرصاد لمعايرة السجول ووزن القوى أنَّ الأمّة العربية لم تمت، وأنها تقدر أن تجمع شملها، وأنها تحتوي عناصر حيّة هائلة، لا سيّما بعد أن أدهشت حرب الريف المشرق والمغرب وأثبتت حادثة الدروز تصداق المثل العربي «إنَّ في السويداء رجالاً».

مرسين، ١٥ أغسطس

شكيب أرسلان

* * *

الدروز أو بنو معروف بأجمعهم

لسعادة الكاتب العربي الأكبر الأمير شكيب أرسلان

ورد في مقالة مترجمة عن الألماني كلام عن الدروز يزعم الكاتب فيه أنَّ الدروز كسائر أهل سورية من أجناس مختلفة. وهذا الكلام خبص في خبص كسائر تخاليط الإفرنج إذا شرعوا في الكلام على الشرقيين.

فالدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد في العرب الجالين عن جزيرة العرب أصحّ عروبية منهم.

تستدلّ على ذلك:

أولاً ـ من سحنتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه بعضًا مثل الدروز. وكان أستاذنا الإمام الشيخ محمَّد عبده، رحمه الله، كثيرًا ما يفضي إليَّ بعجبه من شدّة هذا التشابه فيقول لي: إذا رأيت الرجل المعروفي وفي فكأنك رأيتهم جميعًا.

ثانيًا ـ من نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا تجد في الخارج عن جزيرة العرب مَن يتكلّم بالعربية مثل الدروز ولا مَن يتلفّظ بالعربية مثل الدروز، وإنَّ المرأة منهم لتسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معرَبة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها فتجدها أصحّ لغة من الرجل العالِم النحوي من غيرهم. والفصاحة التي اشتهر بها الدروز رجالاً ونساءً آتية من كونهم عربًا.

ثالثًا ـ التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متّفقة على كونهم أبناء اثنتَي عشرة قبيلة عربية، هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسين ـ ولا تزال منهم بقيّة في الجبل الأعلى بجهات حلب ـ وهذه القبائل كانت أوطنت بلاد معرّة النعمان منذ أوائل الفتح العربي. ثمَّ إنَّ التواتر فيما بينهم مأثور من الخلف عن السلف يؤيّد هذه التواريخ المكتوبة.

رابعًا - إنَّهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمّة السبعة وهم فرقة من الشيعة. فلمّا كانت الدعوة الفاطمية وتلقّاها بعض الشيعة فكان منهم الاسماعيلية وكان منهم الدروز انقسمت بعض العائلات إلى قسمين منهم مَن بقي على التشييع الأصلي ومنهم مَن غلا غلوّ الفاطميين. ولكن هذه العائلات التي أصلها واحد، معروف كثير منها إلى هذا اليوم وهم يعرفون أنهم أقارب وهؤلاء دروز وأولئك متاولة أي شيعة. وذلك مثل بني أبي علوان وبني عبد الصمد وبني المصري وبني القنطار وغيرهم. وكذلك موجود قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين السنّيين وإن كانت هذه القرابات أكثر منها بين الشيعيين والدروز، وذلك مثل بني أبي شقرا وبني الأعور وغيرهم. ولا يخفى أنَّ الشيعة في سورية هم عرب أقحاح أيضًا وبلادهم جبل عاملة، إنَّما سُمّيت كذلك لنزول عاملة قبيلة من عرب اليمن بذلك الجبل. كذلك نجد أسماء كثيرة منسوبة إلى قبائل يمانية مثل السكسكية في ساحل عاملة بقرب صيدا وهي نسبةً إلى السكسك من عرب اليمن وغيرها ممّا لم يحضُرني الآن بدون مراجعة كتب. ونجد بيوتات كثيرة محفوظة أنسابها إلى قبائل العرب مثل إخواننا الأمراء آل الحرفوش في بعلبك المنسوبين إلى خزاعة، ومثل إخواننا البكوات آل علي الصغير المنسوبين إلى وائل وغيرهم ممّا لا يُحصى. فإذا تقرَّر أنَّ الشيعة عرب فالذين أصلهم من الشيعة عرب. أمّا الذين أصلهم من أهل السنّة فلا بدَّ من أن يكونوا من أهل السنّة العرب أيضًا بدليل السحنة إذ إنَّ السحنة العربية لا تخفى، ثمَّ بدليل أنهم منذ تسعمائة سنة أي منذ هذا الانشقاق من الشجرة الواحدة لا يزال بعضهم يعرف بعضًا ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحدّ مع تعاقب القرون العديدة إلاّ عند العرب.

فلو كان أولئك المسلمون الذين تشعّب من دوحة نسبهم كثير من بني معروف هم من الآراميين أو الكلدانيين أو من الذين أسلموا من اليونان أو الرومان أو من الترك أو الكرد ما كان نسبهم محفوظًا.

خامسًا - في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروف الأنساب لى قبائل العرب، هذا إلى لخم وذاك إلى طيء، وأناس إلى تميم وأناس إلى كلب، ومنهم مَن درست صلاتهم بأقاربهم في القبائل ومنهم مَن لا تزال معروفة مثل بني عزّام الذين لهم أقارب في الشرارات ومثل بني قعيق وبني ركين وبني خميس الذين لهم أقارب في عرب العراق.

نعم، يوجد في الدروز بعض عائلات وجيهة، أصلهم من الأكراد والأتراك، وهم معروفون وعددهم قليل جدًّا وهذا لا يخرج هذه الطائفة عن صراحة النسب العربي لأنَّ العبرة بالسواد الأعظم كما لا يخفى.

جنيف، ١٢ سبتمبر ١٩٢٥ — شكيب أرسلان

***

نداء الأمير شكيب أرسلان، رئيس الوفد السوري

فلسطين، سورية، لبنان
في عصبة الأمم

نداء الوفد السوري ـ بسط الحالة في المناطق السورية ـ وصف الانتداب من حيث هو ـ الشعوب السورية ترفض الانتدابات ـ أعمال فرنسا في سورية ولبنان ـ فرنسا خرّبت البلاد وأرهقتها ـ كيف تحكم فرنسا وطننا المنكوب؟ ـ أسباب ثورة الدروز ـ ما دامت إنكلترا ألغت انتدابها على العراق فالواجب إلغاء الانتدابات كلّها ـ مطالب الأمّة السورية ـ شؤون وشجون.

«وعدنا القرّاء بأنه نترجم لهم البيان الذي وضعه الأستاذ المجاهد الأمير شكيب أرسلان، رئيس الوفد السوري في سويسرا. وها نحن نفي اليوم بهذا الوعد وننشر ذلك البيان البليغ الذي سطّره قلم الأمير الأرسلاني بلغة فرنسوية سلسة وأسلوب عالٍ، مستمدًّا الوحي من تلك الروح المتمرّدة على الظلم والاستبداد. والحقّ أنَّ رجلنا الكبير لم يدّخر سعيًا منذ وصل إلى سويسرا في خدمة وطنه إلاّ بذله ولا بابًا إلاّ طرقه فكان يذهب من مكان إلى مكان يحادث رجال السياسة العربية الذين بينهم وبين رجال فرنسا علاقة حتّى يصل إلى الأمور الآتية:

الأول: إقناع الفرنسيس بأنَّ إدارتهم سيّئة في سورية وأنَّ قضيّة الانتداب مكروهة عند السوريين كما هي مكروهة عند العراقيين. وأنَّ الأَوْلى بفرنسا أن تعدل عن خطّتها هذه وتتّفق مع السوريين على وجوه تضمن لها منافع خاصّة بدون أن تمسّ السلطان القومي السوري أواللبناني.

الثاني: أن تقبل بهذه المطالب وإن شاءت تعقد معها محالفة وتستبدل فرنسا في سورية الحبّ بالعداوة، وفي ٢٤ ساعة من هذا الوفاق يضع الدروز ومَن معهم من الأهالي السلاح وتُحقَن دماء الفريقين.

الثالث: إذا كانت فرانسا لا ترضى بتغيير الحالة الحاضرة ولا تعدل عن تجريد الحملات

على الدروز يسعى الأمير الأرسلاني في إقناع الوفود الدولية بسوء إدارة الفرنسيس في سورية وكونهم هم الذين أثاروا الشرّ.

وقد علمنا أنَّ الأمير قد تريّث في تقديم تقريره هذا وأبقاه عنده إلى أن يكون عرف ثمرة مساعيه في فرنسا بواسطة أولئك السياسيين، وكان عزمه على أنه إن رامت فرانسة الصلح على ذلك الوجه أن يتوقّف عن تقديم النداء المذكور، وإن لانت بعض الشيء أن يجعل نداءه لينًا ويرفع منه كثيرًا من العبارات التي وإن كان ظاهرها مهذّبًا رقيقًا فباطنها موجع لمَن هي في حقّه.

ولكن لمّا فهم الأمير بعد ذلك من سياسي كبير كان منتظرًا منه الجواب بعد مذاكرة المسيو بريان، أنَّ فرنسا تقول إنّها تفكّر في بعض التغيير في سورية، ولكن "بعد ضربها للدروز وأخذ ثأرها" قال الأمير لذلك المتوسّط: "إنَّ فرنسا تضرب الدروز، فإن نجحت في خضد شوكتهم عادت إلى الشدّة مع كلّ أهل سورية واستأسدت وتنمّرت، وصارت إدارتها أشنع من ذي قبل وعدلت عن فكرة التعديل بتاتًا. وأمّا إذا طالت مقاومة الدروز وتشعّبت ورأت أنَّ الشوكة لا يمكن قلعها كما أملت فربّما تميل عند ذلك إلى الصلح. ولكن مَن يدري ماذا يكون من سفك دماء الفريقين؟".

عند ذلك لم يرَ الأمير مناصًا من تقديم ندائه وهو:

جنيف، في ١٥ سبتمبر ١٩٢٥

حضرة صاحب السعادة المسيو داندوران، رئيس الاجتماع السادس لجمعيّة الأمم، وحضرات مندوبي الجمعيّة المحترمين.

منذ بدأت جمعيّتكم العليا تنعقد في جنيف لأجل الغاية المدنية القائمة بتلافي الاختلافات المسلّحة بين الشعوب لم تفتر الأمّة السورية تستدعي بلسان ممثّليها عضدكم المنير. إنَّ هذه الأمّة قد احتجّت بمزيد الشدّة في جميع الفرص وتحت جميع الصور على المظلمة التي حلّت بها بقسمة سورية إلى منطقتين، إحداهما فرنسوية والأخرى إنكليزية وفصل فلسطين عن سورية، وإرهاق كلّ منهما بشكل حكومة إنَّ هو في الواقع إلاّ شكل إدارة استعمارية مقنّع بكلمة "انتداب" الخلاّبة.

قد رأيتهم كيف أنَّ المستر امري، ناظر المستعمرات البريطانية، قد أقرّ أمام مجلس

عصبة الأمم بأنَّ قضيّة الانتداب لم يكن الشعب العراقي يرضى بها لإدارة أموره من الآن فصاعدًا. والحقيقة أنَّ الناظر البريطاني لم يقل كلّ ما يعلم وأنَّ الشعب العراقي لم يرضَ في وقت من الأوقات بالانتداب، وأنَّ إنكلترة قد اضطرّت إلى عقد معاهدة مع العراقيين يعرّف هؤلاء بها الإنكليز حلفاء لهم إلى أجَل مسمّى لا «منتدبين» فالعراق إذًا قد ردَّ صكَّ الوصاية التي كانت تقرّرت عليه بموجب عهد جمعيّة الأمم والحكومة البريطانية لم يسعها إلاّ تصديق مطالب العراق المشروعة.

والشعب السوري كالشعب العراقي يرى نفسه كفؤًا لإدارة نفسه. وما زال منذ الاحتلال الفرنسوي والإنكليزي يردّ الانتداب ويرفض الوصاية، بل إنَّه من قبل تجربة «الانتداب» المؤلمة ومن سنة ١٩١٩ كان قد أعرب السواد الأعظم من السوريين أمام اللجنة الأميركية التي ذهبت إلى البلاد لتحقيق كما هو معلوم عن إرادتهم الجازمة التي لا تتزعزع بأن يعيشوا أحرارًا مستقلّين نظير شعوب كثيرة لها ما للشعب السوري من الحقوق الواضحة في الاستقلال وأنَّ السوريين لم يخلّوا في وقت من الأوقات بالمعاهدات السرّية المعقودة بدون علم منهم وخلافًا لمصالحهم، كمعاهدة سايكس ـ بيكو التي لا تزال لسوء الحظّ قطب رحى الإدارة التي وُضعت عليهم.

ولم تكن مجاهرات الشعب السوري بطلب الاستقلال كلّها نظريّة، بل إنَّ ما يسمّيه الفرنسيس ثورة وشغبًا سواء في عكّار أو في بلاد العلويين أو في جبل عاملة أو في نواحي حلب أو في دير الزور أو في أماكن أخرى كثيرة، لم يكن سوى مظهر من مظاهر أنفة الشعب من تحمّل النير الأجنبي. قد يحاول المحاول أن يجعل هذه الحوادث من باب اللصوصية وأن يقلب حقيقة هذه المجادلات الوطنية السامية التي لا ترمي إلى شيء سوى التخلّص من الحكم الأجنبي الجائر، ولكن الحقيقة تبقى سائرة في طريقها. فإنَّ المناهضات الوطنية ليست من اللصوصية ولا من العبث. وينبغي البحث في أسوأ صفحة من صفحات قاموس السياسة الاستعمارية، لإطلاق كلمة ثورة أو شغب على نهضة أمّة تحترم نفسها وتدافع بقوّة السلاح عن أقدس أنواع حرّيتها.

وإنَّ معركة ميسلون التي استولى على أثرها الفرنسيس على دمشق وهذا بخرق معاهدة سايكس ـ بيكو نفسها، هي أيضًا برهان ساطع على كون السوريين لم يقبلوا نظام «الانتداب» وأنه مضروب عليهم بالقهر والقوّة.

هذا برغم أنَّ الحرب السورية مستمرّة من ستّ سنوات وأنَّ الحوادث الجارية في حوران ليست إلاّ صفحة من صفحاتها يمكننا أن نقول إنَّ الأحزاب الاستقلالية السورية لم تقطع الأمل من نجاح قضيّتها بالطرق القانونية وبدون إراقة دم. فلم تزل هذه الأحزاب منذ الاحتلال الإفرنسي الإنكليزي لسورية وفلسطين تبذل في الشعب نصائح الاعتدال والتؤدة. ولكنّها طالما حذّرت جمعيّة الأمم وأحيانًا الدول "المنتدبة" رأسًا من خطر إدامة النظام الاستعماري الذي ألقت هذه الدول بثقله على بلادنا، وبيّنت مغبّة الاستخفاف بالمطالب القومية السورية. فلم يسبق اجتماع واحد لجمعيّتكم السامية لم نستعطف فيه نظركم إلى هذه النقطة، ومع عدم اعترافنا بمبدأ "الانتداب" من أصله ومع إبدائنا جميع الاحترازات من هذه الجهة، قد بسطنا في السنة الماضية من باب التمثيل والاستشهاد أمام لجنة الانتدابات عدّة حوادث عن النمط الجاري عليه مع الأسف تطبيق ذلك الصكّ المتضمّن للانتداب.

ولقد أوضحنا أنَّ الإدارة الانتدابية في سورية لا ترى نفسها مسؤولة أمام جمعيّة الأمم ولكن أمام حكومتها المركزية فقط. فالتقرير الذي تقدّمه كلّ سنة لجمعيّة الأمم عمّا أصلحته من الأمور في البلاد التي "تحت الانتداب" ليس إلاّ مجرّد رسم لا غير. ولقد قصصنا على تلك اللجنة عن كيفيّة سير السلطة الانتدابية في قمع العصابات، لا سيّما في بعلبك بضرب غرامات طائلة على قرى حديثة ليس لأهلها أدنى علاقة بالعصابات، بل هم بالعكس أشوق من السلطة إلى التنكيل بها. فالمبدأ العامّ الذي حازت عليه السلطة الانتداب إلى الآن هو الأوهام وجزاءَ جميع الطائفة بعمل بعض أفرادها.

ولمّا كانت الحكومات "المنتدبة" تلتزم خنق الحركة الوطنية وحصر الأهالي في قبضة الطاعة. وكانت بالنظر إلى الحالة المالية الحرجة في هذه الأيام لا تقدر على حشد جيوش جرّارة، فقد عوّلت على سياسة إلقاء الرعب ظنًّا بأنه أقصر طريق وأفعل وسيلة لبلوغ الغاية. وجلّ اعتمادها هو على الطيّارات التي قذائفها لا تصيب المحاربين بقدر ما تصيب الأهالي الوادعين والنساء والأولاد. والحقّ أنَّ من الفضائح الكبرى أنَّ أولئك الذين جاءوا يعلّموننا المدنيّة يختارون هذه الطرق في قمع الثورات وتوطيد النظام. ولا جرم أنَّ رجال العسكرية في هذه الدول يزيدوا على أن ضربوا سمعة هذه الأمم الكبيرة ضربة كبيرة قاضية، على حين أنها تقيم أنفسها مقام المرشد الأمم الصغيرة. فالدول الملقّبة بـ "المنتدبة" استعملت الطيّارات على اعتقاد أنه "كلّما كثُرَ عدد القتلى من النساء والأطفال سقط في يد الأهالي" كان الرعب أعظم والخضوع أتمّ. وبعبارة أخرى تتوفّر النفقات الحربية على حساب أرواح

الصغار والنسوة والشيوخ العاجزين. لقد كان أثر هذه السياسة من الوجهة الأدبية سيّئًا إلى الغاية كما أنَّ الأثر لم يكن شيئًا لأنَّ وقائع هذه الطيّارات كانت تأتي دائمًا بعكس المقصود منها. ذلك أنَّ الأهالي يرون أنه لأجل وجود أحد السائتين على مسافة ٤٠ كيلو مترًا منهم كانت تحلّق الطيّارات فوق قراهم وبدون أدنى تحذير سابق ترمي عليها بأطنان من الديناميت فتدمّر مساكنهم وتقتل أطفالهم وحرمهم وشيوخهم، فلا عجب أن كانوا من بعدها يتميّزون غيظًا وهبّوا متقلّدين أسلحتهم للأخذ بالثأر مهما كانت العاقبة. وهذا كان أقوى السبب في حادثة جبل الدروز. فإنَّه مع كونه ممّا لا ينكر أنَّ هذه المجادلة هي من جملة صفحات النهضة القومية السورية للمطالبة باستقلال الوطن وأنَّ سلطان الأطرش، زعيم هذه الحركة، كان قبل هذه المرّة قام بثورتين بأسم حرّية سورية، وذلك منذ بضع سنوات، فلا ينكر أيضًا أنَّ السلطة الانتدابية هي التي في هذه السنة أرّثت النار بيدها وأنَّ وقائع هذه الطيّارات نفسها هي التي أعظمتها. وربّما كان ممكنًا حصر الحادثة في نقطة واحدة لو لم تكن الطيّارات المعهودة العزيزة على «المنتدبين» إلى تلك الدرجة جاءت ودمّرت قرى ليس أهلها من جماعة سلطان الأطرش، ولا كانوا متحفّزين للدخول في هذه الثورة. وفي سنة ١٩٢١ دمّرت السلطة الفرنسية قرى برمّتها من أجل أنَّ بعض خيّالة مجهولين رموا بالرصاص الجنرال غورو. وفي آخريّات هذه الآونة تعدّى بعض الأشقياء على جنرال إفرنسي وحاشيته ولمّا كان قد صادف وقوع هذا الحادث بقرب قرية من قرى الدروز الواقعة بجوار دمشق يقال لها «مرجانة» فقد ألغت السلطة وجود هذه القرية.

فليس بمثل هذه الأفاعيل تسترجع مكانة بدأ بها الاحتلال، والأمر بالعكس فمَن قصد المبالغة في التخويف يخشى أن لا يخاف منه أحد.

[...] جرّارة إلى بلادنا مع علمها بأنها تجشّمها بذل الملايين تلو لملايين. أفمن أجل القيام بمَهمّة «انتداب» مجرّدة من الغرض والعرض تستغرق هذه القناطير المقنطرة؟ لسنا نصدّق ذلك، بل إنَّ هؤلاء «المنتدبين» يتصرّفون ببلادنا كما يتصرّفون بمستعمراتهم. وما من أحد يسلِّم بأنَّ فرانسة بعد هذه الخسائر جميعها ترضى بالانصراف من سورية. فما كان أجدرها بأن تعترف منذ هذا اليوم بأنَّ هذا القطر راشد وأنه مليء بالحياة الاستقلالية.

فنرجو من جمعيّة الأمم أن تتدخّل رأسًا في المعترك السوري بحيث تفتح أعين فرانسة وتوفّر عليها خسائر جسيمة، لن تهمل هي قيدها علينا في الحساب الجاري.

إنّ حالة سورية العمومية بائسة من كلّ الوجوه. فالأمن مفقود والتجارة في انحطاط مستمرّ والبضائع الصادرة لا تبلغ سنويًا مقدار ثلث البضائع الداخلة، فالبلاد سائرة شيئًا فشيئًا إلى الهاوية، أمّا الإدارة فليست مرضية وتجد في جميع القطر ضيقًا متزايدًا يومًا فيومًا.

ولأجل أن نودع الذهن صورة عن طرز الإدارة يكفي أن نقول أنّ اليوزباشي المسمّى "كاربيليه" الذي كانت سيرته سبب طفوح الكأس في جبل الدروز، كان يضرب علنًا بالسياط في السويداء. ومن جملة مَن بسطهم تحت السوط قائم مقام سابق لـ "صرخد" كما أنه أُرسل إلى الأشغال الشاقّة بدون محاكمة مديرًا سابقًا لناحية "ساله"، وأجبره أن يكسر الحصى على الطريق.

وعند قدوم الجنرال ساراي ظنّ الأهالي أنه قادم ببرنامج جديد، فقدمت عليه وفود من جميع أنحاء البلاد لبسط مطالب الأمّة وتقاضى انتخاب جمعيّة تأسيسية تقوم بوضع دستور للبلاد. ولكن هذه الوفود كلّها لم تلبث أن عادت إلى أماكنها بخيبة أمل لا توصف. ولم يكن الذنب في ذلك من المندوب السامي الذي لا يقدر أن يعد إلاّ بما يمكنه إجراؤه ولكن باريز هي التي لا تبغي تبديل شيء من شكل الإدارة الحالي وهي التي ترى في توسيع حرّية سورية خطرًا على سياستها الاستعمارية عندنا. وكان جواب الجنرال للسوريين بأنّ مطالبهم مخالفة لصكّ الانتداب الذي عهدت به جمعيّة الأمم إلى فرانسة. فأجابته الجماعات السورية المذكورة بأنّ صكّ الانتداب ينصّ على وضع قانون أساسي لسورية تشترك في إخراجه السلطة الانتدابية مع الحكومة الوطنية، وأنّ هذا الشرط لم يحصل الوفاء به أصلاً. على أنّ هناك برهانًا آخر قاطعًا لا يقبل الردّ على سواغ التبديل وهو أنّ صيغة "الانتداب" لم يقُل أحد إنّها آية مُنزلة لا يمكن إدخال شيء من التغيير عليها. وقد رأينا الإنكليز الذين لهم على العراق مثلما فرانسة على سورية من "الانتداب" أدخلوا على صورة الانتداب تعديلات كثيرة وفقًا لمطالب الأهالي، ولمّا بسطوا القضيّة في السنة الماضية لدى مجلس جمعيّة الأمم لم يكن أسرع من المجلس إلى تصديق هذا الوفاق الإنكليزي العراقي.

فلو أنّ فرانسة عرضت لمجلس جمعيّة الأمم أنّ الأحوال الحاضرة أوجبت عليها أن تمنع سورية من الحرّية...، في صكّ الانتداب لم يكن المجلس اتّخذ بإزاء طلبها سوى الخطّة التي اتّخذها بإزاء طلب الحكومة البريطانية في القضيّة العراقية.

لا جرم أنّ جمعيّة الأمم التي تجهل ما هي عليه سورية من الاستياء الشامل كانت تهنّئ

فرانسة على هذه البديئة التي فيها رضى قسم كبير من الأهالي. أمّا نحن الذين نمثّل أحزاب الاستقلال التامّ في سورية وبين الجاليات السورية في القارّتين الأميركيّتين فلا تقبل الانتداب بأيّ شكل كان لأنه كان قد وُضع بدون علمنا وبلا مشاورتنا فهو متداع من الوجهة القانونية كما أنه مخالف للمواعيد التي صرّحت لنا بها دول الائتلاف في أثناء الحرب العامّة.

فنحن نستميح إذًا جمعيّتكم العليا إماطة المظلمة التي وقعت علينا بتحقيق المطالب الآتية:

أولاً ـ الاعتراف باستقلال سورية ولبنان وفلسطين وبالسلطان القومي لهذه الأقطار الثلاثة.

ثانيًا ـ حقّ هذه البلدان أن تتّحد بعضها مع بعض بحكومات مدنية شوروية وكذلك مع سائر البلاد العربية تحت شكل حلفي.

ثالثًا ـ المبادرة إلى القرار بإلغاء الانتداب.

رابعًا ـ إجلاء العساكر الفرنسوية والإنكليزية عن سورية ولبنان وفلسطين.

خامسًا ـ إدخال سورية ولبنان الكبير عضوَين في جمعيّة الأمم مع إعلان استقلالهما التامّ الناجز.

هذا وإنَّنا نستنجز جمعيّة الأمم قبل أيّ عمل آخر الأمر السريع بوقف رحي القتال الدائر في سورية وتعيين لجنة مؤلّفة من أعضاء متحايدين تذهب لأجل التحقيق رأسًا عن وقائع جبل الدروز والأسباب التي ساقت الدروز وغيرهم من الأهالي إلى الجلاد ورفض الاستعباد.

إنَّنا نقدّم مطالبنا هذه بتمام الثقة أنَّ مجمع جنيف ندوة العالم مؤتمر الدول مجلى إرادة الأمم يستمع لندائنا اللهيف ويعرف منه قوّة صوت الشعب الذي يئنّ من الجور وهكذا نعتمد على اتّحاد الأمم الحرّة ضمن دائرة الحقّ والعدل.

وتقبّل يا سعادة الرئيس وحضرات الأعضاء فائق احترامنا.

شكيب أرسلان

(من أعضاء المؤتمر السوري الفلسطيني عن الأحزاب
الاستقلالية السورية في سورية وأوربة وأميركة)

الإنسانية الإفرنسية...

لسعادة الكاتب العربي الأكبر الأمير شكيب أرسلان

إنَّ جريدة الأومانتيه التي هي الجريدة الوحيدة التي تجهر بالحقّ عن حرب الريف لأنها جريدة العَمَلة والصعاليك من الأمّة الإفرنسية، وقرّاؤها نحو نصف مليون إنسان، تقول في عددها الصادر في ١٧ سبتمبر:

«إنَّ الجرائد الكبرى في باريز كانت قد عملت ضوضاء حول قضيّة الفظائع الريفية المزعومة، ولكن الأسرى الفرنسيس الذين خلصوا نجيًا من الريف كذّبوا هذه الأخبار.

ويجوز أن يكون بعض الثائرين ارتكبوا أعمالاً فيها قسوة بحقّ الأسرى الفرنسيس ولكن من المحقّق أنَّ القوّة ليست ممّا احتكره أولئك «البرابرة» وحدهم. وإليك حادثة تلقّيناها من مصدر لا شبهة فيه تبرهن لك على ما وصلت إليه الفظاظة العسكرية الفرنسوية.

أُسِرَ ثلاثة من الريفيين في جهة تازة وعند استنطاقهم أجاب أحدهم: «وإذا أُخْلِيَ سبيلي أعود أيضًا إلى القتال» فالضابط الذي كان يستنطقه أمرَه بحفر قبره بيده ثمَّ وضعوه فيه ورموا دماغه برصاصة مسدّس. أمّا الاثنان الآخران فشدّوهما بأسلاك نحاسية شدًّا بالغًا من الضغط فمات أحدهما في الليل والآخر كان في دور النزع ساعة فراق مخبرنا للموقع الذي جرت فيه هذه الحادثة.

نحن نعلم أنَّ العسكرية الفرنسية لم تكن تقلّ شيئًا عن العسكرية الألمانية التي كنّا ننتقدها وأنَّ عساكرنا في المستعمرات ارتكبوا أفظع الفظائع. ولكن من النوادر أن يقتل الأسرى الذين لا يقدرون أن يدافعوا عن أنفسهم بصورة تبلغ هذه الدرجة من البشاعة والنذالة». انتهى كلام الأومانتيه.

ويظهر أنَّ مسئلة إجبار قوّاد الفرنسيس الأسرى الذين يقعون في أيديهم من المغاربة ليست من النوادر، بل إنَّ أولئك القوم الذين يزعمون انهم حَمَلة أعلام المدنيّة قد عملوها في الجزائر وتونس مرارًا.

أخبرني أحد كبراء السوريين من الطائفة المارونية وكان في شبابه يتعاطى المحاماة في

تونس أنَّ جنرالاً فرنسويًّا ـ نسيت اسمه ـ قبض بحضوره على أحد رؤساء القبائل العربية التونسية وكان حانقًا عليه فلمّا وقع في يده أمره بحفر قبره بيده وقبل أن ينزله فيه خاطبه بكلامٍ لا أريد أن أنقله هنا خوفًا من تهييج العواطف... ثمَّ أنزلوه في القبر حيًّا وهالوا عليه التراب. قال لي الوجيه السوري الماروني ـ ولا يزال حيًّا يُرزق، والحمد لله ـ فلمّا شاهدت هذا المنظر عفت حياتي ولم أملك أن أخاطب ذلك الجنرال بكلامٍ قاسٍ جدًّا كما يستحقّه عمله، وجرت بيننا مشاحنة، ولكن لسوء الحظّ لم أقدر على منعه من دفن ذلك الزعيم العربي حيًّا.

ولا يحصي الإنسان مهما أطال في وصف أعمالهم من هذا القبيل في مستعمراتهم. والقصص التي نعرفها لهم في باب القسوة والبربرية إنَّما نعرفها من كتبهم وجرائدهم. ومؤخّرًا قرأت في بعض جرائدهم أنَّ جماعة من الثائرين كانوا يريدون أن يحيطوا ببعض الجنود الفرنسوية وأشعلوا نارًا حتّى يخنقوهم بالدخان. ولكنّهم لم يتمكّنوا من ذلك ووقع منهم ثمانية في أيدي الفرنسيس. قالت الجريدة وأظنّها «الماتن» أو «الجورنال» فعملنا بهؤلاء العمل الذين كانوا يريدون أن يعملوه بنا وخنقناهم بالدخان».

إنَّنا أولاً لا نثق بأقاويلهم لكثرة ما تعوّدنا منها الكذب والبهتان، فيجوز أن يكون ما قالوه عن أولئك الثائرين حديثًا مفترى. ثانيًا على فرض صحّة ما قالوه وإنَّهم إنّما خنقوا هؤلاء الثمانية مقابلة بالمثل فأين الفرق إذًا بينهم وبين الثائرين الذين يزعمون أنهم ذهبوا إلى بلادهم لأجل أن يعلّموهم المدنيّة... ثالثًا أولئك الثمانية صاروا أسرى في أيديهم فكيف يجوز للضبّاط الإفرنسيين أن يعملوا هذا بالأسرى ومعلوم أنَّ الأسير لا يجوز قتله فضلاً عن خنقه بالدخان!...

هذه الحادثة جرى ندّها وأفظع منها في الجزائر، وهو أنَّ بعض رؤساء القبائل التجأوا إلى كهف لم يقدر الفرنسيس أن يدخلوا عليهم فيه فأشعلوا النار في فم الكهف وما زالوا يوقدون هناك جزل الحطب حتّى اختنق مَن في الغار جميعًا. وكثير من كتّاب الفرنسيس لا يزالون يظهرون الخجل من حادثة الكهف هذه إذ لا ينكر أنَّ أمّة كهذه فيها مَن يعرف حقوق الإنسانية. وكنّا نظنّ أنها عبرة تكفيهم معرّتها وتمنعهم عن الإتيان بمثلها، فإذا بالطبع قد غلب التطبّع، وأن تبيّض جلود الزنج أقرب من أن يغيّر هؤلاء القوم طباعهم. فلقد عادوا إلى خنق الأسير بالدخان كرة أخرى. وهم بعد هذا يتّهمون الألمان بالغلظة والقسوة وحاشا للألمان أن يفعلوا بأسراهم هذه الأفاعيل.

هل نظنّ أيّها القارئ أنَّ الريفيين ومن إليهم من القبائل مستبسلون مستميتون متّفقون على الموت دون التسليم، حبًّا بالموت؟ كلا، إنَّ الموت ما من أحد يحبّه ولا عنترة بن شدّاد. ولكن قد رأوا من فظائع الفرنسيس والإسبانيول ما هوّن عليهم الموت ومثال ذلك دروز حوران الذين رأوا من الهمجيّة ما رأوا...

وعندما قام في البارلمان ووبّخ ناظر الحربية على الأولى الصادرة بشأن الأوامر الصادرة بتقتيل الأسرى وعرض صورة وفيها ظهر على طرف السرج رأسان معلّقان من رؤوس المغاربة، أظننتَ أنها قامت قيامة البارلمان الإفرنسي لهذا الأمر ولهذه الصورة الفوتوغرافية؟

كلا، والله فقد طالعت جريدة الوقائع بالتدقيق. وما استطير من أولئك النوّاب لهذا العمل أحد تقريبًا. وربّما كان أكثرهم في الباطن مسرورين لِما يعتقدون فيه من الإرهاب. نعم، الجنرال ناظر الحربية السابق أجاب هكذا: سأفحص القضيّة. وأنا على يقين أنها كلمة ألقاها وأنه لم يفحص شيئًا. ثمَّ إنَّ أحد "السوسياليست" تكرّم بكلمة: هذا مؤسف.

لم يوجد مَن اعترض وقبّح غير الشيوعيين وهم ٢٧ نائبًا من ٦٠٠.

أفعلّمت أيّها الشرقي مَن أولئك المتمدّنون الذين أتوا إلى مراكش والجزائر وتونس وقدموا أخيرًا إلى سورية ليعلّموا الأهالي المدنيّة؟

جنيف

شكيب أرسلان

***

من أسباب الثورة السورية
أنواع المظالم ★

قبل البحث في موضوع عريضتي هذه إلى هيئتكم الموقّرة أودّ أن أذكّر حضراتكم بأنّ الأمّة السورية لم تقبل قط مبدأ الانتداب لا في سورية ولا في فلسطين وأنها لم تُستشَر في هذا الموضوع على الإطلاق، ولو استُشيرت لرفضتْه بتاتًا معتمدة في ذلك على حقّها الصريح في الحرّية والاستقلال.

إنّنا نلفت نظركم إلى الأساليب المتّبعة في تنفيذ الانتداب في تلك البلاد لأنّ درس هذه الأساليب من اختصاص هيئتكم الموقّرة.

صدر منذ ثلاثة أشهر في بيروت قانون يتعلّق بالأجور، أدّى إلى استياء المستأجَرين لأنه ضاعف خطر الأزمة المالية الضاربة أطنانها في المدينة كما في سائر أنحاء سورية.

وقد رأى المستأجرون أن يذهبوا متجمهرين لعرض شكاويهم على ولاة الأمور، وكان ذلك مظهرًا مشروعًا من مظاهر الرأي العامّ نرى مثله في جميع البلدان المتمدّنة. وكانت السلطة تجيز دائمًا مثل هذه المظاهرات ما دامت غير مسلّحة ولم تتّخذ صيغة خطرة. وهكذا كانت مظاهرة بيروت فلم يُرَ فيها سلاح وكانت غاية المتظاهرين سلمية بحتة لا يتوخّون منها سوى إقناع الحكومة بجور القانون الجديد.

وانضمّ الجمهور إلى المستأجرين إمّا من قبيل التضامن أو الفضول ولمّا وصلوا إلى سراي الحكومة أخذوا يشكون ويتذمّرون. فصدر الأمر إلى البوليس بتشتيت شمل المتظاهرين كما لو كان عملهم غير عادي أو غير مشروع، وأبى المتظاهرين الانصراف. فانهال رجال البوليس عليهم ضربًا. ودافع بعضهم من أنفسهم بالأيدي لأنه لم يكن لديهم سلاح. وحينئذٍ أصدر الضبّاط الأمر بإطلاق الرصاص فقتل ثلاثة من الأهلين وجرح كثيرون، أمّا رجال البوليس فلم يُجرَح منهم سوى واحد أو اثنين جروحًا بسيطة.

★ ترجمة تقرير قدّمه صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان إلى لجنة الانتدابات الدائمة في جمعيّة الأمم قبل ضرب دمشق (تعريب جريدة الشورى).

وإذا كانت مثل هذه الحوادث تقع في بيروت ميناء سورية والمدينة التي تُعدّ أكثر حضارة من سائر مدن الشرق، فماذا يقال عمّا يجرى في الأرياف وفي المدن الداخلية؟

وقد أجاز المسيو «كايلا»، حاكم لبنان، لنفسه في هذه السنة أن يتدخّل تدخّلاً ظاهرًا في انتخابات المجلس التمثيلي في لبنان الكبير على الرغم ممّا زعمه الرجال الرسميون عن حرّية الانتخابات، وهكذا لجأ إلى جميع وسائل الضغط الممكنة لتأثير انتخاب الأشخاص الذين رشّحتهم السلطة المحتلّة.

ولذا قامت لجنة الانتدابات الدائمة بتحقيق مباشر في لبنان الكبير كلّه فإنها لا تسمع إلاّ جوابًا واحدًا وهو أنَّ الانتخابات لم تكن حرّة وأنَّ «كايلا» أتى بالعجائب لخنق المعارضة.

أمّا العدلية في لبنان الكبير فقد أدمجت بالعدلية الفرنسوية إدماجًا بحيث أصبحت تلك البلاد تابعة لفرنسا تمامًا من حيث المحاكم. وهذا اعتداء صريح على حقوق اللبنانيين الذين يجب أن يكون لهم محاكم مستقلّة. ولم يكن ذلك ضروريًّا لإصلاح المحاكم وقد احتجّت الصحف العربية كلّها في إدماج العدلية في لبنان بالعدلية في فرنسا أنَّ لبنان مستعمرة فرنسوية، بل ولا يبدو أنكم ترغبون في أن يكون الاستعمار والانتداب واحدًا.

وقد واصل المسلمون في البلاد كلّها احتجاجاتهم الشديدة على مصادرة الفرنسويين للقسم السوري من سكّة حديد الحجاز ووضع يدهم عليه. وهذه السكّة كما يعلم العالم كلّه أُنشئت في عهد السلطان عبد الحميد بإعانات جُمعت من جميع مسلمي العالم. وقد عدّتها تركيا مؤسّسة دينية وربطتها بوزارة الأوقاف.

فليس ثمّتَ أقلّ مبرّر لوضع نير الفرنسويين على هذه السكّة التي يجب أن تكون إدارة إسلامية بحتة تشرف على كلّ أقسام السكّة الحجازية في سورية وفلسطين وشرق الأردن والحجاز.

وقد احتجَّ المسلمون السوريون مرارًا لدى الحكومة الفرنسوية على الاعتداء على حقوقهم الدينية، ولكن فرنسا في سورية وإنجلترا في فلسطين لا تزالان تستخدمان سكّة حديد الحجاز كما لو كانت ملكًا لهما. وهذه الحالة لا يمكن أن تدوم بعد الآن.

وقد وقع مثل هذا الاعتداء على حقوق سورية في المؤسّسات الدينية أو الأوقاف، فإنَّ الفرنسويين يريدون أن يسيطروا على أوقاف المسلمين. وإذا كان لها مجلس يديرها في دمشق فإنَّ هذا المجلس لا يستطيع أن يقرّر شيئًا من دون المستشار الفرنسوي وذلك خلافًا

لِما هي الحالة مع المؤسّسات الدينية المسيحية أرثوذكسية كانت أم كاثوليكية، ومع المؤسّسات الدينية الإسرائيلية التي تركت إدارتها بيد الرؤساء الدينيين ومجالس الطوائف من دون أن يكون للسلطة يد فيها.

وتزعم السلطة الفرنساوية أنها تتدخّل في أوقاف المسلمين لإصلاحها. فهي تُعنى في هذه الحال بالمسلمين أكثر من عنايتها بالمسيحيين وليس ذلك حقًّا ولا عدلاً. وقد أدرك الإنكليز في فلسطين خطّتهم في آخر الأمر فتركوا الأوقاف الإسلامية في هذه المنطقة للمجلس الإسلامي الأعلى الذي انتخبه السكّان المسلمون انتخابًا حرًّا.

وهكذا أصبحت الأوقاف الإسلامية بفلسطين في حالة نموّ ورقيّ وهي على كلّ حال تُدار بأسلوب أحسن من الأسلوب الذي تُدار به الأوقاف الإسلامية في سورية.

وتسير الحالة الاقتصادية في سورية سيرًا حثيثًا إلى الخراب، فإنَّ الاقتصاديات في البلاد احتكرها فريق من المتموّلين الفرنساويين الذين يديرون بنك سورية والبنك التونسي وشركات سكّة الحديد والميناء وغيرها. وقد زاد مقدار الخارج على مقدار الداخل زيادة فاضحة. وتقدَّر خسارة سورية السنوية بخمسمائة مليون فرنك، ويمنح الفرنساويون تجارتهم كلّ المزايا والتسهيلات ويقيمون كلّ الصعوبات الممكنة في الجمارك لإنقاص المعاملات التجارية مع البلدان غير الفرنساوية. فمثل هذه الاحتكارات لا يمكن أن تكون إلاّ على حساب السكّان. وهكذا تصبح سورية مستعمرة فرنساوية بدون أن يُطلَق عليها هذا الاسم.

ولا تزال إدارة البلاد إدارة عسكرية على الرغم من وعود الجنرال ساراي بمنح سورية بعض أنواع الحرّية. على أنَّ هذه الوعود التي سُمعت من هذا المندوب السامي الجديد لم تكن غير كلام. ويحتمل أن يكون في حاجة الإقناع بوجوب تعديل النظام ولكنه قد يعجز عن ذلك ما دامت الحكومة المركزية في باريز تعمل بتأثير النزعات الاستعمارية والأحزاب العسكرية والهيئات الإكليركية وبتأثير غرفتَي التجارة في مرسيليا وليون، فإنَّ كلّ هؤلاء يعارضون في أن تكون سورية شيئًا آخر غير أرض فرنساوية.

لقد سبق لنا في تقاريرنا المقدّمة إلى لجنتكم في سنة ١٩٢٤ أن تكلّمنا من وسائل القمع التي لم يسمع بمثلها من قبل والتي استُعملت في منع اللصوصية في جهات بعلبك[1] وكيف

(١) الشورى، يشير الأمير إلى حوادث ملحم قاسم وتدمير السلطة لفريق بريتال وحورتلا.

كانت السلطة تضرب الضرائب على القرى والأُسَر لا فرق ولا تمييز بدون أن تحصل على دليل أو برهان يثبت اشتراك هؤلاء الناس مع الأشقياء.

ولا أريد الآن أن أعود إلى هذا الموضوع، ولكنّي أقدّم للجنتكم وثائق لا يمكن إنكارها وهي تدلّ على الحدّ الذي بلغت إليه السلطة الفرنساوية في احتقار حقوق البشر في بلادنا وانتهاك أبسط مبادئ الحقّ والعدل.

وإنّي أقدّم لحضراتكم ضمن هذا التقرير نتفًا عن الصحف في بيروت نفسها والتي ترون فيها احتجاجات شديدة على استهداف السلطة للأبرياء رغبة في إرهاب المجرمين. وقد أجمعت الصحف الكاثوليكية والأرثوذكسية الإسلامية رغم المراقبة الشديدة على استنكار هذه الأساليب والتنديد بها.

فعسى أن تعمد لجنتكم الموقّرة إلى ترجمة هذه المقالات أو الفقرات المهمّة منها ليمكن تصوّر حقيقة ما يجري في بلادنا.

ونحن نعلم أيّها السادة أنكم تريدون في لجنة الانتدابات الدائمة أن تعملوا بنزاهة تامّة ومن دون أن تتأثّروا بأقوال الدول المنتدبة، ونعلم أيضًا أنَّ رضاء البلاد الواقعة تحت الانتداب وحرّيتها ورقيّها يهمّكم كثيرًا. لذلك نتقدّم إليكم بهذا النداء ونحن ممتلئون ثقة ونرجو أن تتقبّلوا فائق احترامنا.

جنيف، في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

(من النوّاب السابقين والعضو في المؤتمر السوري الفلسطيني، ومندوب الأحزاب السورية الاستقلالية في سورية وأوربة وأميركا)

***

ردّ الفعل أضرّ من الفعل!

لسعادة الكاتب العربي الأكبر الأمير شكيب أرسلان

الفرنسيس الآن سكارى بالدماء ـ لا سيّما دماء الأطفال والنساء الذين يموتون تحت مدمِّراتهم ـ يرخون لأنفسهم عنانها في الانتقام من أهل سورية بالتقتيل والتحريق والتدمير عاجزين عن المسلَّح من السوريين، أُسودًا على العُزّل المقلّمة أظافرهم، يظنّون أنهم بهذه الأفعال البربرية التي ذكّرتنا أفاعيل آبائهم في الحرب الصليبية قد قضوا أوطارهم وبلغوا أوتارهم وبرّدوا غنيمة سورية، فلن ترفع في وجههم يدًا بعد اليوم أبدًا.

وقبل أن أصل إلى النتيجة أحبّ أن أعرّج على موضوعي العزيز عليَّ الذي طالما نُحِتَتْ أثلتي من أجله، وصوبّت عليَّ أسهم الانتقاد مع الإنكار والإكبار لا سيّما من جهة الناشئة الدمشقية نفسها، وهو قولي من مدّة طويلة ومن قبل تجربة الحرب الكبرى، ومن قبل احتلال سورية: أنَّ الإفرنجي هو الإفرنجي ما تغيّر شيء من طبعه، فهو اليوم كما كان عندما زحف إلينا من ثمانمائة سنة بما فيه من الظمأ إلى الدماء، والقرم إلى لحم مَن يعاديه وأنَّ هذه المدنيّة التي يتدرّع بدعواها إن هي إلاّ غطاء سطحي لِما هو كامن في طبعه متهيّء للظهور لأدنى حادث، فالمدينة العصرية لم تزد الإفرنجي إلاّ تفنّنًا في آلات القتل وفصاحة في التمويه وتسمية الأشياء بغير أسمائها، وبالجملة فالذي ازددناه منه هو الرئاء لا غير.

ثمَّ إنَّ الإفرنجي الذي يزعم أنَّ الشرقي لا يخضع إلاّ للقوّة المادّية هو هو في الحقيقة العبد القن للقوّة المادّية لا يعبد غيرها ولا يطاطئ الرأس لسواها، وليس على وجه الأرض أشدّ غطرسة من الإفرنسي إذا وجد بإزائه ضعيفًا.

انهزم الفرنسيس أمام دروز حوران وفشل «غاملين» كما فشل «مشيو» من قبله، وسكتت البلغ الرسمية الإفرنسية منذ ٢٠ يومًا مع قوّتها في التموية وقلب الحقائق عن ادّعاء النصرات والمناجح في حوران، وعرف الناس في أوربة أنَّ سلاح الدروز لاعب في أدبار الفرنسيس بدون شكّ، ولكن ظهرت رجولية هذا الجيش المنهزم عن الدروز في تدمير حماه ثمَّ معرة النعمان وخان شيخون ثمَّ دمشق وقراها وقرى وادي العجم، وذلك على رؤوس الأطفال والنساء والعاجزين والذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

ولو فكّرت هذه الأمّة قليلاً لعلمت أنَّ هذا التدمير هو على رأسها... لا على رؤوس الأطفال والضعاف فقط. وإنَّ ردّ الفعل قد يكون أشدّ من الفعل!

فإنَّ الدماء التي تسيل الآن في سورية بين العرب والفرنسيس لا يغسلها غاسل أبد الدهر، وأنَّ الهوّة العميقة التي احتفرتها يد فرنسة في الديار الشامية لا يملأها مالئ سجيس الليالي. وإنَّ فرنسة تعلم أنَّ بقاء جيش جرّار في برّ الشام هو من جملة معاول الخراب العاملة في هدم مكانتها المالية. وإنَّ الدولة التي تكون ديونها بلغت أربعمائة مليار، والتي تسديد ميزانيّتها المالية عن سنة ١٩٢٦ يقتضي إيجاد ألفَين وتسعمائة مليون فرنك (نحو ١٥٠ مليون جنيه) تحيّرت الحكومة الفرنسوية في إيجادها، ليس لها أن تسرف كلّ هذا الإسراف في القتل ولا في إثارة حفائظ الشعوب... ولا في زيادة إقناع أميركا بأنَّ تساهلها معها في أمر ديونها عليها إنَّما يكون تسامحًا في دماء البشر.

إنَّ أشدّ أسباب العداوة بين العرب والترك كان شنق جمال باشا التركي نحو ٤٠ شخصًا من أعيان سورية وأدبائها، فقد قامت عليه القيامة من كلّ جانب حتّى من المحبّين الذين كانوا للترك وحتّى من الترك أنفسهم، وما زال الحقد يشتدّ والشنآن يمتدّ حتّى انفرج ما بين هاتين الأمّتين ما لا يزال عميقًا ولا نرى دليلاً على التئامه.

وإنَّ أشدّ عوامل الحركة الوطنية المصرية وسقوط "كرومر" بعد تقديس بريطانية العظمى إيّاه إنَّما كان قتل أربعة رجال في دنشواي.

وأين نحن الآن من فعل "جمال باشا" ومن فعل "كرومر"؟ فقد صار كلّ ذلك ضئيلاً جدًّا أمام ما تجرّبه فرنسة في سورية؟ لا يوجد مثيل لفظائع الفرنسيس الحاضرة في سورية الحاضرة في سورية سوى فظائعهم فيها منذ ٨٠٠ سنة عندما ذبحوا ٧٠ ألفًا في المسجد الأقصى، وذبحوا أهل طرابلس، وأحرقوا ألوف الألوف من الكتب التي جمعها بنو عمّار واستأصلوا بذباب السيف أهالي مدن عديدة تركوها خرابًا يبابًا لم تنهض حتّى اليوم وقتلوا حامية عكّا بعد أن أخذوا البلدة وكانت ثلاثة آلاف أسير فأعمالهم الآن طبعة جديدة لآثلو طباعهم إذ ذاك وبين أفعال هؤلاء الأبناء المتمدّنين... وأفعال أولئك الآباء المتوحّشين وهم ساسة.

نحن بحكم الطبيعة البشرية نبكي بدون شكّ أطفالنا وشيوخنا ونسائنا ومنازلنا وقصورنا وما نُسف من بيوتنا ويُصرَف من أموالنا ويُجحَف من غلالنا ولكنّنا نعلم أنَّ على هذا بناء استقلالنا وأنَّ فيه بداية عزائنا. وأنَّ هذا الموت هو فاتحة حياتنا [...].

شكيب أرسلان

* * *

ثورة سورية أمام جمعيّة الأمم ★

سيّدي الرئيس

لمّا كانت الثورة الدرزية أهمّ الحوادث التي وقعت منذ الاحتلال الفرنساوي في سورية قد رأيت أن أخصّص لها تقريرًا خاصًّا.

سأدرس الحوادث التي سبقت هذه الثورة درسًا دقيقًا مستندًا في ذلك إلى مصادر فرنساوية بحتة لا علاقة لها بالمقامات الشيوعية. ثمَّ إنَّ لديَّ فوق ذلك معلومات أكثر صحّة. وإنَّ لجنتكم الموقّرة لا يمكنها أن تمتنع عن استنكار الأساليب الإدارية التي استعملت في جبل الدروز، ولا يسعها أن ترى حادثًا غريبًا في قيام الدروز للدفاع عن أنفسهم بقوّة السلاح فإنَّ أعمال الكابتن «كاربييه» لم يكن من المستطاع احتمالها، حتّى ولا في بلاد الكونغو ولا في بلاد نيام نيام. ولو لم تكن هذه الأعمال مؤيّدة بشهادات من الجانبين ومعروفة لدى جميع السوريين بلا استثناء، لأمكن التردّد في التصديق بأنَّ حاكمًا يمثّل دولة متمدّنة كفرنسا يستطيع أن ينهج في بلاد الدروز مثل هذه الخطّة المنكرة.

ولقد كان في مختلف أقسام سورية حكّام من طينة الكابتن كاربييه ولكن جميع السوريين لم يكونوا هم الدروز، ولم يكن لديهم الصحراء ولا اللجاه «الملجأ الذي لا يمكن الاستيلاء عليه». فالسكّان لم يكونوا والحالة هذه ليستطيعوا أن يفعلوا شيئًا ضدّ فرنسا العسكرية ولم يكن في طاقتهم إلاّ التذمّر والعويل. أمّا الدروز وهم عنصر أبيّ شديد المراس فإنَّهم لم يستطيعوا تحمُّل الإهانات. فبعد المساعي الكثيرة التي بذلوها زرافاتٍ ووحدانا لتغيير هذا الحاكم ويئسوا من إسماع صوتهم، فضّلوا الموت على حياة صعبة كهذه. وليس للفرنساويين الذين يريدون أن يروا في الثورة الدرزية تأثير هذه الدولة أو ذلك الأمير أو تلك الجمعيّة إلاّ مراجعة ضمائرهم وتحقيق أعمال موظّفيهم، وحينئذٍ يعرفون أنَّ مثل هذا الاستبداد لا يترك مجالاً للدسائس ولا للمؤامرات.

★ تحرير الأمير شكيب أرسلان، مندوب سورية ولبنان وفلسطين في جنيف، الذي قدّمه إلى الرئيس تيودولي، رئيس لجنة الانتدابات في جمعيّة الأمم قبل كارثة دمشق. نقل عن الأصل الفرنساوي بإدارة جريدة الشورى.

وقد نشأت الحوادث عن الخطّة التي انتهجتها فرنسا، وكانت مقدّمة لهبوب العاصفة واستعار لظى الحرب.

وممّا لا ريب فيه أنَّ سلطان باشا الأطرش عربي وطني كان في أثناء الحكومة المستقلّة في دمشق من أكثر الزعماء المسلمين لقضيّة الاستقلال السوري ليست هذه المرّة الأولى التي ثار فيها أكثر الزعماء اعتدالاً وأبعدهم عن التحمّس وأقلّهم ولاءً لسلطان باشا الأطرش انضمّوا في هذه المرّة إليه بفضل الخطّة التي نهجها الكابتن "كاربييه" فإنَّ الاستبداد الذي عرفه جبل الدروز في السنتين الماضيتين أدّى إلى اتّفاق جميع رؤساء الجبل الذين عاشوا أحرارًا محترمين على الدوام، فقرّروا خوض غمار الحرب مهما كلّفهم الأمر مع علمهم بأنَّ فرنسا تستطيع أن تجرّد عليهم أعظم قوّة ممكنة.

لم يكن للدروز أن يغتبطوا لدخول الفرنساويين دمشق بعد معركة ميسلون ولكنّهم اضطرّوا إلى الإذعان اعتقادًا منهم بأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه فرنسا فطلبوا إليها الاعتراف باستقلالهم الذاتي واحترام عاداتهم وتقاليدهم. وهكذا عقد اتّفاق بين المسيو روبر دي كيه بإسم الجمهورية الفرنساوية والرئيس الديني محمود أبو فخر بإسم الدروز. على أنَّ الفرنساويين لم يلبثوا أن انتهكوا حرمة هذا الاتّفاق واختلقوا أسبابًا للنكث به.

وقد نشر المسيو "هنري دي كيرليس" في جريدة الإيكودي باري سلسلة مقالات بحث فيها في تاريخ ثورة الدروز بالدقّة التي امتازت بها اللغة الفرنساوية. قد يقال إنَّ هذا الكاتب خصم سياسي للجنرال ساراي ولكن العقل لا يسلّم بأنَّ كاتبًا فرنساويًا يكتب المقالات الافتتاحية في جريدة محافظة استعمارية كجريدة الإيكودي باري يعمد إلى تشويه الحقائق تبريرًا لسلوك الدروز ضدّ مصلحة فرنسا بغية الانتقام الشخصي من خصم سياسي له. فقد قال هذا الكاتب في مقالة افتتاحية نشرتها الجريدة المذكورة يوم ٢٩ سبتمبر سنة ٩٢٥ بعنوان "ساراي وقصاصة الورق" ما يأتي:

"ممّا يجدر الإشارة إليه معرفة أصل النزاع بين ساراي والدروز، أنَّ الدروز لم يخضعوا بالقوّة وأنَّ الجيوش الفرنساوية لم تحتلّ بلادهم عنوةً، بل إنَّ زعماءهم جاؤا إلى بيروت في أوائل عهد الاحتلال وأعلنوا انضواءهم تحت لواء الانتداب الفرنساوي بشرط أن يعترف باستقلالهم الذاتي، وقد قبل هذا الشرط بحماسة لأنَّ الفرنساويين لم يكونوا يعبأون حينئذٍ بإخضاع تلك البلاد الوعرة الموحشة التي يدافع عنها شعب حربي شجاع، بل أعربوا

عن اغتباطهم بتمكّنهم من استخدام الجبل حصنًا هائلاً على الحدود بين سورية وشرق الأردن. وفي ٤ مارس سنة ١٩٢١ وقّع المسيو روبر ده كيه، مندوب الجمهورية الفرنساوية، والرئيس الديني محمود أبو فخر بأسم المشايخ الاتّفاق المشار إليه».

ثمَّ نقل المسيو دي كبرليس حديثًا دار بين الوفد الدرزي الذي جاء يطلب تغيير الكابتن كاربييه الذي لا يطاق وبين المندوب السامي الفرنساوي فقد قال الدروز:

«تضطرّنا الأحوال الحاضرة إلى المطالبة بالحقوق التي خوّلتنا إيّاها المعاهدة» فردَّ الجنرال ساراي قائلاً: «المعاهدة؟ المعاهدة؟ لم يوقّع عليها إلاّ واحد من رؤسائكم الدينيين».

فقال المندوبون الدروز: «بالطبع، فإنَّ هذا الرئيس كان مفوضًا من الآخرين كما أنَّ المسيو دي كيه كان مفوضًا من قِبل الرؤساء الفرنساويين، ثمَّ إنَّ المندوب الفرنساوي لم يكن ليضع توقيعه في أسفل هذه الوثيقة إلاّ بعد أن تحقّق سلطة مندوبنا».

وأضاف المسوي دي كيرليس إلى ذلك فقال: لقد كانت ثقتي عظيمة بالزعيم الذي نقل إليَّ هذا الحديث، ولكنّي لم أتجاسر على نقله بالرغم من ذلك كلّه، لو لم يؤيّده الجنرال ساراي نفسه.

ثمَّ نقل كتابًا أرسله المندوب السامي إلى البعثة الفرنساوية بدمشق وذكر فيه ما قاله الدروز عن هذه المعاهدة وختمه بما يأتي:

«... وقد استنتجت ـ أي ساراي ـ من ذلك أنَّ هذه الوثيقة لا قيمة لها سوى قيمتها التاريخية، وأنهم إذا لم ينظروا إليها كوثيقة باطلة أحدثوا اضطرابًا، وعرّضوا أنفسهم لمعاملة منكرة».

أمّا نحن فنعتقد بأنَّ الجنرال ساراي ـ على الرغم من أنه كان أقلّ مقتًا من سلفيه لا سيّما بنظر المسلمين الذين يؤلّفون أكثرية سكّان البلاد ـ قد تحمّل تبعة عظيمة من الوجهتين المادّية والأدبية بإلغائه هذه المعاهدة. ولا ندري هل تلقّى بذلك تعليمات من الحكومة الفرنساوية التي كانت على الدوام معارِضة لمبدأ الاستقلال الحقيقي في سورية بأيّ وجهٍ كان أم أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه.

والذي يحملنا على الاعتقاد بأنَّ الجنرال ساراي لم يستطع أن يفعل غير ذلك هو إصراره على إبقاء كاربييه في منصبه رغم الإنذارات التي تلقّاها من موظّفيه فضلاً عن الدروز.

وفي ٢ يونيو من هذه السنة أنذر الكابتن «رينو»، نائب حاكم جبل الدروز، المندوب السامي بالخطر الذي ينشأ من إبقاء كاربييه في الجبل. وقد نشرت الإيكودي باري كتابه إلى الجنرال ساراي. ثمَّ قالت إنَّ الدروز كانوا يتذمّرون من خدعتهم بشأن الحاكم الذي وعدهم الجنرال بأن يكون واحدًا منهم [...].

* * *

أمور سورية، المعارك حول دمشق واستمرار حصارها

لا يزال قسم كبير من مسلمي العرب، من تخوّفهم من الاستيلاء الأوربي، موالين للترك إلى آخر الحرب فلم يكن السبب المزعوم ممّا يصدّق عليهم ولا كان بينهم وبين الترك تلك النفرة التي بتصوّرها بعضهم حتّى يكون حسن معاملتهم للمسيحيين لا حبًّا بإخوانهم هؤلاء، بل بغضًا بالترك أعداء الفريقين. ومن هذه التعليلات الواهية، أنَّ سبب سيادة الوئام والسلام بين الفريقين في سورية في أثناء الملحمة الكبرى، هو صرامة جمال باشا وخوف العرب المسلمين من بطشه فيما لو تعرّضوا للنصارى بسوء... وبعبارة أخرى بعض الناس فضّلوا أن تكون منّة هذا السلام للترك على أن تكون العرب. لا بل آثروا أن يعترفوا بحقن دماء المسيحيين لجمال باشا الذي يلقّبونه بـ «السفّاح» على أن يجعلوه من آثار نظافة قلوب المسلمين بحقّ إخوانهم في الجنس والوطن. وهذا في منتهى الغرابة.

وجوابه أنَّ مسلمي سورية لو أرادوا لا سمح الله بإخوانهم المسيحيين سوءًا وثاروا ثورة مشؤومة لعمل منكر كهذا، ما كان جمال باشا قادرًا أن يردعهم وكان جميع الجيش المرصد لحماية سورية ومحاربة الإنكليز والحجاز لا يكفي لمنع تلك الثورة ولو لم يكن في وجهه سوى الدروز ـ وشأوهم في القتال مشهود الآن ـ لكفى. ولست أقول إنَّ جمال أو أنور أو طلعت كان لهم أرب في استلحام المسيحيين في سورية وأنَّ مسلمي العرب هم الذين حالوا دون مقاصدهم. حاشا وكلاّ ـ لا أقول إلاّ ما أعلم، ولكن أعلم أنهم لو كانوا أرادوا ذلك لكان أكثر المسلمين والدروز مقاومين لهم فيه ولم يكن ليتبعهم لا أوباش وأوشاب فالفضل الأصلي في سيادة السلام أثناء الحرب في سورية إنّما كان لصدق نيّة المسلمين والدروز بحقّ المسيحيين ووعظ زعمائهم ومرشديهم لهم بأنَّ هذا هو الوقت الذي ينبغي فيه إظهار المودّة للمسيحيين وتجنّب كلّ شيء يؤذيهم. وقد كان الأمر كذلك. وكان المحدّث الأكبر في هذا العصر الإمام المقتدي به الشيخ بدر الدين الحسني في أيام الحرب يزور المسيحيين في دمشق عمدًا ويعظ دائمًا في الجامع الأموي منبّهًا إلى وجوب رعاية المسيحيين ومعاملتهم كحدقة العين، وقائلاً إنَّ ذلك واجب على كلّ مسلم إن كان يحبّ دينه لأنَّ

الشجرة تُعرَف من ثمرتها فكلّ مسلم أحسَنَ معاملة جاره المسيحي في الأوقات الصعبة يكون أتى ببرهان على مزيّة الإسلام وحسن تأثيره في طباع أبنائه والعكس بالعكس. وقد كنت أسمع مواعظ الشيخ بدر الدين بأذني وأسمع أنه يزور المسيحيين عمدًا مع أنه في العامّة لا يخرج من بيته. وهكذا كان دأب أكثر الزعماء والعلماء. ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكرٍ برقيّات وكتبًا تقدّمت إلى الآستانة في هذا المعنى... ولعلّها محفوظة في نظارة الحربية وغيرها. وإن كان الترك لم يأخذوا سجلاّت التلغراف معهم عند انصرافهم من سورية فتكون مقيّدة في تلك السجلاّت. هذا عدا الوعظ والتحذير اللذين كانا مستمرَّين طول الحرب واللذين يشهد بهما ألوف الأعراب... ثمَّ لتفرض أنَّ الترك وجمال باشا كانوا هم السبب في هذا السلام فيكون الترك إذًا قاموا بالواجب وحقنوا الدماء وسكنوا الدهماء، وعليه لا يبقى محل لنعتهم بـ «البرابرة» والسفّاحين والجلاّدين وما أشبه ذلك، بل يكون إلصاق هذه النعوت بهم افتراء واعتداءًا وكنودًا للفعل الجميل. فالمسئلة بين الأمرين إمّا ذا وإمّا ذا. إن كانت تلك المسالمة الأصل فيها العرب، فلماذا عزوها إلى الترك؟ وإن كان الأصل فيها الترك فلماذا جعلهم أشدّ الأمم وحشية وأكثرهم غرامًا لسفك الدماء؟

بحث المتعنّتون ـ وهم فئة قليلة والحمد لله من بين إخواننا المسيحيين ـ عن جميع الأسباب الممكن تصوّرها حتّى لا يجعلوا للمسلمين والدروز فضلاً في الصدق الذي صدقوه مع إخوانهم المسيحيين في أيام الحرب. فقال لي خوري صادفته في رومه من سنتين: لماذا يذبحونهم وقد وجدوا واسطة أقرب وأيسر وهي الأمانة بالجوع. قلت له: كلامك هذا مدفوع بكون المسلمين مات منهم بالجوع مثلما مات من المسيحيين وأنَّ تِرك شرق الأناضول وعرب الموصل مات منهم بالجوع عدد، يفوق أضعافًا مضاعفة مَن مات من مسيحيي لبنان. دروز لبنان كانوا ٦٠ ألف نسمة عند نشوب الحرب فعادوا اليوم ٤٨ ألف نسمة بسبب فَقْد مَن فُقِدَ بالجوع. فإن كان المسلمون أرادوا أمانة النصارى جوعًا أفيميتون أنفسهم جوعًا؟ الجوع كان مصيبة عامّة سببها الحرب العامّة وتماديها، فمات بها من كلّ فريق وكلّ قبيل لا سيّما سكّان الجبال القاحلة مثل لبنان. أفلا تذكر بعد هذا الألوف المؤلّفة من النصارى الذين هاجروا إلى داخل سورية من جبل لبنان وأعاشهم المسلمون في ديارهم؟

أفعلمت الآن يا حضرة الأب مقدار ما انت فيه من الوهم بقولك إنَّ المسلمين جعلوا المجاعة بدلاً عن المذبحة. أو أيقنت أنَّ الإنسان لا يذبح نفسه لأجل أن يذبح غيره؟

والخلاصة أنَّ البرهان على حسن نيّة المسلمين بحقّ المسيحيين هو المحبّة التي ظهرت لهم في أيام الحرب العامّة حينما كان الدم يتفجّر في الدنيا بأسرها. ولا نعلم لماذا يثقل على بعض الناس التنويه بهذا الأمر، والحال أنَّ المسلمين والدروز لم يمنّوا قط على النصارى بحسن سيرتهم معهم يومئذٍ. وأيّ فضل أم أيّة منّة لمَن قام بالواجب عليه، عقلاً وشرعًا وشرفًا ولولا كون بعض الناس ـ وهم فئة قليلة كما قلنا ـ حاولوا إنكاره وأنَّ بعض الأجانب جاءوا يقولون لنا إنَّهم ما جاءوا إلى الشرق إلاّ لتأمين حياة المسيحيين الذين لولاهم كان المسلمون فتكوا بهم لمّا كنّا اضطررنا للتصريح بهذه الحقيقة. فإنَّ عدم الاعتداء ليس بمنّة يمنّ الإنسان بها، والأشرار هم وحدهم الذين يمنّون على الناس بالسلامة، منهم كما جاء في الحديث الشريف. والمسلمون أشراف لا أشرار والحمد لله فليسوا ممَّن يمنّون على غيرهم بأنهم تركوهم سالمين من شرّهم. وكما أنَّ المسلم لا يجوز له أن يفتخر ويعتدّ بعدم الاعتداء على المسيحي، لا يجوز له أيضًا أن يفتخر بعدم الاعتداء على المسلم. ومَن يعتبر عدم ذبح الرجل لأخيه فعلاً جميلاً يمنّ به فقُلْ على الدنيا السلام.

إنَّما نريد أن نبرهن على كون دعوى الفرنسيس أنه لولاهم لفتك المسلمون أو الدروز بالنصارى هي غير صحيحة، بل عندنا البرهان على كون الفرنسيس هم الذين أرثوا الضغائن الدينية فيما بيننا ليحكموا ويسودوا على ظهرها، بل عندنا البرهان على كونهم أرادوا استبراء زناد الفتنة الدينية أملاً بأنَّ الجهلاء من المسلمين يفتكون بالنصارى فيكون بطش فرنسة بالمسلمين عقابًا تُعذَر هي عليه لدى أوربا وأميركا بخلاف ما هي الحال الآن.

تحقّق لدى أهل الشرق والغرب وشهد مراسل التايمس ورسلاء سائر الجرائد الأوربية وقناصل الدول في دمشق والأوربيون الذين فيها أنَّ الفرنسيس عندما أرادوا تدمير دمشق بالمدافع سحبوا عساكرهم منها إلى جبل الصالحية وتركوها بدون جند يحافظ على أرواح الخلق، ومن الجملة حارة باب توما أي محلّة النصارى. وأقرَّ الإفرنج المذكورون أنَّ حارة النصارى بقيت بدون حامٍ ولا حارس وأنه إذا كان أهلها سلموا من شرّ غوغاء المسلمين فإنَّما كان ذلك بسلاح رجالٍ من أنفس المسلمين. وقالوا إنَّه لم يقتل في حارة النصارى إلاّ اثنان من المغاربة أصابتهم قنابر طائرة.

والذي يظهر لكلّ مَن تأمّل في تعمّد الفرنسيس إخلاء حارة النصارى، في وقت تذهل فيه المرضع عن طفلها أنهم ظنّوا أنَّ الغوغاء من المسلمين، إذا أرادوا حارة النصارى خالية



من الجند دخلوها فذبحوا ونهبوا فكان تدمير الفرنسيس لدمشق جزاء وفاقًا على هذا العمل.

ولكن قيّض الله من رجال الإسلام مَن حمى حارة النصارى من كلّ اعتداء ومَن حفظ الإسلام من معرّة التلوّث بالفعل الذي كان ساراي وأعوانه قد مهّدوا طريقه... وإنّا لنحبّ أن نعرف أسماء تلك العصابة الفاضلة التي وقفت أمام أبواب حارة النصارى سدًّا في وجه كلّ طامع حتّى ننوّه بعملها لأنه في الحقيقة لها فضل عظيم على المسلمين وعلى دمشق أجمع. فاليوم عرفت أوربا أنَّ الفرنسيس دمّروا دمشق وقتلوا تحت الردم ألوفًا من الأطفال والنساء والرجال الوادعين، وأنهم فتحوا أفواه مدافعهم على البلدة بغتة بدون نذير ولا حذير وأنهم لم يكن لهم من مجبر على ذلك ولا سائق سوى ما ركب في طباعهم من الشرّ. فأحدوثة فرنسة في أوربا بعد هذا العمل قد ملأت بشاعتها كلّ نادٍ. واحتجّت بعض الدول عليها سرًّا والبعض الآخر سرًّا وجهرًا، والحال أنه لولا أنَّ المسلمين حموا بأنفسهم حارة النصارى ووقع هنالك اعتداء، لكان عذر الفرنسيس ممهّدًا بأنهم إنَّما خرّبوا حارات المسلمين ليتمكّنوا من ردعهم عن النصارى، وكانت أوربا قد قبلت هذا العذر، وكان عمل الجهلاء من المسلمين أعظم غطاء لفظاعة تدمير دمشق. لهذا قلت إنَّ تلك العصابة المسلّحة من المسلمين التي وقفت تحرس حارة النصارى لها الفضل على جميع المسلمين بأنها هي التي جعلت حقّهم ظاهرًا [...].



فرنسا تستدعي الأمير شكيب أرسلان إلى باريس لمفاوضته

جعلوا الدين مصيدة...

لسعادة أمير كتّاب العرب الأمير شكيب أرسلان

أوربة تتّهم المسلمين بالجامعة الإسلامية وتحذر وتحذّر منها، وتبني على خيالها كثيرًا من سياستها وأخذها وردّها. وفي خطبة المسيو «بانلفه» التي يبسط فيها برنامج الوزارة الجديدة إشارة إلى الجامعة الإسلامية وإلى الجامعة الشرقية في عرض الكلام عن حوادث سورية.

وإن كان بين المسلمين أثر من الجامعة الإسلامية، فليس من عجب في ذلك لسببين أحدهما أنَّ التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان، حتّى ولو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة، فكيف إذًا اتّحدوا في عقيدة واحدة؟! فلا يقاس العالم الإسلامي بأوربة في هذا الموضوع ليقول بعضهم: لم تكن جامعة أوربية على الإسلامية لتكون جامعة إسلامية على أوربة، فإنَّ هذا قياس ظاهر الفساد. وذلك أنَّ من قوى أوربة الهائلة ما يسوّغ لها الانقسام كما أنَّ من ضعف المسلمين الهائل ما يدعوهم إلى الاتّحاد. ومن الطبيعي أنَّ الضغط يجمع الأجزاء المبعثرة.

الثاني أنَّ المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ويرون فيها سعادتهم وراحة وجداناتهم، وفي القرآن الكريم «إنَّما المؤمنون إخوة» فالمسلم يجد إخاءه للمسلم فرضًا محتّمًا عليه، ومؤازرته من باب الشرع الذي مَن ترك شيئًا منه فهو آثم. ولا يؤخذ من ذلك أنَّ هذه الأخوّة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء مع غير المسلمين، كما يتوهّم بعضهم أو كما يفتري آخرون. كلا، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الإنسانية فالنبيّ (ﷺ) قال: الناس عيال الله وأحَبّ الناس إلى الله أنفعهم لعياله. ولم يقل: المسلمون عيال الله. وبعد فالحقّ في الإسلام هو فوق الجامعة الإسلامية وفوق الأخوّة بين المؤمنين وفوق كلّ الأواصر والشوابك والأرحام، وقد قال الله تعالى: «وإن حكمتم بين

الناس أن تحكموا بالعدل» ولم يقل وإن حكمتهم بين المسلمين، وأمر الإسلام ونواهيه التي في هذا الباب بحر لا ساحل له، ولسنا في صدده الآن.

وإنّما نريد أن نقول إنَّ المسلمين الذين يرون الإخاء بين المسلمين فرضًا هم ممَّن يعتقدون بالإسلام. وذلك بخلاف الدول الاستعمارية التي تريد أن تحيي الجامعة المسيحية على غير اعتقاد منها، بل مصيدة لحظوظ الدنيا ووسيلة لإنشاب البرائن في البرّ الفلاني أو البحر الفلاني...

فإنَّ هذه الدول تأتي إلى الشرق أكثر الأحايين بحجّة المحافظة على المسيحيين، والحال أنَّ الحقيقة التي يعلمها الله وملائكته والراسخون في العلم من المسيحيين أنَّ قضيّة المحافظة على دم المسيحيين هي عند الأوربيين من باب المثل العربي «يعلّمه الزرشان يؤكل وطب المشان». وأنهم قد جعلوا لحماية إخواننا مسيحيي الشرق وأوضح برهان على ذلك أنهم منذ نصف قرن يبكون [...] للأرمن تأسيس جمهورية أرمنية في أريفان وكانت في أقصى درجة الافتقار إلى المعاونة وكان الأرمن ينسلون إليها من كلّ حدب تحادثوا في دولة أوربية تأخذ على نفسها الوصاية على الأرمن وتشدّ منهم حتّى يبلغوا أشدّهم، فلم تكن دولة منهم أجمعين لترضى بهذه الوصاية بوجه من الوجوه. وعرض الأرمن أنفسهم على الأنس والجنّ فلم يقبلهم أحد. وفي آخر الأمر صاروا إلى وصاية البولشفيك قسرًا.

أمّا نحن السوريين والعراقيين مع أنَّ أكثرنا غير مستحقّ العطف كالأرمن فقد انتدبت الدول أنفسها لتعليمنا وإرشادنا وحفظ حدودنا حبًّا بنا وحنانًا علينا... ومن شدّة هذا الحبّ قد اختارت هذه الدول المملوءة إنسانية وعاطفة ركوب الصعب وتحمُّل النفقات الرجعية من أجل خاطرنا. ولا شكّ في أنَّ الحبّ يقتل! فهذه فرانسة قد خسرت في كيليكية ثلاثة مليارات و١١ ألف قتيل حبًّا بأهل كيليكية!!! وخسرت على سورية من أول الاحتلال إلى شهر يوليو من هذه السنة مليارين ونصف مليار وستّة آلاف عسكري قتلى، وهذا كلّه من أثر الغرام بأهل سورية!!! ثمَّ إنّها في حرب الدروز خسرت مبلغًا من المال لم نعلمه حتّى اليوم، وبضعة آلاف قتيل أخرى، وهذا من عشق فرنسا للدروز. وهكذا شأن الحبّ.

فعشْ خاليًا فالحبّ راحته عنًا

وأولـه سقـم وآخـره قتـل!

وأمّا دم المسيحيين فهو في الحقيقة بترول الموصل وقطن كيليكية وحرير سورية. وما أشبه ذلك. وإذا لم يكن في البلدان التي يريدون فتحها مسيحيون كشمالي أفريقية جاءوها باَسم المدنيّة والإنسانية وباَسم دم المسلمين أيضًا. فإنَّهم يكرّرون الآن في العِشى والإشراق أنهم لا يصالحون عبد الكريم خشية أنهم إذا أخلوا المغرب أنقضّ هذا "الطاغي" على القبائل الموالية لهم ففتك بها فتكًا ذريعًا... مع أنه من المحقّق أنهم إذا "ما شرّفوا" المغرب بالغيبة لم يوجد أحد متوحّشًا لهم إلاّ أفراد معدودون لا تخلو منهم أمّة ممَّن ليس لهم خلاق ولا أخلاق.

وأغرب من دعواهم حماية المسيحيين أنهم يثيرون الضغائن الدينية الكامنة قصدًا وعمدًا في البقعة الشرقية التي "يشرّفونها" بالتمدين والتنظيم وما يحلو لهم شيء مثل أن يجدوا جهلاء من المسلمين يعتدون على المسيحيين. هذه عندهم نكتة المحيا والغنيمة الكبرى لأنهم بها يستطيعون سبيلاً إلى سفك دماء المسليمن بحجّة الاقتصاص من أجل دم المسيحيين المساكين... وما يرمون إلاّ إلى توطيد قوم الاستعمار وإرهاب المسلمين أن تحدّثهم أنفسهم بالمقاومة. هذا مرادهم ومغزاهم من الأول إلى الآخر.

وإذا رأوا أنَّ جهلاء المسلمين أبطأوا في الاعتداء على المسيحيين ولم يخرج طائرهم من وكره عمدوا إلى تسليح المسيحيين وإثارة خواطرهم وقالوا لهم: قد علمنا من ثقةً أنَّ المسلمين يريدون الفتك بكم. فهذا هو سلاح تتّقون به شرّهم لأننا نحن لا نقدر أن نعبّي جيوشًا ونرسلها لحمايتكم فدافِعوا أنتم عن أنفسكم. ولمّا كان الجهل والجهلاء ويا للأسف غير منحصرين في المسلمين، كان ينخدع كثير من المسيحيين بهذه المفاسد فيثور غضبهم ولا تبطئ أن تقع الواقعة بينهم وبين محاوريهم من المسلمين. وذلك كما حصل في مرجعيون وكما حصل في عين إبل من بلاد بشارة، وفي أماكن أخرى بعد الاحتلال الإفرنسي لسورية، وقول الفرنسيس إنَّ الفتنة بين المسلم والمسيحي في الشرق غير محتاجة إلى تحريكهم حتّى تثور، وأنَّ النصارى مستضعفون في هذه البلاد فالمسلمون لا يزالون يعتدون عليهم، يكذّبه برهان واحد مهما ماحك الأوربيون ومَن لفَّ لفّهم من الشرقيين لا يقدرون على أن يكمّوا شيئًا من نوره وهو:

لمّا كانت أوربة المتمدّنة غائصة في دماء ١٢ و١٣ مليون قتيل والحرب عامّة للشرق والغرب وناشبة في سورية نفسها، عاش المسلمون والمسيحيون أربع سنوات ونصف سنة حتّى انتهت الحرب أحسن ممّا يعيش الإخوة في البيت الواحد، لا بل الإخوة في البيت الواحد

قد يتشاجرون. وأمّا المسلمون ومن إليهم من الفِرَق الإسلامية في سورية فلم يختلفوا طول مدّة الحرب في كبيرة ولا صغيرة مع المسيحيين ولا رفع مسلم يده على مسيحي. وإنّي أراهن مَن أراد المراهنة وأخاطر مَن شاء المخاطرة أيًّا كان أن يأتيني بدليل واحد يخالف ما أقول.

إنَّ بعض الناس ممَّن يكرهون اتّحاد العرب ولا يريدون أن يعترفوا للمسلمين بحسنة علّلوا روح المحبّة التي سادت أثناء الحرب في سورية بتعليلات مختلفة كلّها مباينة للواقع. فمنها أنَّ المسلمين لم يسالموا المسيحيين في أيام الحرب الكبرى إلاّ بسبب كون الترك أرهفوا الحدّ في سورية وأهانوا العرب وأنَّ جمال باشا شنق وصلب وعذّب وغرّب...إلخ. وبهذا اضطرّ المسلمون أن يحسنوا معاملة المسيحيين بما وجد بينهم من الجور التركي. وهذا القليل مدفوع بكون العرب المسلمين في أوائل الحرب، أي في أول سنة منها لم يكن وقع شيء بينهم وبين الترك، ولا كان جمال باشا شنق وصلب ولا نفى أحدًا. وكان العثمانيون وقتئذٍ عصبة واحدة وما كان ثائرًا سكن، حتّى إنَّ الحزب العرب الذي كان يناوي الترك سورية والذي كان يضمّ أشدّ الناس عداوة للترك عمد في بداية الحرب إلى السكون والمهادنة، بل أرسل إلى أعضائه الذين بمصر بأن يكفّوا عن المنازعة والمقاومة حرصًا على سلامة الدولة العثمانية وعلى الوطن الذي تقضي مصلحته بالاتّحاد إلى أن تكون وضعت الحرب أوزارها، فالقول بأنَّ محافظة المسلمين على المسيحيين مدّة الحرب لم تكن عن خلوص محبّة ولا عن صدق نيّة، بل عن أثر العداء المستحكم بين العرب والترك، هو أوهى من بيت العنكبوت لأنَّ العداء كان هجع في العام الأول من الحرب العامّة وكانت اليد واحدة، ولولا أن يكون جمال باشا هملاً بالسياسة النورانية هو الذي ثبّت تلك العداوة وأثار هذا الطائر من وكره، لبقيت البلاد واحدة إلى أن انتهت الحرب [...].



ولا تقولوا لمَن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا!

لسعادة أمير كتّاب العرب الأمير شكيب أرسلان

الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعلية الفاطمية، والشيعة الاسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعيّة القائلين بالأئمّة السبعة وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل إنَّ الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام، فالجواب، إنَّ الدروز يقولون إنَّهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السرّاء والضرّاء، ويقولون إنَّ كلّ مَن خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. ولهذا فأصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فهلاّ شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام. وفي الشرع المحمَّدي قاعدة: نحن لنا الظاهر والله يتولّى السرائر وقد قال الله تعالى: ولا تقولوا لمَن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا. وهؤلاء لا يلقون السلام فقط، بل يلقون السلام ويقولون إنَّهم مسلمون ويحفظون القرآن، ويلقن ملقنهم الميت "إذا جاءك منكر ونكير وسألاك ما دينك ومَن نبيّك وما كتابك ومَن إخوانك وما قبلتك فقل لهما الإسلام ديني ومحمَّد نبيّي والقرآن كتابي والكعبة قبلتي والمسلمون إخوتي" وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز.

فإذا قيل إنَّه مع كلّ هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنّة والجماعة ولا يتّفق معها في شيء، فالجواب قد وُجد في الإسلام أئمّة كبار يُترضّى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تُزار وتعلّق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود ممّا يطابق السنّة؟ كلا. فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمّة من الإسلام؟ كلا. أمّا تجسّد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتّهمهم بعضهم والتجسّد شيء والترائي شيء آخر. وأمّا تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم، فكم من فرقة في الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة وقد رأينا مؤخّرًا عالِمًا من علماء الإسلام يؤلّف كتابًا في الإسلام وأصول الحكم وينفرد بتأويل آيات من القرآن العظيم على حسب

مذهبه وقد طبق ذكر كتابه الشرق والغرب ومع أنَّ تأويله للآيات مخالف لتأويل الجمهور ومن أهل السنّة فلم يخرجه أحد من الإسلام، بل دافع عنه أناس كثيرون.

عندما كان الإسلام قويًا عزيزًا لا يخشى خصمًا ولا يتهيّب طارئًا ولا يُغزى في عقر داره كانت القوّة التي من شأنها الاندفاع تدفع بعض فرق لمحاربة فرق أخرى ومناضلتهم ومناقشتهم وكان هذا يكفّر هذه كما هو معلوم. كانت دولة آل عثمان السنّية لا تفتأ تقاتل دولة إيران الشيعية [...] بين الشافعية والحنفية وتقع بين الأشعرية المجسّمة أي الشافعية والحنابلة، أو المالكية والحنابلة وهلمَّ جرّا ممّا لا يحصيه تاريخ. فلمّا ضعف الإسلام وانهارت جوانبه و«مشت سكّة الأجنبي في حقله» على رأي «روبمر» انفثأت مراجل العداوات المذهبية بين دول الإسلام وطوائفه وندموا على ما أسلفوه منها، لا بل عرف بعضهم بعضًا وأخذوا يتناسون الخلافات الماضية، والدولة العثمانية أيام كانت هي الخلافة الإسلامية عرفت الدروز مسلمين ولمّا كان جماعة من مشايخ دروز حوران في الآستانة صدرت إرادة السلطان عبد الحميد، الخليفة يومئذٍ، بأن يصلّوا الجمعة وراءه في جامع «يلدز» ولهذا أنا لا أفهم ما وجه الضرورة لفتح مسئلة ديانة الدروز وإظهار ما فيها من مخالفة الإسلام في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم بإسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها، لا بل أكثر من تسعة أعشارها للمسليمن لأنَّ الدروز في سورية ١٥٠ ألف نسمة والمسلمين يزيدون على مليونين. ولا يطمع الدروز في ملك ولا إمارة ولا خلافة على سورية عامّةً، بل معلوم أنَّ الحكم إنَّما هو للأكثرية فكون الدروز يقاتلون جنبًا لجنب مع إخوانهم المسلمين، ويرفضون الصلح الذي كان عرضه عليهم الفرنسيس بأحسن الشروط، بل كونهم يحملون من كبر هذه الثورة مالاً نسبة بينه وبين عددهم إنَّما هو منهم محض مروءة وإنسانية ونزعة عربية، المقصد منها تأييد استقلال عربي أكثر مَن يستفيد منه المسلمون فالنصارى. وهذا من جملة الأدلّة على موالاتهم للمسلمين وأنهم في مصارعة المسلمين للإفرنج لا بدَّ أن يكونوا في صفوف المسلمين. وهذا شأنهم من أيام الصليبيين.

فإذا قلنا إنَّ بعض الجرائد المتفرنسة الساقطة الخائنة لأوطانها البائعة لقومها ـ ومن هذه الجرائد جريدة في حلب ـ تروي قصصًا كهذه من شأنها الشقاق وإيغار الصدور وتنفير المسلمين من الدروز والدروز من المسلمين خدمة لفرنسا وفصمًا لعروة الاتّحاد بين هاتين الفئتين اللتين تذبان عن ذمار سورية وتردان اعتداء فرنسا عليها. وإذا كانت امرأة قبيحة

فرنسوية لا يليق بالكاتب نعتها بأوصافها حاولت التشنيع على الدروز بحسب ما رأت في ذلك من مصلحة فرنسا، فلا نفهم اختيار هذه الخطّة التي تسوء المسلمين أكثر من الدروز في جرائد لا نعرفها ساقطة ولا نعرفها حاطبة في الحبال الأجنبية.

شكيب أرسلان

برلين

***

الكاتب الشافي للغليل:

كاتب الشرق الأكبر يناجي الأستاذ صيبعة

لا أحاول الآن، وصف وطنية نسيم أفندي صيبعة، ولا قوّة حجّته، ولا سداد منطقه، ولا تقريظ مقالاته، الي صارت أشهر من المعلّقات السبع. لكنّي أشكره عن نفسي، فضلاً من شكري إيّاه عن الوطن، وعن العرب. فإنّه ما ضاق صدري بفرية، تحاول السياسة الاستعمارية أن تروّجها، ولا حك في صدري موضوع تقتضي الحزّة أن يجري به القلم، وعدواء الأشغال، تحول دونه، إلاّ وجدت صيبعة قد سبق إليه، ووفّاه حقّه، وشفى منه الصدور، وأتى فيه بالبدائع، والجمل الروائع، فيسكن بعد ذلك الضمير ويطمئن الخاطر، ويزول الالتياث، ويشكر الإنسان النعمة، بوجود هذا الهمام في هذا الوطن، بهذه النفس الأبيّة، وهذه النخوة العربية، وهذه المعرفة الشاملة، وهذه المروءة الكاملة.

حقًّا إنَّ هذا النسيم، ينعش الأرواح، ويشفي غليل الملتاح والسلام.

برلين، ٢٤ دسمبر ١٩٢٥

شكيب أرسلان

***

من غرائب الغرب...

لأديب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان

وقع في يدي اتّفاقًا بدون قصد رسالة تقويم باللغة الإفرنسية مطبوعة في باريز تحت اسم "تقويم النصائح الحسنة" Almanach de bons conseils ولفظة "أمْاناك" هذه بمعنى التقويم هي بدون شكّ عربية وبعضهم يذهب إلى أنها "المناخ" بناءً على أنّ التقويم يتضمّن حوادث الجوّ والهواء. وسمعت الأستاذ الأكبر الطيّب الذكر صاحب الفضل على الشرق والشرقيين الدكتور فانديك الأميركي يقول إنّ أصلها "المنهاج" وهو كتاب في علم التقويم لأحد علماء العرب. ولا أعلم ما رأي الأستاذ أحمد زكي باشا في هذه اللفظة.

والحاصل وقع بيدي اتّفاقًا هذا التقويم. وألقى في رَوعي بدون أن أعلم السبب ـ لأني قلّما أقرأ التقاويم وما يكتب فيها جانب الجداول والحسابات من الفوائد العامّة والحِكَم المأثورة ـ أن أقرّ ما هو وارد في هذا التقويم الجديد عن سنة ١٩٢٦ من المواضيع الطريفة.

فإذا بفصل [...] فنظرت فيه فإذا به يقول بالحرف:

"يتكلّمون كثيرًا عن الخطر الإكليركي ويجوز لهم الكلام. فإنّ الكثلكة في تقدّم في قسم كبير من أرجاء الكرة حتّى في بعض البلاد البروتستنتينية وإنّ رومة تسيء بمناسبة سنتها الدورية حملة شديدة يجب أن يكون لنا من شدّتها حافز على النشاط".

"ويتكلّمون عن التهلكة الصفرا وهم غير مخطئين فلا وجد في المستقبل خطر أعظم منه وتراه يتفاقم يومًا فيومًا، فمتى حصل الصفر على المدنيّة الكافية لنجعلهم طيورًا جوارح انقضّوا على أوربة وجثموا فيها. ويومئذٍ لا يبقى لنا الحقّ في الشكوى لأنهم سيفعلون مع أوربة ما فعلت أوربة مع سائر القوّات حينما استولت على بلدانها".

"فالإسلام الذي هو أفتى من النصرانية انتشر بسرعة أكثر منها فصار له ثلاثمائة وخمسون مليونًا من التابعين. فلمّا دعا إمبراطور ألمانية في بداية الحرب الكونية صاحبه الإسلامبولي ترفع علم الخلافة الأخضر لا يقاد الثورة على فرانسة وإنكلترة كان يعلم ماذا يصنع. فلو كان أفلح سعيه، لكان العالم شهد في آسية وأفريقية أعظم مذبحة على الأوربيين

والمبشّرين بالدين المسيحي. فالخليفة لم يجرأ على تلك الضربة ونجا بذلك الحلفاء ونجت معهم النصرانية».

«فالإسلام بتعصّبه وشدّة حركاته وبعناده في بثّ دعاية لا يقف بها شيء يتغلغل في كلّ مكان لا تضع النصرانية فية أمامه سدًّا اجتماعيًّا وأدبيًّا من المدنيّة الإنجيلية. والعالم الإسلامي ممتدّ بدون فاصل من حدود اليابان إلى مراكش ومركزه في الهند أي في البلاد التي لها أعظم مستقبل بشدّة ذكاء أهلها والتي عدد سكّانها يقدّر أربعة أخماس أوربة. فهنالك صار لمحمَّد (ﷺ) إلى اليوم سبعون مليونًا من التبّع المسيح (صلوات الله عليه) سوى سبعة ملايين تابع. وهناك في مقاطعة واحدة في مدى ٨٠ سنة آمن بمحمَّد مليونان من الأهالي».

«ففي الهند نخبة رجال الإسلام يهيّئون ظفره في العالم، لمدارس الجامعة والجمعيّات الدعوية ومائتين وخمسين جريدة ومجلّة منتشرة في الدنيا بأسرها. وقد بثّوا في كلّ مكان تعليم اللغة العربية، اللغة المقدّسة، وترجموا القرآن بلغة يفهمها العوام وجعلوا في هذه السنين الأخيرة تهذيب الناشئة مستفيضًا جدًّا. ونجدهم يخرجون بحرارة متزايدة دعاة يجوبون أقطار أفريقية «يا ليت ذلك صحيح، خاصّةً ليزيدوا حمية الأمم التي دخلت في الإسلام ويعلنوا أنَّ النصرانية أعلنت: «كلام يقصدون به التحريك لا غير» وإنَّ قوّة انتشارها سقطت وأنَّ القرآن الذي جاء بعد الإنجيل «مؤيّدًا له» هو القوّة الروحية الوحيدة التي بها تتجدّد الإنسانية... فأفريقية فيها تسعة وخمسون مليون مسلم «الصحيح أنَّ أفريقية فيها من ٨٠ إلى تسعين مليون مسلم، ومنذ ثلاثين أحصى الدكتور نانسن الألماني مسلمي أفريقية ٧٣ مليونًا» حينما لا يوجد سوى مليونين وستّمائة ألف مسيحي أسوَد «الصحيح أنَّ في أفريقية من ٧ إلى ٨ ملايين من الزنوج المتنصّرين».

«فإذا كانت الكنائس المسيحية لا تفتح أعينها ولا تهب ولا توحّد مجاهيدها في إبلاغ قوّة التبشيرحدّها لا يمضي قرن أو قرنان حتّى تصير آسيا وأفريقيا في قبضة الهلال «الهلال عند الإفرنج رمز الهلال» وأوربة الصغيرة تصبح عاجزة عن حماية نفسها. ومن علم انحطاط الإسلام الأدبي «تأمّل أيّها القارئ» والاجتماعي علم أنَّ دين محمَّد (ﷺ) هو أعظم مهلكة للعالم». انتهى.

غير محتاج إلى الشرح ولا إلى التعليق.

برلين

شكيب أرسلان

فؤادٌ كليم، على فؤاد سليم

لكاتب الشرق وأديب العصر الأمير شكيب أرسلان

لا بدَّ أن تستقلّ سورية برغم بعض أعداء العرب... من أهلها. ولا بدَّ أن يخرج منها الأجنبي كما خرجت أسلافه من ثمانمائة سنة، غير مستفيد شيئًا غير الضرر والفرار والقتل والدمار وسوء الأحدوثة والعار.

وسيكون لمحرّري سورية يومئذٍ تاريخ يقترن بتاريخ نهضة الأمّة العربية وتسجّل أسماء الأبطال الذين بدمائهم اشتروا حياة العرب.

ولا بدَّ أن نحصي أسماء مَن قُتِلوا من الثوّار من أول الثورة إلى أن تنتهي وأن نطبعها وننشرها، وننشر بجانب كلّ اسم منها مكان القتل وتاريخه، ونعلّم أولادنا وأحفادنا هذه الأسماء حتّى تكون لهم قدوة كلّما أحسّ الوطن بالخطر.

ولا يوجد في هذه الأسماء اسم يستحقّ التقديم على اسم فقيدنا فقيد الثورة السورية، بل فقيد الأمّة العربية المرحوم فؤاد بك سليم آتانا الله على مصرعه صبرًا جميلاً.

لفؤاد بك سليم أعظم حجر في ركن الاستقلال السوري. وسيكون له مأتم سنوي كلّما مرّ اليوم المماثل ليوم سقوطه شهيدًا في سبيل حرّية سورية.

فؤاد بك سليم ويوسف بك العظمة هما من أبطال شهداء الوطن الذين قضوا في الدفاع عنه الواحد في ميسلون والآخر في مجدل شمس، فلا جرم أن يبكيهما السوريون طويلاً وأن يعقدوا لهما كلّ سنة مناحة، كما يعقد الشيعة المناحة على الحسن والحسين، رضي الله عنهما.

ذكرت جريدة الشورى وغيرها مواقف بطلنا فؤاد سليم في الجلاد عن حرّية سورية وعن البلاد العربية فلا حاجة إلى إعادتها ولكنّنا نقول إنّ الأقوال في مسيرة كلّ بطل تزيد على الأفعال، إلاّ أنّ أفعال فؤاد سليم تزيد على الأقوال عنه. ولي من قصيدة قديمة هذا البيت:

وفعال الضرغام أوقع في النفـ ـس من القول إنّه الضرغام

في الأمّة العربية أبطال كثيرون ولله الحمد، ولكن قلّما رأينا فيهم مَن جمع بين السيف والقلم مثل جمعه ونظّم بين البراعة والشجاعة مثل نظمه فقد كان في ساحة الجلاّد الأسد القَسْور والبطل الأتبع وفي ساحة الجدال العالم المصقع والكاتب الأبرع. ومَن من قرّاء العرب لم يعجب بمقالاته المحبرة في الشورى وكوكب الشرق والسياسة تلك المقالات الشائقة والفائقة التي تنمّ عن ذكاء خارق للعادة وحكم باهر المنطق واطّلاع واسع المدى ولغة ثقفيّة النغمة ونفس عالية ولا كالنفوس، ورأس مفعم بالإباء والعزّة بالآباء ولا كالرؤوس، فمَن قرأ كلامه ـ والكلام مرآة المرء ـ عرف قدره ولو لم يعرف وجهه.

لم أعرف فؤادًا شخصيًا وقد يعجب الناس من كوني لا أعرفه وما ثمّة بداع للعجب، في أول الحرب العامّة كان فؤاد ضابطًا صغيرًا في سنّ العشرين فلم تكن لي به معرفة وإنّما كان والده الدكتور يوسف سليم صديقًا لي وكان طبيبًا حاذقًا من خرّيجي الكلّية الأميركانية في بيروت وقضى أكثر حياته طبيبًا رسميًا لقضاء الشوف وكان مع شدّة حذقه في الطبّ ساكنًا هادئًا حسن السمت، وكان كلّ من أخيه الأكبر الدكتور أسعد سليم وأخيه الأصغر الدكتور داود سليم طبيبين حاذقين، وقد توفّوا جميعًا إلى رحمة الله فكانوا ثلاثة إخوة أطباء علماء. وكان لهم والد اسمه حسن أفندي سليم كان وجيهًا في ناحية الشوف وكان أعمامنا جعلوه ناظرًا لمدرسة عبيه الخاصّة بالدروز. وعائلة سليم من العيال المعروفة في الشوف الحيطي ومسكنهم في قرية جباع الشوف ـ وهي غير جباع الحلاوة التي أهلها شيعة ـ وأهل جباع ومن جملتهم عائلة سليم هؤلاء مشهورون بالشجاعة والحماسة حتّى بين الدرزو الذين أكثر ما توجد هذه المزة بينهم. وممّا يذكر أنّ قرية جباع هذه من أعلى قرى جبل لبنان وأبدعها مطلاً وأطيبها ماء وأصحّها هواء، ولا شكّ في أنّ لحسن المناخ وصحّة الهواء علاقة بحسن التركيب وصحّة العقل. وقد تزوّج الدكتور يوسف سليم بفتاة جركسية فولدت له أولادًا منهم فؤاد فكان نابغة في عقله وقلبه وما بلغ الخامسة والعشرين من العمر حتّى طبق اسمه برّ الشام لا سيّما في الوقائع التي جرت بين الفرنسيس والوطنيين في مدّة فيصل. فقد كان مجرّد اسمه يلقي الرعب في صفوفهم وهو الذي جلاهم عن مرجعيون وكسرهم شرّ كسرة في المرّة الماضية ثمّ عاد فكسرهم في مرجعيون وأخذ منهم قصبة الجديدة هذه المرّة أيضًا. ولندع الجرائد المتفرنسة في بيروت تثرثر ما شاءت وتهذي ما شاءت عن أسباب هزيمة الفرنسيس في الجديدة وكيف ارتدَّ الجنود السنغاليون بحشمة ووقار... والحقيقة أنَّ الدروز بطشوا بهم تحت قيادة زيد الأطرش وفؤاد سليم وهزموهم

أقبح هزيمة، لا تُغني دبّاباتهم ولا طيّاراتهم شيئًا. ولو أرادوا أن يتأثّروهم إلى النبطية لقدروا ولكنّهم لم يريدوا أن يمسّوا عواطف الشيعة بالتوغّل في أراضيهم بدون مراضيهم. على أنه إن كان تقهقر الفرنسيس جرى بانتظام ذلك اليوم فلا جرم أن تقهقر أبناء وطننا المتطوّعين اللبنانيين خَدَمة فرنسا لم يقع فيه شيء من الانتظام، بل لم تقع العين على العين حتّى ولوا الإدبار. وحسبهم شهادة فرنسا فيهم وفي شبانهم بلسان بريان في البرلمان الفرنساوي على مزاياهم العسكرية... وتنويه البلاغات الرسمية الفرنسية بشدّة عزمهم في الركض إلى الوراء يوم وقعة "الجديدة"...

لو خُيّر المرحوم فؤاد سليم في الموت ما اختار على هذه الشهامة التي تتوّجت بها أفعاله العبقرية وتركت له شأوًا في تحرير سورية. [...].

فمَن كان هذا شأوه وهو قريب العهد بالثلاثين كيف يكون شأنه لو بلغ الستّين؟

عليك سلام الله يا فؤاد! يا مفخرة من مفاخر العرب. ومثلك فليكن لأبنائهم قدوة. ويكفي بني معروف قومك بك فخارًا على كثرة أبطالهم. وأعلم أنك إن متَّ بالجسم، فأنت حيّ في القلوب. وحسب الرجل الشريف أن يعيش عيشتك ويموت ميتتك.

برلين، ١٠ يناير ١٩٢١ شكيب أرسلان

***

الأدب العربي والأدب الغربي ★

لم يعهد التاريخ دورًا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين وخلطة الغربيين بالشرقيين ونسخ كلّ فريق عن الآخر واقتباس هذا من ذاك أخذًا وردًّا أو جزرًا ومدًّا، حتّى في أعرق الأدوار في القدم وأوغل الأطوار في الظلم. وقد عمَّ هذا التحاكّ جميع أحوال الحياة وأركان العمران من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة، فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتاجر فقد تناقلوا الحِكَم والخواطر، وكما حمل بعضهم إلى بعض المهن والصناعات فقد حملوا الاختراعات والبراعات، وكما تسلّط منهم الأشجع على الأجبن والأشكّ [1] على الأعزل فقد تسلّط الألحن [2] على الألكن [3] والأعلم على الأجهل. إذًا الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولّى اليوم الأمس لم ينحصرا في الأمور المادّية والحوالات المالية والآثار اليدوية، بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية. وما ترقّت في سلّم الاجتماع أمّة في شرق ولا غرب إلاّ كان الآخر عيالاً عليها جادًّا في محاكاتها ومتحسّرًا على مناغاتها. فقد أخذت يونان عن مصر وأخذت بغداد عن يونان وأخذت أوربة عن الأندلس ثمَّ أخذ الشرق في جدته الأخيرة عن أوربة. إلاّ إنَّه لم يعرف التاريخ فيما مضى، أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية، دورًا أثّت [4] فيه العلائق بين الشرق والغرب، وارتعت به الحواجز على البعد والقرب، وتشارك الناس في تناول كلّ مادّي ومعنوي كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق ورأى الشرق أنَّ لا قِبَل له بمناهضة الغرب على وجه كافل لنجاحه إلاّ بأن يقاتله بسلاحه، فاضطرّ الشرق إذًا أن يأخذ عن الغرب طوعًا أو كرهًا ـ والضعيف

★ «ترجم أمير البيان ونابغة علماء هذا الزمان، الأمير شكيب أرسلان كتابًا جليلاً عن الإفرنسية هو «أناتول فرانس في مباذله» تأليف جان جاك بروسون، الكاتب الفرنسوي المعروف، عن حياة كاتب فرنسا الذي يلقّبه الفرنسيس بالأستاذ الأعظم وقد باشر الأستاذ الياس أفندي أنطون الياس طبع هذا الكتاب وسيظهر قريبًا، وقد سمح لنا حضرته بأن ننشر مقدّمته التي طرّزها قلم الأمير لأنها عبارة عن محاضرة في الأدب العربي والأدبي الغربي، قال الأمير، حفظه الله».

(١) أفعل تفضيل من شكّ. ورجل شاكّ السلاح، وشاكّ في السلاح أي لابس السلاح التامّ، والأعزل مَن لا سلاح معه.

(٢) الأفطن والأفصح.

(٣) الثقيل اللسان.

(٤) كَثُرت والْتفّت.

مولعٌ بتقليد القويّ ـ كل ما يتسنّى له أخذه من أسباب المدنيّة كأداة الحرب والمتاع والماعون والعلم والحكمة والقانون مجتهدًا في أكثر الأحيان أن يضمن هذه العلوم ألسنته الذليقة ويطبع بها مدنيّته العريقة ويلقي على غرابتها ديباجته الشرقية احتفاظًا بقوميّته واعتصامًا بأنانيّته، لأنّ كل أمّة نسيت أصلها ونبذت أصلها ونبذت قديمها وفرحت بجديدها وأنكرت رميمها فأحرى بها أن تكون أمّة ساقطة عن أمم، وأن تعدّ خلطًا لا تعرف من بين الأمم ثمّ لم يكن للشرق أن يحكم علوم الغرب قائدًا لدنيا اليوم، وأن ينقلها إلى لغاته ويبثّها في أكنافه ويثني عليها أعطاف ثقافته إلاّ بأن يحفظ لغات الغرب وآدابه ويجرّد لمطالعتها هممًا عالية، حتّى بحقائقها من أعين صافية، فكان من الشرقيين مَن تعلّم اللغة الفرنسية ومنهم مَن تعلّم اللغة الإنكليزية ومنهم مَن مال أخيرًا إلى الألمانية عندما عظم شأن ألمانيا في العلم والصناعة. لكن لم تزل اللغة الإفرنسية هي التي تمثّل الأدب الغربي عند الشرقيين، لكونها لسان السياسة العامّ، ولأنه إن زاحمتها سائر الألسن في التجارة والعلوم الطبيعة فلن تضارعها في الأدب وفنون الكلام.

فالأدب الفرنسوي لا يزال في الغرب والشرق على كمال رونقه مطرّزة مجالس الخافقين برقائقه مزرّرة محاضرات الطبقات العالية على بنائقه لا يكاد الرجل يعدّ أديبًا تامّ الأداة إن لم يضرب من الفرنسية بسهم ولم يحفظ من شعر راسين وكورنايل وفيكتور هوغو ولم يكن قرأ كتب فولتير وروسو وشاتوبريان ورنان ومَن في نحوهم. وحسبك شاهدًا أنّ الألمان مع ما في لغتهم من استبحار الأدب ومع أنّ مؤلّفيهم صيابة[1] من كتب ومع العداوة المشهورة التي بينهم وبين الفرنسيس والتي يزداد بها العلم عن كثب، تجدهم يستعذبون اللغة الفرنسية ويتدارسون آدابها ويحتسون شرابها وأنّ الإنكليز مع ما هم فيه من العنجهيّة[2] التي يصحّ أن تكون مثلاً، ومن التعصّب للغتهم التي لا يرضون بها بدلاً مضطرّون أن يدرسوا اللغة الفرنسية درس مَن يجعل التعبير عن أفكاره بها أكبر همّه ويحاول أن يتكلّم بها كما يتكلّم بلغة أبيه وأمّه، لا سيّما مَن رشّح نفسه لمناصب السياسة الخارجية ولمَن أراد أن يكون خرّيجًا في العلوم السياسية والأدبية. فاللسان الإفرنسي طراز المجالس المُعْلَم، ووشي المحافل المسهم، والذي من علمه تكلّم في كلّ نادٍ وتخلّص في كلّ البلاد.

(١) لباب وخيار.

(٢) الكبر والعظمة.

«وما قيل عن حكم اللغة الفرنسية في أوربة هو جارٍ في الشرق المتجدّد حذو القذّة[1] بالقذّة، لا بل مع المبالغة التي من العادة أن تكون خصلة الضعيف متى أراد أن يحذو حذو القوي. فإذا سمر الإنسان مع ناشئة مصرية أو سورية لم يسمعهم يتذاكرون معاني المتنبّي ومعالي أنفاس أبي تمّام وبلاغة الجاحظ ورشاقة بديع الزمان كما يتذاكرون الرواية الفلانية «لدوماس» أو «زولا» أو «دوده» والقصيدة الفلانية من نظم «هوغو» أو «لامارتين» أو «موسيه» ولو أنهم أقطعوا أساطين لغتهم وعرانين حضارتهم ما أقطعوه أدباء فرنسة وأعاظم رجالها من الاعتناء والاحتفال لكان ذلك منهم فضلاً وامتنانًا وعدوّه جمالاً وإحسانًا.

وليس المقصود بهذا أنَّ محاضرات العرب بالآداب الأوروبية لا تعدّ من الأدب أو أنها نقص في ناشئة العرب وأنَّ اللغة العربية ضيّقة العطن لا تطبّق علمًا حديثًا ولا أدبًا طريفًا وأنها تجد في صدرها حرجًا من كلّ دخيل، كلا فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدينة وآدابها وأمثالها وأقاصيصها من قديم الزمن من الهند وفارس ويونان والرومان فازدادت بها كمالاً وكسبت بها صقالاً وامتلأ حوض الدولة العباسية بالمعاني الجديدة والمناحي التي لم تكن معروفة عند العرب لدن كانوا منحصرين في الجزيرة، فتأثل بها العربية لغة حاضرة بادية مستوفية شروط الحضارة متمكّنة من أزمة الحكمة جامعة بين فصاحة القرائح الفطرية ودقّة المباحث العلمية واكتنزت في خزائن التأليف العربي ثروة بيانية لا نزال ننفق منها إلى يومنا هذا. وكذلك يكون من تمام محاسن اللغة أن تكون خاوية من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائل نظمهم ونثرهم ما إن لم يكفِ ذوي الإخصّاء مؤونة درس هذه الآداب في لغاتها الأصلية كان كافيًا السواد الأعظ مؤونة المشاركة بها في اللغة العربية نفسها.

والقسط كلّ القسط في هذه المسألة هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن بعدلوا بهذه الأمّ العربية البرّة أمًّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندًّا وأن يجعلوها قطب رحى المثافنة[2] ويعلموا أنها نِعم السند يوم المماتنة فلا يرتّبوا أفكارهم في لغة قبلها ولا يَضلوا في الإبانة عن ذات نفوسهم سبلها، حتّى إذا صفت لهم مشارعها، وحثّت عليهم أجارعها وصارت ملكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم، نازلة منزلة الأدمغة من رؤوسهم، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم وأن يضمّوا إلى التلاد العربي القديم طريف البضائع ويضيفوا إلى الإرث العدمليّ الكريم حديث البدائع، شروطًا

---

(١) القذّة: ريش السهم.
(٢) المثافنة: المدافَعة.

في نقلها إلى خزانة العربية، لأجل تمام المقصد واجتناب الهُجنة، أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلّها وماءها وديباجة النطق بالضادّ أرضها وسماءها، وأن تكون لغة الكتاب المُنزَل على أفصح العرب ألفها وياءها، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريعة ونكون طلبنا المزيد فوقعنا في النقصان، وأردنا الانتصار فيا قومنا والعياذ بالله بالخذلان.

إنَّ أدباء الأوربيين أنفسهم يخافون من تطرّق الفساد إلى ألسنتهم خوف الحبيبان من المنون، ويحافظون على نقاوة لغاتهم محافظة الناس على أناسي[1] العيون، وحسبك أنه لم يوجد في كتّاب أوربة كاتب أشدّ شغفًا بالمحدثات العصرية وذهابًا مع النظريّات المادّية وأقلّ اعتبارًا للعقائد الدينية من أناتول فرانس الذي كان معدودًا في آخر أمره من الاشتراكيين لا من البلاشفة الملحدين الذين نصبوا العداوة للدين وعدّوا أهله من المفسدين. ومع هذا فلمّا جاءت المسئلة إلى اللغة رأيته أعضّ الكتّاب بالنواجذ على النسق الفرنسي القديم والأسلوب التدريسي المتين، حتّى كان الأدباء لا يميّزون بين كلامه وكلام راسين الذي عاش قبله بنحو من مائتين وخمسين من السنين. وإنَّ ما قلته في الفرنسيس من جهة المحافظة على لغتهم فلك أن تقوله في الإنكليز عشّاق لغة «شكسبير» والألمان المتولّهين بحبّ «غوته»، عماد لغتهم الكبير، فلا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمّة ترضى بأن تكون آدابها فوضى لا نصاب ترجع إليه ولسانها خليطيٌّ يضمّ كلّ ما وقع عليه».

(١) أناسي: سواد العين.

مذكّرتي للمسيو «دي جوفنيل»

لأمير كتّاب العرب الأمير شكيب أرسلان

كثرت الأقاويل حول هذه المذكّرة ولحظت أنَّ أناسًا طووا منها وآخرين زادوا عليها، وأنَّ أناسًا أوّلو بعض ما فيها بما شاءت أهواؤهم وفئامًا فهموها بحسب ما طالت عقولهم. ومع كون هذه المذكّرة رأيًا من حملة الآراء ودلوًا ملقى في الدلاء، فإذا تأمّل فيها المنصف لا يجد فيها «التسهيلات» التي زعمها بعضهم، بل يجد فيها تسهيلات لحلّ المعضلة مع بقاء الأساس على متانته. وها أنذا موردٌ هذه المذكّرة بنصّها مترجمة عن الإفرنسية بالحرف وتارك الحكم فيها للقرّاء.

«نعترف بأنَّ فرنسة تقدر على تدويخنا بالقوّة لكنّنا واثقون بأنَّ شرفنا القومي يأبى إلاّ أن نرفع رؤوسنا فيما بعد عند كلّ فرصة ملائمة ولهذا نرى أنه لا يصعب لأجل مصلحة الأمّتين إيجاد شكل وئام وسلام بين فرنسة وسورية يضع حدًّا لأسباب النزاع بيننا.

إنَّ فرنسة منذ سبع سنوات قد بذلت مليارين ونصف مليار من الفرنكات في سورية وتلف نحو عشرة آلاف عسكري من جيشها (لم ندخل في هذا الإحصاء قتلى الحرب السورية إلى الساعة الحاضرة) وقد خسرت في البلاد العواطف التي كانت تعتمد عليها حتّى في الأوساط الكاثوليكية. أفلا يمكن النظر في حلّ لهذه الأزمة يغنيها عن اطّراد الخسائر المستمرّة التي هي مضطرّة إليها واسترداد العواطف التي خسرتها؟

نعم، إنَّه مع حسن النيّة ونظرة صائبة في مطالب الفريقين يمكن الوصول إلى ذلك.

فالسوريون يطلبون قبل كلّ شيء استقلالهم التامّ الناجز نظير سائر الممالك المستقلّة. ويبتغون التمتّع التامّ بسلطانهم القومي. ويريدون إذًا أن يكونوا داخلين في جمعيّة الأمم أي أنهم يريدون الاستمتاع بجميع نتائج الاستقلال من الوجهة الفعلية ومن الوجهة القانونية.

إنَّ إخواننا اللبنانيين يريدون لأنفسهم دولة مستقلّة بنفسها. فنحن نبتغي هذ الخلاصة لدولة لبنان كما لدولة سورية. إلاّ أنَّ هذه الأقضية الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون ومقاطعة طرابلس وأقضية البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا يكون لها الحقّ بإعطاء الأصوات

العمومية أن تختار أيّ القطرين تريد أن تتبع سورية أو لبنان. وأمّا بلاد العلويين فتدخل ضمن سورية.

ومن جملة نتائج الاستقلال الآتي حقّ كلّ من سورية ولبنان في التمثيل السياسي الخاصّ في البلدان الأجنبية. ثمّ إنّه لأجل الاعتراف بالضحايا التي بذلتها فرنسة في سورية ولبنان يعترف نوّاب الشعبين السوري واللبناني لفرنسة بعدد معلوم من المنافع الاقتصادية تلخّص فيما يأتي:

السوريون يتعهّدون في استثمار خيرات بلادهم الطبيعية أي أنهم إذا لم يقدروا على القيام به مستقلّين بأنفسهم لا يلجأون إلاّ إلى رأس المال الإفرنسي والصناعة الإفرنسية وأنّ جميع قروض الحكومة والبلديات لا تعقد إلاّ في فرنسة. وإنّ مدرّبي الجيش السوري يؤخذون من ضبّاط الجيش الإفرنسي. وإنّ تعليم اللغة الفرنسية يكون عامًّا إلزاميًّا. ولا يكون في مملكة سورية حامية فرنسوية لكن إذا اشتهى لبنان ذلك فإنّ سورية لا تعارض فيه. كذلك في قضيّة القاعدة البحرية التي يجوز أنّ فرنسة تطلبها. وأخيرًا لأجل توطيد العلاقات الأخوية بين الأمّتين تعقد محالفة بين فرنسة وسورية إلى ثلاثين سنة. وتضع سورية في حال الحرب تحت تصرّف فرنسة عددًا من الجند يصير الاتّفاق عليه وإنّما نزارة دخل سورية تمنعها من تجهيز هذا العدد من الجند فتترك أمر تجهيزهم وتسليحهم للدولة الفرنسوية كما أنّ هذه الدولة تأخذ على نفسها أن تخفّ لمعاونة سورية في حال الخطر.

إنّ تعيين شكل الحكومة في المستقبل يتعلّق بإدارة الشعب التي تظهر بواسطة نوّابه المنتخبين بصورة قانونية. فإذا تمّ الاتّفاق ووقّع عليه تؤلّف لجان من المتخصّصين لضع جزئيات الإدارة الجديدة.

على أنّ الاتّفاق على الخطوط العامّة لهذا القرار يجب أن يعقد مع زعماء الأحزاب الوطنية ولا يدخل في ذلك المأمورون.

وإذا كان ثمّة شكّ في قبول الشعب بهذه الاقتراحات تعيّن جمعيّة الأمم لجنة مؤلّفة من رجال من البلدان المتحايدة ويكون انتخاب هؤلاء الرجال بالوفاق من كلّ من الفريقين فتذهب هذه اللجنة إلى البلاد لتتحقّق عمّا إذا كانت هذه المطالب مطابقة لرغائب الأهلين أم لا.

فإذا وقّع على الاتفاقات أو وجدت حاجة إلى تحقيق لجنة تذهب من قِبل جمعيّة الأمم

وأكملت التحقيقات وأتت بها تعلن فرنسة الأمان العامّ حتّى يمكن الرجوع إلى الحالة المعتادة وتنصرف العساكر الفرنسوية تدريجًا وتقوم مظاهر الودّ مؤذنة بالحالة الجديدة وحينئذٍ تبدأ المحبّة الأكيدة.

وأمّا في دور الانتقال الذي يسبق استتباب الحكومة المنتظمة فيرضى نوّاب الشعب السوري بالاستعانة بآراء أخصّائيين أوربيين يؤخذون من البلاد المتحايدة ويكلّفون الموازرة على توطيد إدارة منتظمة في البلاد». انتهى.

هذا نصّ اقتراحات حرّرتها في بضع عشرة دقيقة لتكون أساسًا للمفاوضات وهي لا تقيّد أحدًا من السوريين يجد فيها شططًا كما لا يخفى

وعسى أن يفيض الله مَن يحرّر سورية من كلّ قيد، أظهرتُ الرضى به برغم أنفي تحت تضييق الحالة السياسية الحاضرة... فمَن قام بذلك التحرير التامّ نرفع له علمًا خفاقًا في الخافقين ونقبّل يديه الاثنتين ونسمّيه مؤسّس الدولتين، وما ذلك على الله بعزيز.

برلين ٢١ يناير سنة ١٩٢٥ — شكيب أرسلان

***

أصحيح انتدبتهم خمسون دولة؟

لأمير كتاب العرب الأمير شكيب أرسلان

ما زال الفرنسيس يكرّرون على الناس هذه الجملة: «كيف تريدون أن ننصرف عن سورية وقد عهدت إلينا بها خمسون دولة. أفلم تقرّر انتدابنا على سورية جمعيّة الأمم؟ أفيليق بنا أن نذهب إليها ونقول لها استرجعي انتدابك هذا فإنّنا عجزنا عن إدارة سورية؟».

وما أشبه هذ الجملة من الأقاويل التي معناها أنهم لم يأتوا إلى سورية من تلقاء أنفسهم، بل حملهم عليها الخمسون دولة التي تتألّف منها عصبة الأمم. تقول هذا جرائدهم. تصرّح به ساستهم وينطق به وزراؤهم في المجلس وأخيرًا قاله المسيو «دو جوفنيل»، مندوبهم السامي في سورية، في جوابه لبعض السوريين الذين كتبوا إليه بمطالبهم الاستقلالية.

وما رأيت غلطًا شاع وذاع وملأ الأسماع مثل هذا الغلط. ولا مررت بتمويه تلقّاه الناس بالقبول مثل هذا التمويه.

الناس يعتقدون على كلّ حال أنَّ فرنسا في سورية، لكونها تقاسمت مع إنكلترة سورية الشمالية والجنوبية سنة ١٩١٢ أي من قبل الحرب بسنتين.

الناس يعتقدون أنَّ فرنسا في سورية بناءً على معاهدة سايكس ـ بيكو التي انعقدت سنة ١٩١٦ وفصّلت ما أحلّ سنة ١٩١٢ في الناس.

الناس يرون استيلاء فرنسا على سورية نتيجة اتّفاق مؤتمر سان ريمو بين فرنسا وإنكلترة سنة ١٩١٩ وهو الاتّفاق الذي أطلق يدًا، الأولى في دمشق والثانية في الموصل.

الناس يعلمون إنَّ هذا التقسيم مقرّر بين الدولتين الحليفتين في الحرب العامّة ـ بل من قبل الحرب العامّة ـ وإنّه إرضاء للمستر «ويلسون» الذي كان في مؤتمر الصلح في باريز وأبدى وإعاد في قضيّة حقّ الأمم المنفصلة عن السلطنة العثمانية في تقرير مصيرها تلكيلا يفتضح الخلاف بين فرنسا وإنكلترة وبين أميركا وأعطى شياطين الأنس هذا التقسيم المقرّر من قبل، اسم «انتداب» جعلوه أنه سيقع من جمعيّة الأمم التي لم تكن خُلقت بعد. أي

وجدوا التقسيم قبل وجود المقسّم، والانتداب عندما لم يكن المنتدب. وهذا من أعظم مهازل هذا العصر التي جعلت مقام هذه الدول الأصيل ساقطًا في نظر كلّ ذي وجدان قديم، وسلبت منها كلّ ثقة.

هذه هي عقيدة الناس في قصّة هذا الانتداب وما تزيد على كون عصبة الأمم ألعوبة في يدَي إنكلترة وفرنسا وأنه على فرض إعطاء هذه العصبة هذا الانتداب إلى تينك الدولتين فلا يخرج من كونه انتدابًا مموّهًا بطلاء عهدة دولية.

ولكن الناس يخطئون في هذه العقيدة لا من جهة الألاعيب التي لعبتها الدولتان لنسبة هذا الاستعمار العصابة، بل من جهة عصبة الأمم [...].

إنَّ الخمسين دولة التي ذكر المسيو بريان والمسيو جوفنيل بأنهنَّ عهدن إلى فرنسا بالوصاية على سورية لا يد لهنَّ في هذه العهدة.

إنَّ هذا القرار بهذه الوصاية صدر من مجلس عصبة الأمم لا من عصبة الأمم. وإنَّ المجلس غير العصبة كما لا يخفى.

إنَّ نظام جمعيّة الأمم الذي كانت اليد الطولى لفرنسا وإنكلترة في تنظيمه وتحريفه من الموضع الذي عيّنه له ويلسون قد جعل الانتدابات من جملة المسائل التي يحقّ فيها الفصل لمجلس عصبة الأمم دون العصبة.

وهذا من بعض أساليبهم الشيطانية لأنَّ العصبة ستتألّف من ٥٠ إلى ٦٠ دولة يتعذّر على إنكلترة اللعب بهنَّ بالأكرة مهما بلغ من نفوذ كلمتها.

حال كون المجلس العصُبي (بضمّ الصاد) مؤلّفًا من عدّة أعضاء كانوا في البداية سبعة وصاروا اليوم تسعة فلا يتعذّر على بريطانية العظمى وفرنسا أخذ أصواتهم الأصوات الدائمة وانظر كيف جعلوا تأليف هذا المجلس.

صوت لإنكلترة ذات المنفعة من قانون الانتداب.

صوت لفرنسة ذات المنفعة منه أيضًا.

صوت لإيطالية التي هي دولة استعمارية ومؤمّلة الحصول على انتداب.

صوت لليابان وهي منتدبة أيضًا على بعض البلاد.

صوت لبلجيكا وهي منتدبة أيضًا.

صوتان باقيان تحت الانتخاب لو أرادا معاكسة الأصوات الخمسة الأولى ما كان ذلك ممكنًا أو لم يكن مفيدًا.

فبعد أنَّ أمن الإنكليز والفرنسيس جانب انقياد المجلس العُصْبي لمآربهم قرّروا أنَّ الانتداب وقضاياه كلّها من صلاحيّة هذا المجلس.

ففي سنة ١٩٢٢ اَلتَأَمْ هذا المجلس في لندن وكان من نتائج لأمه - أو بالأحرى لؤمه - قرار انتداب فرنسا على سورية وإنكلترة على فلسطين والعراق.

وذهبنا يومئذٍ إلى لندن واحتججنا على المجلس المذكور احتجاجًا رنَّ صداه في الخافقين وأعلنّاه أنَّ قراره هذا نعدّه في حكم كأنْ لم يكن، وإنَّنا نعرف أنفسنا مستقلّين برغم قراره ونشرت الجرائد الإنكليزية قرارنا هذا.

وعدنا بعد ذلك إلى جنيف فعقد اجتماع العصبة نفسها أي مجلس الخمسين دولة اللائي ادّعى الفرنسيس أنهنَّ قد استوصين فرنسا بسورية. راجعنا أنا وزملائي ممثّلي هاتيك الدول وقلنا لهم كونوا أبرياء من دمنا. فقالوا لنا: نحن أبرياء من دمكم. وبعضهم قالوا لنا: لو جاء قرار المجلس إلى الجمعيّة العمومية لرفضناه وآخرون قالوا لنا: هذا قرار ليس من خصائص الجمعيّة، بل من خصائص المجلس [...]، فقلت له: نحن لم نأتِ إليك لنكسر قرارًا صدر في لندن وانتهى أمره فإنَّك لا تفعل ذلك ولا تقدر عليه ولكنّا جئنا إليك لنرجو منك أمرًا قال ما هو: قلت: أنْ لا تعمل لنا "خازوقًا" ثانيًا فإنَّه يكفي قرار المجلس فلا تطلب تعزيزه بقرار من الجمعيّة العمومية ترانا نحن غير مشطين في الطلب فقصارى ما نطلب عدم مضاعفة الضرر، فضحك "هيمانس" حتّى استلقى وكان معي رفيقاي إحسان بك الجابري وسليمان بك كنعان، فقال لنا: ثقوا أني لا أطلب تصديق هذا القرار من الجمعيّة. ولا يزال المسيو "هيمانس" إلى اليوم كلّما رآني في جنيف تخطر بباله تلك النكتة فيُقبل عليَّ ويبتسم!

فالخمسون دولة إذًا بريئة من دمائنا لا مدخل لها في الانتداب ولا يقدر المجلس أن يعزو شيئًا منه إلى إرادتها وقول رجال فرنسة إنَّهم لا يقدرون على ردّ انتداب عهدت به إليهم خمسون دولة مخالف للواقع.

إنَّ قولهم هذا مردود من جهة مخالفته للواقع وكون القرار قرار سبعة أعضاء يمثّلون سبع دول منهنَّ خمس منتدبات. وإنَّ ٤٩ دولة باقية بدون تصديق هذا القرار ومردود من

جهة أنَّ فرنسة زعمت أنها منتدبة على ولاية كيليكية فلمّا لفحها حرّ كفاح الأتراك أخلتها ولم تبالِ بالانتداب.

ومردود من جهة ما كنّا ذكرناه في استدعائنا لجمعيّة الأمم من أنَّ بريطانيا العظمى طلبت من المجلس إلغاء انتداب العراق وقبول العراق في جمعيّة الأمم عضوًا وأنَّ المجلس العصبي قرّر ذلك سنة ١٩٢٤ الماضية فدعوى فرنسة هذه إذًا ساقطة والأَوْلى برجال فرنسة أن يترفّعوا عن هذه الأعاليل.

برلين

شكيب أرسلان

* * *

سرقة لا تُغتفر
ذهاب أثر عربي نفيس من بغداد

أرسل أحد المستشرقين الألمان إلى سعادة الأمير شكيب أرسلان بالمكتوب الآتية ترجمته:

عزيزي الأمير شكيب

"تلقّيت من صديقي الأستاذ "هرزفلد" خبرًا يهمّك بلا جدال. فقد كتب إليه من بغداد ما يأتي:

"سُرِق المحراب الشهير الذي يرجع عهده إلى تاريخ تأسيس بغداد والذي كان في جامع "الخزقي" في شارع باب القرابا. وهو عبارة عن قطعة كبيرة واحدة من الرخام أُدخلَت في جدار الجامع".

"وقد كان هذا المحراب آية من آيات الفنّ في بغداد وشعارًا تاريخيًّا للمدنيّة في عهد العباسيين. ويغلب الظنّ أنه كان محراب الجامع الكبير الذي بناه الخليفة المنصور، مؤسّس بغداد في أثناء خلافته حوالي سنة ٧٦٦ م.".

"وجاء وصف هذا المحراب في مؤلّفات علمية عديدة منها المذكّرة التي قدّمها الكثيرون من العلماء إلى أكاديمية الفنون دوّنها الأستاذ "فيوله" في الباب الحادي عشر من كتابه المطبوع في مارس سنة ١٩٠٩ ومنها ما كتبه الأستاذ هرزفلد في جريدة "در إسلام" في سنة ١٩١٠ وما ذكره في مؤلّفه من "آثار الفرات".

والمحراب قطعة عظيمة من الرخام يبلغ طولها مترًا وستّين سنتيمترًا وعرضها أكثر من متر. وهو أثر من أبدع آثار الفنّ الإسلامي وأقدمها وأعظمها قيمة.

وممّا يؤسَف له أن يُسرَق هذا الأثر العربي النفيس وأن يُنقَل إلى خارج العراق مع أنَّ الحكومة البريطانية هي التي تقع عليها التبعة في عدم منع هذه السرقات وأمثالها.

وقد أسف القوم في بغداد لتدمير الباب الشمالي المعروف بآسم "باب المؤذّن" الذي هو على الغالب القبّة الباقية من استحكامات بغداد في عهد العباسيين" اهـ.

فأرسل إلينا حضرة الأثير بهذا المكتوب وعلّق عليه بقوله:

نسأل الحكومة العراقية عن كيفيّة ذهاب هذا الأثر النفيس إن كان صحيحًا وعمّا صنعت الحكومة بهذه المسألة التي إن كانت لم تدر بها مع وصول الأستاذ هرزفلد في ألمانيا فهي مصيبة وإن كانت درَت بها ولم تفعل شيئًا [..].

نحن نرجو الزيادة في الآثار العربية تحت ظلال الحكومات العربية الجديدة فإذا بنا وقعنا في النقصان!

مَن اختلس هذا المحراب؟ وإلى أين ذهب به؟ إلى لندرة؟ أم إلى أين؟ فإن كان إلى لندرة فإنّنا نسأل الحكومة البريطانية عن خطب هذا المحراب التاريخي الجليل ولا نزال في أثر هذا الأثر حتّى نقف على محلّ تغريبه.

إنّ الحكومة افرنسية اختلست من سورية آثارًا عظيمة القيمة ولكنّنا احتججنا عليها لدى جمعيّة الأمم، وقد احتجّ السوريون حتّى الراضون بالانتداب على هذه الاختلاسات. وفي العام الماضي أبدت لجنة الانتدابات هذه الملاحظة للمسيو "روبرت دوكاي"، معتمد فرانسة لدى هذه اللجنة، وأجاب بأنّ أخذ الآثار من سورية إلى باريس إنّما كان بصورة مؤقّتة لأجل مجرّد الدرس، وأنها ستُعاد إلى متاحف سورية وأنّ قسمًا منها أعيد إليها.

فلا نعلم هل محراب جامع الخزفي أُرسِل إلى لندرة بصورة مؤقّتة أيضًا للدرس أم هي غيبة بدون رجعة؟

نسأل الماجور "كولا" مستشار الأوقاف بغداد ماذا يعلم من نبأ هذا المحراب فقد سرَت بحديثه رُكبان!

وإنّنا لا نظنّ أنّ الإنكليز يصنعون ما صنعه الفرنسيس غير أنّ الفرنسيس أنفسهم عرفوا أنهم غير قادرين أن يلغوا هذه الآثار... فإذا كانت معدة غيرهم أشدّ هضمًا فهل تهضم المحاريب وهي من أصلب الحجارة؟ كلا، لا يجوز ترك هذه القضيّة وأنّ لصوص الفنّ كسائر اللصوص. وقطّاع الطرق وشرف المسروق لا يسوّغ السرقة. ما بالك لو سرق إنسان درّة ثمينة أفلا يُقبَض عليه ويعاقَب؟ وإنّ هذا المحراب هو من الآثار العربية النادرة التاريخية للدرر النفائس قد يوجد مثلها ولا يخلو مكان منها، ولكن التاريخ يكون مرّة واحدة، ولهذا فالأثر المسروق أغلى وأنفس. وإنّنا في انتظار جواب الحكومة العراقية على سؤالنا هذا.

برلين، ٢٥ يناير ١٩٢٦

شكيب أرسلان

لا يضرّ الشمس إطباق الطّفَل؛ ★

سورية في لجنة الانتدابات

لسعادة أمير الكتّاب العرب الأمير شكيب أرسلان

قرأت في أحد أعداد المقطّم برقيّة لمراسل «التيمس» يزعم فيها هذا أنَّ جمعيّة الأمم ارتابت في صحّة تمثيلي للشعب السوري وهو زعمٌ باطل لم أعلم من أين أتى به مراسل «التيمس» إلاّ إذا كان قد أراد التبصبص للفرنسيس على عادة «التيمس» ومراسليه في كثير من الأحيان. فإنَّ لجنة الانتدابات لم تظهر أقلّ ارتياب في صحّة تمثيلنا للشعب السوري المُطالب باستقلاله وغاية ما هناك أنَّ المركيز «تيودولي»، رئيس اللجنة، كان في شهر أكتوبر من السنة الماضية قال لي إذ نحن في جنيف: «إنَّ الفرنسيس لا يزالون يعترضون على صحّة وكالتك فلأجل قطع حجّتهم اجتهد في تصديق سندات الوكالات التي بيدك من مواقع رسمية» ففي هذه المرّة أثبتُّ لهم بنحو عشرين وكالة مصدّقة أمام كتّاب العدل من نحو عشرين جمعيّة سورية استقلالية وسلّمتها إلى المركيز المشار إليه في القاعة التي تجتمع فيها لجنة الانتدابات أمام أكثر أعضاء اللجنة ومعها جدول أسماء الجمعيّات المذكورة ومكان التصديق فاكتفى المركيز بأخذ المذكور الذي عليه إمضائي وأظهر عدم احتياجه لأخذ السندات نفسها ثقة بكلامي وإمضائي، ثمَّ شرح القضيّة للأعضاء الذين كانوا حاضرين وأردف ذلك بقوله عنّي: وكذلك معه تفويض من سلطان باشا الأطرش.

هذا ما كان من جهة مراسل «التيمس». أمّا مراسلو «الطان» و«الدبا» و«الماتن» وسائر الصحف الفرنسوية وشركة هافاس فإنّنا نعترف بالعجز التامّ عن مناقشتهم لأنه:

مَن كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليلة

قابلنا في قاعة لجنة الانتدابات وفي قاعات أخرى غيرها من نظارة الخارجية في رومة وفي أوتل «كويرنال» جميع أعضاء هذه اللجنة بدون استثناء ما عدا العضو الفرنسي وكنّا نجلس الساعة والساعتين وبعضهم قابلناه أكثر من مرّة وكثير من اجتماعاتنا هذه كان بمرأى ومسمع من العضو الفرنسي ومن «روبرت دوكاي»، ممثّل فرنسة نفسه.

★ الطَّفَل: الظلمة الخفيفة.

وجرائدهم هذه ـ حاشا جريدة الأومانيتة ـ لا تخجل أن تقول إنّنا لم نتمكّن من مقابلة أعضاء لجنة الانتدابات. ومراسل الطان المسمّى "بولين" الذي يعلم كلّ هذا والذي جاء من نفسه وزارنا في أوتل سافواي وأبدى وأعاد معنا في شروط الصلح لا يستحي أن يدّعي أنَّ بعضًا من أعضاء اللجنة قابلونا بين مصراعَي الباب. إقرأ الطان هذه اليوم.

وهذا المراسل نفسه يزعم أنه في المناقشة التي جرت بيننا وبين الصحفيين الفرنسيس [...] من يونان وبولونيين وألمان وروس وسويسريين وغيرهم لو سئلوا عمّا وقع لمّا تأخّروا أن يرووا ما حصل أمامهم ولاعترفوا بجلاء بياننا وظهور حججنا وإبلاس الخصوم ولياذهم بالثرثرة الفارغة في ذلك المجلس الحافل الذي كان له دويّ عظيم في إيطالية. ولقد أبرق مراسل "الأومانتيه" إلى باريز بما وقع كما وقع.

ويقول الفرنسيس إنَّ لجنة الانتدابات أعادت إلينا نحن الوفد السوري هنا المؤلَّف من إحسان بك الجابري ونجيب أفندي الأرمنازي وهذا العاجز العرائضَ والتقارير التي قدّمناها لها وأوحت علينا أن نقدّمها بواسطة الدولة "المنتدبة" وليس لذلك الهراء الإفرنسي أثر من الصحّة، بل تلقّت جميع تقاريرنا رأسًا وأرسلت إلينا بعلم وصولها. وقد أبرقنا إلى اللجنة التنفيذية بمصر عن ذلك تكذيبًا لصحف فرنسة وتلغرافات "هافاس" وأمّا تبجُّح الجرائد الفرنسوية بكون اللجنة لا تقدر أن تعمل شيئًا وليس لها أن ترسل لجنة فاحصة إلى سورية وإنَّ هذا الأمر إذا أقدمت عليه اللجنة وجدت أمامها مقاومة من فرنسة وأنَّ اللجنة طورًا تقدر أن تتعدّاه. فكلّ عاقل يقرأ هذه الجمل التي تكرّرها صحف فرنسة على إيقاع واحد صباح مساء يحكم بفقد هؤلاء الصحفيين كلّ إحساس عدل، بل كلّ مسكة عقل، إذ لو تأملوا قليلاً لعلموا أنه كان الأَوْلى بهم والألبق في مقام كهذا أن يتبجّحوا بحبّ العدل الإذعان للحقّ وطلب التحقيق بكل الوسائل إن كانوا كما يزعمون أنهم غير مذنبين، فإنَّ البريء لا يفرّ من الحقيقة وإنَّ الأمير لا يكرثه أن يطلع النهار، وكان الأجدى بهم لو كانوا يخجلون أن يعلنوا أنهم وإن كانوا يعلمون أنَّ لجنة الانتدابات لا تملك عمل التحقيق مباشرة في سورية بدون قرار من مجلس عصبة الأمم، فإنَّهم يتمنّون لو قامت اللجنة بهذا الفحص حتّى تنتفي هذه الشبهة التي لم يزل أعداء فرنسة يلقونها بحقّ فرنسة ويعلم القاصي والداني أنَّ فرنسة لم تأتِ أعمالاً بربرية في سورية.

وما مَثلهم في هذه الأقوال التي يقولونها إلاّ مَثل اللصّ الذي يسرق أو يقطع الطريق

فإذا قيل له: ألا إنَّ الشرطة قد تقبض عليك أو المحكمة ستحاكمك وتحكم. أجاب لا الشرطة يجسرون أن يمسّوني ولا المحكمة تجرأ أن تحاكمني لأنها تعلم ماذا ينالها منّي حينئذٍ. فأنا حرّ في لصوصيّتي أعمل ما أشاء ولا أخشى تبعة.

وماذا يقول الإنسان في قوم أتوا من الفظائع في سورية ما تخجل من إتيانه أكَلَة لحوم البشر في غابات أواسط أفريقية وتركوا نصف ديار الشام بلاقع وهم يردّدون أبدًا: إنَّ فرنسة إنَّما أرادت إكمال عملها المدني في سورية.

وإنَّ روبرت دوكاي في أجوبته على أسئلة لجنة الانتدابات [...] قد صرّح بأنَّ أعمال "كربيليه" في جبل الدروز تستحقّ الإجلال الكبير... فماذا تبلغ القحّة بعد هذا؟

إنَّ هذا العاجز عاجز في كلّ شيء وإنَّما هو أعجز ما يكون بإزاء هؤلاء القوم الذين خرّبوا سورية وهم يزعمون أنهم يعمّرونها والذين يدّعون أنهم فلجوا الخصم وأدحضوا حجّته في مجلس كان فيه ٤٠ شاهدًا يكذّبونهم. وقد نشرت أمّهات جرائد إيطالية كلّ ما دار فيه ممّا لا ينطبق في شيء على ما جاء في الجرائد الإفرنسية.

رومة، ٢٦ فبراير ١٩٢٦

شكيب أرسلان

***

زعامة جزيرة العرب

نغمة مضرّة

لكاتب الشرق وأمير العصر الأمير شكيب أرسلان

قرأت في الشورى أسطرًا واردة في كتاب خاصّ من أحد الفضلاء يقول فيها: "إنَّ جزيرة العرب أثبتت أنها لا تستحقّ الزعامة وأنه يجب فيما بعد أن يكون أهل المدن هم القائدون للبادية وأنه لا يجوز أن نعتمد إلاّ على أنفسنا".

فأمّا أنه لا يجوز ان نعتمد إلاّ على أنفسنا فهذا لا نزاع فيه. وإن لم نبدأ نحن بالبناء فمن العبث أن ننتظر أحدًا يبني لنا. وإن لم يجدنا غيرنا رجالاً لم تحدّثهم أنفسهم أن يضعوا أكتافهم بجانب أكتافنا تحت الحملة ولو كان غيرنا هؤلاء من أبناء جلدتنا. فالأصل أن ننهض نحن فإذا وجد إخواننا أننا ناهضون نهضوا معنا ورأوا أنَّ التعب والفداء في سبيلنا غير ذاهبَين سدًى. فالشجاع محبّب حتّى إلى عدوّه والجبان مبغض حتّى إلى أمّه.

وأمّا المضرّ من هذا الكلام فهو أن نزدري بأبناء جلدتنا ومصرخنا الوحيد العرب الذين في الجزيرة.

نقول إنَّهم ليسوا أهلاً للزعامة. أفترانا نحن أهلاً لها؟

أفليست الحرّية أول شروط الزعامة؟ أفليس الاستقلال هو الركن الوحيد الذي يقام عليه بناء الدول؟

فجزيرة العرب هي حرّة بالمعنى التامّ ومستقلّة عن كلّ سلطة أجنبية. ونحن لا أحرار ولا مستقلّون وأزمة بلداننا بأيدي الأجانب، لا بل بأيدي الأجانب الأعداء الذين لا يألوننا خبالاً[1].

أفيكون الفاقد لحرّيته الذي لا يملك لنفسه قبضًا ولا بسطًا زعيمًا على مَن يملك حرّيته ويتصرّف بمطلق اختياره؟

---

(١) خبالاً: فتنةً ومفسدةً.

لا ينفعنا أن نقول: إنَّ ابن سعود هو في قبضة الإنكليز وأنه لا يعمل بغير إشارتهم أو مشورتهم وأنَّ استقلاله غير حقيقي. وإن قلنا ذلك نكون كمَن يغالط نفسه ويكاذب حسّه فإن كان يتسلّى بمغالطة نفسه ولو بخلاف الواقع فليفعل. فابن سعود مستقلّ في نجد والحجاز وقسم من عسير وأطراف الشام والبلقاء إلى أطراف العراق إلى أحقاف اليمامة استقلالاً حقيقيًّا لا شائبة فيه ولا تعلو فوق يده يد إلاّ يد الله. ولا تجد لأجنبي سلطة في جميع هذه الأقطار وإن كانت انعقدت بينه وبين الإنكليز معاهدة فيما مضى أو اتّفاق خاصّ ببعض مسائل فيما حضر، فلم يكن ذلك ليمسّ شيئًا من جانب استقلاله أو استقلال بلاده. وإنكلترة تداريه أكثر ممّا يداريها لأنها تعلم أنه عند الحاجة يقدر على حشد مائة ألف إلى مائتَي ألف مقاتل من أشجع مقاتلة الأرض ومن أشدّهم حماسة وتمسّكًا بفضائل الشرع.

والإمام يحيى يملك قطرًا يأهله ستّة ملايين من العرب لديهم الذكاء والشجاعة والبسالة التي [...] [أرض] فيها الجبال... والأقاليم التي ينقطع نظيرها في الجمال وجودة الهواء وهو هناك الإمام الحاكم الذي لا يعلو على يده يد والذي تخطب الدول الأجنبية ولاءه منذ انتهت الحرب العامّة ولا تحصل عليه وعنده جيش منظّم مجهّز بالسلاح الحديث على رأسه ضابط من أركان الحرب يبلغ عدد هذا الجيش ٣٠ ألف مقاتل فإن أردت أن تحسب مَن ينفر في اليمين إلى القتال لدى الحاجة كان جيشًا عرمرمًا لا يأخذه الإحصاء.

هذان الزعيمان الكبيران هما مستقلاّن في جزيرة العرب استقلالاً تامًّا لا يقلّ عن استقلال فارس ولا أفغانستان، بل لا يقلّ عن استقلال تركيا نفسها. وجزيرة العرب بموقعها الجغرافي آمن مستقبلاً من غيرها ونحن في سورية وفلسطين والعراق وغيرها بتصرّف بزمام بلداننا المفوّض السامي والمفوّض الواطي... والمسيو والمستر... والجنرال والكولونل... والماجور والكابتين. وبعد هذا نزدري بجزيرة العرب التي تخطب دول كثيرة مودّة زعمائها ولو قدرت على فتحها ما تأخّرت عنه طرفة عين.

ثمَّ لا يكفي أن يقول إنَّهم ليسوا بأهل للزعامة حتّى نردف ذلك بقولنا: يجب أن يكون الحكم للحاضرة على البادية. يحيث يتوهّم سكّان الجزيرة أنهم هم المقصودون بالبادية. والحال أنَّ في الحجاز ونجد واليمن حواضر وأمصار لا تقلّ عن حواضر الشام والعراق وأمصارهما وتزيد على حواضرنا بمزيّة الاستقلال وحسبك بها مزيّة.

وهل بكلام كهذا نستجلب إلى ناحيتنا قلوب إخواننا أهل الجزيرة الذين أنبأناهم برأينا

فيهم من هذه الحزّة وأشعرناهم أننا لا نقيم لهم وزنًا كبيرًا حال كوننا في أشدّ الاحتياج إلى معونتهم؟

فإن لم تأتنا النجدة من جزيرة العرب وممَّن في عروقهم الدم الذي يجري في عروقنا وعلى ألسنتهم تجري الألفاظ التي تجري على ألسنتنا فمن أين نطمع في المعاضدة؟ نحن هذه الأمّة الغريبة التي ابتلاها خوف الأمم من وفرة عددها وأهمّية مواقعها وفرط نجابتها بعداوة أمم عظيمة لا تتحمّل أن تقوم للعرب قائمة أننتظر المعونة من الإنكليز أم من الفرنسيس أم من الترك؟

كلا، لا يحنّ على العرب غير العرب.

وإن كان في الجزيرة اختلافات فلينبئنا إخواننا أين القطر العربي الممدن الذي ليست فيه الاختلافات؟ أسورية خالية من الاختلافات؟ أفلسطين هي المتّحدة وقد أدّى اختلافها وتنافسها على عضويات المجلس الإسلامي الأعلى إن مكّنت للأجانب المحتلّين من إلغاء الانتخاب وحرمان فلسطين من الاستقلال الوحيد الضئيل الذي كانت تتسلّى به؟ وأغرب من هذا أنَّ أهالي جزيرة العرب إذا تنازعوا فعندهم بعض العذر بأنهم لما يذوقوا كاوي الاحتلال الأجنبي. أمّا نحن فمختلفون من بعد ما ذُقناه فذنبنا أشدّ وجزاؤنا أفضع.

ثمّة نغمة أخرى أضرّ من الأولى. وهي ما لا نزال نقرأه من وقت إلى آخر عن اختلاف ابن سعود مع الإمام يحيى. وإنّك لتجد من هنا رسالة طافحة بالطعن في الوهّابيين والنهي من أجل دخولهم إلى الحجاز واستعداء أهل اليمن عليهم. ومن هناك كتابة يحسن فيها صاحبها استيلاء ابن سعود على اليمن بحجّة توحيد كلمة العرب. وهذا يطعن في الزيديين كما ذاك يطعن في الوهّابيين. وبالاختصار لو لم يكن بين هذين الملكين أدنى خلاف لكانت هذه الكتابات التاعسة سببًا للخلاف، بل سببًا لسيل دماء العرب أنهارًا.

وإنَّ الحرب أولها الكلام.

بقيت للعرب هذه الجزيرة لم يتسلّط عليها الأجانب وأصبحت الموئل الوحيد لنا والمبعث الوحيد لآمالنا في تحطيم القيود التي نرسف بها اليوم. فحارت حيرتنا بجهلنا وطيشنا واستيلاء العصبيّات علينا، كيف نصنع لنخلق حربًا بين الزعيمين اللذين هما أكبر زعمائنا في الوقت الحاضر ونمهّد فيها السبيل لدخول الأجانب إلى حيث لم يزالوا يرودون

ويعودون خائبين. كأنَّ الذي مرَّ بنا من عِبَر الخِلاف وأماثيل الفرقة والفتنة التي أسقطت ٩٠ في المائة من العالم الإسلامي تحت سلطة الأجانب لم تكف لتجنّب الوقوع في البلاء نفسه، بل قام كلّ منّا من جهة يؤرث النار ويدعو إلى الشجار، إنَّها لا تعمى الأبصار.

مع أنَّ الأَوْلى أنه لو كان لهذا الخلاف أثر من الصحّة نقوم جميعًا، مفكّري العرب، ونسعى في تأليف ذات بينهما ونقول لكلّ منهما: أعطيت ملكًا طويلاً عريضًا فحسبك أن تنظّمه وتصلحه. وكيفما كان الأمر فبدلاً من أن يقع بأسنا بيننا وتسيل دماؤنا بأيدينا ويشمت بنا الأعداء، ليقع بأسنا بالأجانب الذين انتقصوا أطراف الجزيرة ووضعوا أيديهم على ممالك عربية واسعة شاسعة هي مهاد الحضارة وغُرَرُ أقاليم هذه السيارة فلتكن هذه الشدّة على الأجانب لا على الأقارب ولتبرز هذه الجلادة في غير أبناء الجلدة... فإنّنا كيفما ولّينا وجوهنا نجد لنا ثأرًا بائتًا وعنقًا خاضعًا ورأسًا واحسرتاه مطأطئًا.

أتعلمون أيّها الإخوان مَن هم أشدّ عداوة للعرب من الفرنساوي والإنكليزي والطوراني ومن اللّنبي وجمال باشا وغورو وصموئيل وجوفنيل...إلخ إلخ؟

أشدّ عداوة للأمّة العربية من هؤلاء وأمثالهم أولئك العرب الذين ينفخون في بوق الشقاق بين الإمام يحيى والملك السلطان عبد العزيز ابن سعود حتّى يخنوا على هذه البقيّة الباقية للأمّة العربية.

جنيف، ١٣ مارس

شكيب أرسلان

***

الوفاق التركي الفرنساوي
عاد كأنّه لم يكن...

لسعادة أمير كتّاب العرب الأمير شكيب أرسلان

قال الشاعر:

أكلتُ حلاوةً وشربت ماء

كأني لا أكلت ولا شربت!

فما أجدر إخواننا الأتراك بأن يتمثّلوا اليوم بهذا البيت وقد أنطق معناه عليهم في الوفاق الذي عقده معهم جوفنيل في أنقرة منذ نحو شهر وعادت فرنسة تنقضه اليوم من أساسه.

بدأت العصابات بالثورة في شمالي حلب التي كانت ساكنة وكانت فرنسة قد أعياها ثوران الجهات الجنوبية وصادف اشتعال الثورة في الشمال تقدَّم جيش السلطان عبد العزيز بن سعود إلى قلعة الأزرق ووادي السرحان ممّا علمت فرنسة أنه سيقوّي قلوب الوطنيين السوريين ويطيل أمد المقاومة ووقع في أنفس الفرنسيس أنَّ تقدُّم الجيش السعودي إلى الطرف الجنوبي من جبل الدروز لا يمكن أن يكون إلاّ بتواطؤ بين ابن سعود والإنكليز فقالوا فيما بينهم: ما دام الإنكليز قد تواطأوا مع العرب علينا فلنتطواطأ نحن مع الترك عليهم.

وأسرع جوفنيل من فوره إلى أنقرة وقدّم بين يدي زيارته لتلك العاصمة الجديدة الأماديح الطنّانة في حقّ مصطفى كمال يلقيها في الطريق على مَن قابلوه من الأتراك واصفًا من عبقريّته ما لا يقاس عن واحد من جماعة «خلق فرقة سي» ولمّا وصل إلى هناك لم تتمّ أيام حتّى وضع الوفاق التركي الفرنساوي الجديد مفسّرًا لنقاط بقيت غامضة من وفاق فانكلين بريون وزائدًا عليه وناصًّا على مسائل تسبق فيه - هذا إن لم تكن ثمّة شروط سرّية - وعاد جوفنيل ينادي لطمأنة خاطر الإنكليز: «ما جئت لأنقض الناموس، بل لأكمل».

وعدّت أنقرة هذا الوفاق ظفرًا عظيمًا وحسبته أخًا لوفاقها مع الحكومة البلشفية لا سيّما في تعهّد فرنسة بالحياد التامّ بإزاء تركيا فيما لو وقعت هذه في حرب، وتعهّد تركيا بمثل

ذلك لفرنسة ممّا حمل الجرائد التركية على دقّ طبول البشائر من أجل هذا الاتّفاق والقول بأنَّ تركيا قد تمكّنت من شطر فرنسة عن إنكلترة وصدع التحالف الفرنسي البريطاني في قلبه.

وقد زاد في هذه الزيطة (الزيطة من العامّي الفصيح) التركية ما كان في صدور الترك من الحقد على الإنكليز من جرّاء حرمانهم من الموصل فظنّوا أنهم أخذوا بثأرهم منهم وفسخوا عنهم أهمّ حلفائهم لديهم وأمِنوا جانب فرنسة فيما لو نشبت حرب بين تركيا وإنكلترة أو بين تركيا وإيطالية أو بين تركيا واليونان أو بينها وبين كلّ هؤلاء مجتمعين...

ولمّا كان إخفاق تركيا في أمر الموصل قد شقَّ جدًّا على حكومة أنقرة لا لفقد تركيا تلك الولاية التي تهمّها إلى الدرجة القصوى من الجهة العسكرية والتجارية والمعادن الثمينة التي فيها فقط أو من جهة بقاء كتلة كردية تكون نواة لاستقلال الأكراد بأجمعهم فحسب، بل من جهة أنّ هذا الفشل قد أورث وهنًا في مكانة الحكومة الأنقرية الحاضرة على حين أنَّ في تركيا مَن يترقّب لها مواطن ضعف كهذه فجاء التعاهد الفرنسي التركي فضلاً عمّا فيه من التشفّي جابرًا ليصبّ كبير من الكسر الذي أوقعه قرار جمعيّة الأمم بشأن الموصل ومع هذا اعتقدنا من أول يوم أنَّ إخواننا الترك قد استعجلوا كثيرًا في الفرح.

وإنَّ وعد توفيق رشدي [...] للمسيو د. جوفنيل بأنه سيزوره إلى بيروت لإظهار متانة العقد الذي جرى بين الدولتين لم يكن في محلّه.

ولم نقدر أن نفهم كيف أنَّ إخواننا الأتراك مع ذكائهم ودهائهم يصدّقون أنَّ فرنسة في حالتها الحاضرة تقدر على التملّص من موالاة الإنكليز مع أنَّ هذه قادرة أن تؤذيها في ألف مسئلة أذى بليغًا.

ولم نفهم كيف أنَّ فرنسة تتعهّد هي وتركيا بحياد مقابل حال كون فرنسة عضوًا بجمعيّة الأمم وفي صكّ هذه الجمعيّة ما يمنع مثل هذا الحياد في حرب تقع بين عضو آخر وبين دولة ليست بعضو كتركيا.

فلو نشبت حرب بين تركيا وإيطالية في غربي الأناضول لم يكن يسع فرنسة أن تبقى واقفة وقفة المتحايد يومئذٍ إلاّ إذا خرجت من جمعيّة الأمم.

لهذا لم نعتقد بتصديق هذا الوفاق في البرلمان الفرنساوي.

وذهبنا إلى أنه إن كان لا بدَّ من تصديقه فلن يكون كما هو الآن، بل من بعد التعديل الذي يذهب بجوهره.

وقد وقع ما حسبناه وعاد هذا الاتّفاق كالعرجون القديم من قبل أن يصل إلى البرلمان.

ولا شكّ أنَّ إنكلترة أقامت النكير على فرنسة سرًّا وأظهرت ما في هذا الوفاق من مناقضة صكّ جمعيّة الأمم عدا ما فيه من المجافاة البريطانية العظمى. أمّا الجرائد الإنكليزية فلم تجمجم ما في أنفسها بشأن وفاق أنقرة هذا وأبدت من الملاحظات ما فيه بلاغ.

وإذا بجرائد فرنسة تقول إنَّ الوفاق وصل إلى نظارة الخارجية الفرنسوية حيث يدقّق فيه الخبراء الحقوقيون.

ولم يمضِ يومان حتّى ورد في جريدة «الجورنال» أنَّ الخبراء الحقوقيين رأوا في هذا الوفاق ما لا ينطبق على عهد عصبة الأمم ولا على الحقوق...

* * *

فيما لو وقع صلح!
تصحيح رواية على وجهها
لسعادة كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان

قرأت في «السياسة» لمراسلها الدمشقي مقالة طويلة يبحث فيها عن تعنّت فرنسة وشدّة إصرارها على سياسة الجبروت في سورية وكيف أنَّ السوريين لم يتركوا وسيلة لاسترضائها واتّقاء محاربتها ضمن دائرة استقلالهم التامّ إلاّ توسّلوا بها ومن جملة ما ذكر هذا المراسل: إنَّ الأمير شكيب أرسلان عرض على فرنسة محالفة إلى مدّة ثلاثين سنة وبلغ به التساهل أن عرض تقديم عدد من الجند السوريين لمقاتلة ألمانية في جانب فرنسة.

والحقيقة أني عرضت على فرنسة محالفة إلى مدّة ثلاثين سنة عندما تلاقيت مع المسيو جوفنيل في باريز بناءً على طلبه، وذلك في شهر نوفمبر الماضي أي منذ أربعة أشهر إذ كنت متفائلاً بسياسة المسيو جوفنيل حاسمًا أنه ذاهب إلى سورية لأجل حقن الدماء وإجابة السوريين إلى مطالبهم القومية غير مبالٍ بدسائس بعض أبناء وطننا... ممَّن أحيوا لنا الحرب الصليبية في القرن العشرين!

ولكن المسيو جوفنيل أطاع أهواء الفئة المستعمرة من بلاده ودسائس الفئة المعادية لوطنها من بلادنا وسار على خطّة لم يخدم بها سورية ولا فرنسة نفسها وخيّب آمال الناس في ذكائه وبُعد نظره فتمادت الحرب في سورية وتمطّت بعملها وسقط في خلال هذه الأشهر الأربعة ألوف من السوريين قتلى وجرحى وخُرِّبت المنازل وعفت ديار وتعطّلت زروع وتشعّثت أمصار بما يساوي ملايين من الجنيهات بحيث اشتدّت النفرة بين الفرنسيس اشتدادًا لا يرجى معه عقد محالفات لا إلى ثلاثين سنة ولا إلى أدنى من هذا الأجل.

أمّا أني عرضت تقديم جند سوري لمحاربة ألمانية رأسًا فليس بصحيح.

الصحيح هو ما كنت نشرته من نحو شهر في «الشورى» ترجمة حرفية لمذكّرتي إلى المسيو جوفنيل. وهو أننا نجعل من حملة شروط المحالفة بيننا وبين الفرنسيس أن نقدّم لفرنسة في حال الحرب عددًا من الجند يقع الاتّفاق عليه، وأنَّ فرنسة بمقابلة ذلك تخف إلى إصراخ سورية في حال الخطر.

وهذا أشبه بما يتمنّاه إخواننا المصريون من أن يكون بينهم وبين إنكلترة عهد بموجبه يساعدون هذه الدولة بأمور تتعيّن بين الفريقين فيما لو نشبت إنكلترة في حرب وتأخذ إنكلترة على نفسها في مقابلة ذلك أن تدافع عن مصر كلّ غارة من جهة البحر. إذ بدون هذا التقابل تكون محافظة بريطانية العظمى على مصر مجرّد "حماية" وهذا ما يهرب منه المصريون. [...] وحضر لمواجهتنا الصحفيون من كلّ قبيل واشتدّت المشاحنة بيننا وبين الفرنسيس وأخذ هؤلاء يظهرون تعنّتنا في الصلح ونحن نظهر تعنّتهم في قبول مطالبنا المعتدلة كان منّا أن هتفنا أمام الجميع:

"وصل منّا التساهل أيّها الناس مع فرنسة أننا عرضنا عليها المحالفة إلى ثلاثين سنة وأننا رضينا بأن نقدّم لها عددًا من الجند يحارب معها" ونظرت إلى مراسل التايمس وهو من أنصار الانتداب، فقلت له: "أي أنه إن وقعت حرب بينها وبين ألمانية اضطررنا أن نحارب ألمانية. ولكن فرنسة رفضت حتّى تعهّدنا بالقتال في صفّها لأنها تطمع أن تجعلنا رعيّة لها وليس في الدنيا قوّة تقدر أن تجعلنا لها رعيّة".

نعم، يخرج من مضمون التحالف المقترح أننا نقاتل بعدد معيّن أيّة دولة تقاتلها فرنسة. لكن ليس موجّهًا نحو ألمانية بالتخصيص ولا يمكن أن يوجَّه إلى ألمانية بالتخصيص وإنَّما هو في مقابلة عضد فرنسة العسكري لنا في مواقف الخطر وإلى أجل مسمّى.

وممّا لا بدَّ من التنبيه عليه لأنه يجوز أن يكون موضوع بحث في أحد الأيام، أنه لا يجوز للسوريين أن يدخلوا في تعهّد يتقدّم به جندي واحد لمقاتلة دولة عربية أو أمّة عربية أو ناطقة باللسان العربي. ولو كنّا وصلنا في قضيّة المحالفة إلى التفاصيل لكنّا حرّرنا هذا القيد بالعربية الفصحى والفرنسية الوَضحا!

لوزان

شكيب أرسلان

***

ما هذا يا جلالة الملك؟

للكاتب العربي الغني عن التعريف والتلقيب

ورد في أحد الأعداد الأخيرة من جريدة "الدبا" أنه وصل إلى باريز الأمير غازي، نجل الملك فيصل، ومعه الدكتور تحسين قدري، طبيب جلالته الخاصّ.

وروت الجريدة المذكورة أنه صرّح تحسين قدري بما أبقته زيارة الملك فيصل لباريز من حسن الأثر في خاطر جلالته.

وقد سئل تحسين قدري عن الثورة السورية فأجاب: إنَّ ثورة الدروز قد أخذت من الأهمّية ما ليس لها وأنه بولغ فيها كثيرًا. وإنَّ فيصل يودّ عودة السلام إلى تلك الربوع.

فنحن لا نسأل تحسين قدري الذي هو خادم لجلالة الملك فيصل قُصاراهُ أن يتبصبص إلى هذه الدولة وإلى تلك الحكومة عن هذا الهذيان الذي لا معنى له. وإنَّما نسأل الملك فيصلاً نفسه: أيجوز لمأمور من رجال معيّته أن يبيّن كون هذه الثورة التي بها حياة أو ممات سورية ليست بذات بال، وأن يزعم أنها ثورة الدروز بالحصر؟

إذًا لم يشترك في هذه الثورة لا أهل الشام ولا أهل غوطتها ولا أهل جبل القلمون ولا أهل حمص ولا أهل حماه ولا أهل حلب، بل هي ثورة درزية لا مدخل لسائر أقوام سورية بها. والمعنى أنَّ هذا "العار" عار الانتفاض على "الأمّ الحنون" التحق به الدروز دون غيرهم!

فإذا كان لا يجوز لرجل من بطانة الملك فيصل العربي أن يتفوّه بكلمات من شأنها [...] منحصرة في الدروز وهي حركة سورية عامّة شاملة سواء فيها الثائر بالسلاح أو بالقلم أو الموافق بقلبه لا يستثنى منها إلاّ فئة قليلة معلومة لا يبلغ عددها عُشر البلاد السورية.

إذا كان الأمر كذلك أفلا يحقّ لنا أن نطالب الملك فيصل بإقصاء هذا الخادم المتبصبص من خدمته؟ وإن لم يُقصِهِ أفلا يكون وافق على كلامه؟ وإن وافق على كلامه أفلا يحقّ لنا أن نسأل جلالته هو نفسه ما معنى هذا التزلّف إلى فرنسا على ظهر أهل سورية؟

وربّما قيل إنَّ هذا الحديث مفترَى على تحسين قدري وأنه لم ينطق به وأنَّ الفرنسيس يكذبون كثيرًا في جرائدهم.

والجواب قد يكون ذلك لولا أنَّ القرائن تدلّ على العكس. فليست هذه أول مرّة قرأنا فيها «حُسْنَ تأثير» زيارة الملك فيصل لباريز على خاطر جلالته. فقد تكرّرت هذه النغمة كثيرًا.

وإن كان نقل جريدة الدبا مكذوبًا فليبادر تحسين قدري بتكذيبه.

يعلم الله أننا نحبّ الملك فيصل وننوي له كلّ الخير وطالما نوّهنا بحسن أخلاقه وأشدنا بذكره واعتقدنا جميته العربية. وكتاباتنا شاهدة بذلك.

ولكنّنا عتبنا عليه كثيرًا في تقرّبه إلى الفرنسيس أثناء ما كانوا يدمّرون دمشق عاصمة مُلكه الأول وإحدى عواصم الشرق الكبرى، وقلنا مهما كان من حسن نيّة فكان الأَوْلى به أن لا يجعل فرص سلمية مع فرنسة في الأيام التي قام فيها يهاجم الشام...

وإن قيل إنَّه إنَّما قصد حقن الدماء وإعادة السلام كما قصد غيره ومن الجملة محرّر السطور، فالجواب إنَّنا جميعًا نقصد حقن الدماء وإعادة السلام لكن على شرط الاستقلال التامّ لا على شرط الشرك الذي أراد أن ينصبه لنا الفرنسيس فإنَّنا بعد جميع هذه الضحايا لا ترضى أن نعود كما بدأنا ونكري كما أرمينا وما رأينا الملك فيصل وفّق إلى شيء من ذلك، بل ما رأيناه سعى إلاّ بما هو دون مطالبنا بكثير ممّا جاء مخالفًا لآمالنا فيه.

فإن كان لا يقدر على إقناع فرنسة بترك الاعتداء على أهل سورية فغاية ما نرجوه منه أن يمنع المنسوبين إليه من الخوض في قضيّتنا بما يصغّر من شأنها.

وما نظنّ الملك فيصل نسي الإهانة التي لحقت بالعرب ـ وبه نفسه ـ يوم دخل غورو دمشق الشام لأنه أحمى أنفًا من أن ينسى ذلك الذي جرى. وعلى فرض أنه تناسى ذلك لغرض في نفسه ولأمر ما جدع أنفه فليعلم أنَّ جرح السوريين لم يزل نغارًا وأنه لا يأسوه إلاّ فوز سورية بمطالبها الاستقلالية غير منقوصة. إمّا حشفًا وسوء كيلة فالسوريون لا يقبلون.

دماؤنا سائلة وبيوتنا خربة وأمصارنا مدمّرة وأطفالنا وقود لنيران الطيّارات وعدوّنا يتسلّط علينا في عقر دارنا بغيًا وعدوانًا، ويأتي واحد من حاشية أحد ملوك العرب فيفتح

شدّته في باريز بما يبيّض وجهه لدى عدوّنا الذي يعيد فينا تمثيل الحرب الصليبية منذ ثمانمائة سنة، هذا شيء لا تطيقه نفوسنا والحقد مذموم إلاّ في المسائل الوطنية.

شكيب أرسلان

* * *

هل من دولة رومانية مستأنَفة؟

لذلك الكاتب الغني عن التعريف والتلقيب

لا يخفى أنَّ إيطالية بلغ عدد سكّانها ٤٢ مليونًا ـ أي أنها أربت في العدد على فرنسة ـ بأنَّ أرض إيطالية المستطيلة الضيّقة من الأصل قد ازدادت ضيقًا بالاثنين والأربعين مليونًا الذين كانوا أقلّ من نصف هذا العدد يوم أسّست الوحدة الإيطالية والذين لا يمضي عشرون أو ثلاثون سنة حتّى يناهزوا الستّين مليونًا.

فأرض إيطالية لا تسع الطليان. وإذا قلنا إنَّ معامل إيطالية ينبغي أن تستوعب هذا الزائد من عدد هذه الأمّة أجيب بأنه ليس في استطاعة هذه المعامل أن تمتصّ هذا الفائض من الذرّية الإيطالية، وليس في استطاعة إيطالية أن تتوسّع في المعامل ودور الصنعة ما شاءت، إذ كان هذا الأمر يحتاج إلى رؤوس أموال جزيلة ومواد خام لا توجد في أرض إيطالية.

فلم يكن أمام إيطالية إذًا سوى باب المهاجرة فكانوا ينتجعون الرزق في جميع أكناف الأرض، ولا سيّما في أميركة حيث منهم بضعة ملايين.

ولكن أميركة كادت تصكّ باب المهاجرة إليها، وإذا أذنت لقوم به لم تأذن إلاّ بقدر معلوم وأكثر ما حرّجت على الأمم اللاتينية. فلا مندوحة بعد هذا لإيطالية عن النظر في جهات أخرى تنبسط فيها.

هذا من الجهة الخارجية. ومعلوم أنه كما كان فقر الدم مرضًا فزيادة الدم مرض أيضًا وقد يكون أشدّ تهلكة من الأول إن لم يبادر إلى معالجته بالفصد ووسائل أخرى.

وأمّا من الجهة الداخلية فلإيطالية سبب آخر يدعوها إلى التبسّط والتمدّد.

تولّى أمر إيطالية رجل اسمه موسوليني هو أمّة وحده. جاء موسوليني هذه المملكة على قدر، أي في الوقت الذي تحتاج فيه إلى رجل مثله.

فقد كانت إيطالية فيها كلمة الاشتراكية والشيوعية وضعفت فيها الحكومة واستبدّ الصعاليك بالملثاء وضاق بهم صدر هؤلاء والتمسوا المخرج من تلك الأزمة، فإذا برجل أصله من الاشتراكيين ومن أنفَس الصعالين وممَّن هم أدرى الناس بشعابهم قد نهض وأسّس

حزبًا مضادًا للشيوعية والاشتراكية معزّزًا لرأس المال والمُلك والدين والسلطان فتلقّاه الرأسماليون والنبلاء والمحافظون بِرًّا وترحيبًا وما زال أمره حتّى غلب على المملكة واستولى على رومة عنوة في يوم دخل فيه إلى تلك العاصمة بمائة ألف كلّهم لابس قميصًا أسود (شعار الفاشيست).

ولست بمحرّر الآن لتاريخ حركة الفاشيست إذ ليست من موضوعي في هذه المقالة ولكنّي أقول إنّها حركة جديدة مبنيّة على أساس يخالف الديموقراطية على خطّ مستقيم وهي تعلن مخالفتها للديموقراطية واحتقارها للحرّية الشخصية التي تقدّسها المدنيّة الحديثة.

المبدأ الفاشيستي لا تهمّه الحرّية الشخصية ولا يبالي بحقّ الفرد في سبيل رقيّ الأمّة وسعادة المجموع. وطالما صرّح موسوليني بانه إذا وجد في طريقٍ عقبة من تلك الآلهة المسمّاة بـ «الحرّية» لم يتردّد أن يدوسها برجله!

وقد قيّد موسوليني المطبوعات وسنَّ قوانين تحصر الأمر والنهي في يد حزبه، وكاد لا يتحمّل وجود حزب غير الفاشيست في إيطالية.

وأنت ترى أنَّ مذهبه في سعادة المملكة غير مذهب السواد الأعظم من أمم أوربة لا سيّما الإنكليز والفرنسيس. ولكن هذه النزعة الجبروتية قد غلبت على جنوبي أوربة. وهذا قلّما يكون على شواطئ البحر المتوسّط [...].

ولكن استبداد موسوليني وريفيرا وقع بأَسم الملك والسلطان والدين وطهارة الأخلاق والرجوع إلى المبادئ الأولى حال كون ما يقابل ذلك من الغازي هو بأَسم الجمهورية واللادينية والإطلاق من كلّ عقال والدَّوس على كلّ قديم.

وقد قال رجل من فضلاء الترك لعصمت باشا: نفهم أنكم تريدون هدم الدين وإطلاق حرّية الفكر بدون حدّ لها ولكنّنا نخشى أن ينشأ عن ذلك سقوط في المبادئ وفساد في الأخلاق حال كون الأخلاق ضرورية للمدافعة عن الوطن. فأجابه رئيس نظارة تركيا: بل الأمور تأخذ مجرًى طبيعيًّا من نفسها بنفسها! يريد أنَّ الحسّ سيكون هو المرجع الوحيد.

وهناك فرق آخر وهو أنَّ موسوليني وريفيرا لا يدعيان الحرّية والحال أنَّ المتغلّب في أنقرة يزعم أنه أنقذ الترك من استبداد السلاطين وأنَّ الجمهورية هي تمام الحرّية وأنَّ تركيا متمتّعة بتمام الحرّية...

والحاصل أنَّ بين هذا التغلّب وذاك التغلّب بونًا بعيدًا لأنَّ موسوليني لم يتعرّض للأزياء والملابس ولا جاء بما يمسّ المذاهب والعقائد، بل جعل خطّته المحافظة عليها.

ولكن التشابه واقع في أنَّ مصطفى كمال حقّت له الغلبة بحجّة أنه أنقذ تركيا من البوار وأنه لولاه لكانت دخلت في خبر كان، وأنَّ موسوليني حقّت له الغلبة بحجّة أنه أنقذ إيطالية من الفوضى وأنه سيزيدها بسطة في الخارج.

فالناس في الشرق والغرب ينظرون إلى ما سيقدم عليه موسوليني وما سيتجسّم بالعمل من تصوّراته.

ومَن عرف موسوليني وذكاءه وعمق غوره يعرف أنَّ خُطَبه المكرّرة التي يعِد فيها قومه بالتبسّط والتوسّط والتوسّع في الخارج ويأخذ الحصّة التي تتوازن مع قدر إيطالية، وينتقد فيها الدول المستعمرة الكبرى بأنها استأثرت بالشقص الأوفر من أفريقية والبلدان الشرقية لا يمكن أن تكون شقشقة فارغة ولا جعجعة بدون طحن.

وقد استولت إيطالية على طرابلس الغرب وذهب موسوليني يثبت سلطان إيطالية عليها، ولكن على فرض أنَّ طرابلس الغرب لم تكن «كيس رمل» كما كان يقول نيتي، رئيس نظّار إيطالية الأسبق، فهي مستعمرة لا تشبع إيطالية ولا تقوم بسدّ عوزها.

وقد شاع أنَّ إنكلترة وإيطالية تقاسمتا الحبشة ولا نظنّ أنَّ ذلك صحيح، وربّما تقاسمتا هناك مناطق نفوذ. وهو أيضًا مشروع فيه ما فيه من الوعورة. نعم، جرت لنا كلمة قديمة وهي «لا شيء أشبه بالسلّ من منطقة نفوذ» ولكن هذا لا ينطبق على بلاد الأحبوش فإنّهم قوم غلاظ شداد لا يهون عندهم العبث باستقلالهم مع المشهور من شدّة مراسهم ومنعة بلادهم.

ووضعت إيطالية يدها على قسم من بلاد الصومال. وليست هذه بالأكلة التي تملأ جوفًا رغيبًا كجوف إيطالية.

وتطاولت إيطالية إلى تونس ولكن ثمّة فرنسة... وما كانت هذه لتقبل اعتداء إيطالية، فإيطالية تفكّر في غربي الأناضول مثل أضالية وأزمير. ولم يجمجم موسوليني ما في نفسه من جهة الامتداد نحو الشرق وهو يذكر ماضي رومة ويصرّح بأنَّ رومة الحديثة تريد أن تخلف القديمة وتقدر.

ولا شكّ أنه وقع شيء من الاتّفاق بين موسوليني وشامبرلين في ملاقاتهما الأخيرة

على عمل مشترك تقوم به إنكلترة وإيطالية ... معًا فيما لو حدّث الأتراك أنفسهم بحرب من أجل الموصل.

ولكن موسوليني يعلم أنَّ الأتراك وإن هوّلوا وجمجموا وأوهموا أنهم سيصلونها حمراء ويشنّونها شعواء فلن يبلغ بهم الطيش أن يقدموا على حرب دولة كإنكلترة... ويعرف أنَّ الترك وإن وجدت عندهم الرجال واتّصفوا بالبسالة والاستبسال فمن أين لهم المال؟ ولا شكّ أنَّ سفيره في تركيا أخبره بأنَّ عجز ميزانية تركيا هذه السنة يبلغ ١٠٠ مليون ليرة تركية (قرابة ١٢ مليون جنيه) مع أنَّ الأمّة التركية تئنّ تحت ثقل الضرائب.

ولهذا لم يكن في وسع موسوليني أن يعلّق الحركة نحو الأناضول على حرب الموصل، بل شرع في إعمال الخطط اللازمة لاحتلال ذلك الخطّ سواء تعاركت تركيا مع إنكلترة أم لا، والمرجّح أنَّ معاهدة خفية انعقدت بينه وبين الدولة اليونانية يكون الفريقان فيها يدًا واحدة في الحركة وتكون حصّة اليونان بعد الظفر بولاية أدرنة، كما تكون حصّة إيطالية ولايات أزمير ومنتشا وأضالية وقرمان.

ولن ينحصر ربح اليونان يومئذٍ في أخذ تراقية الشرقية، بل تتمكّن من إعادة كثير من الأروام إلى أزمير وأضالية وهاتيك الأطراف التي كان هؤلاء مستولين على أمورها الاقتصادية وروح الأخذ والعطاء فيها. فالمسموع أنَّ هؤلاء الأروام لا يزالون يحنّون إلى أوطانهم ويتوقّعون الرجوع إليها وناهيك أنَّ تجارة أزمير كانت في يدهم تقريبًا وأنَّ رؤوس أموالهم لا تزال تستغلّ فيها تحت الخفاء إلى يومنا هذا.

وما نظنّ إنكلترة إلاّ سعيدة بعزائم موسوليني هذه سواء كانت معجّلة أو مؤجّلة. ولا نظنّ فرنسة تقف في وجه موسوليني إذا حاول اجتياح الأناضول لأنها ترجو حينئذٍ استرداد كيليكية، ومن جهة أخرى تلهي موسوليني عن تونس التي لا تفتأ إيطاليا تذكرها ومَن قرأ "الطان" عدد ١٩ الجاري و"الماتن" في النهار نفسه فضلاً عن سائر الجرائد الباريزية الكبرى علم مبلغ اجتهاد فرنسة في استرضاء إيطالية، لا بل في وضع يدها معًا للعمل في البحر المتوسّط معًا على ما يحيي "الجامعة اللاتينية".

فاتّفاق فرنسا مع أنقرة الذي عقده جوفنيل أخيرًا وتبجّحت به الجرائد التركية لإعلاء ما انخفض من نفوذ أنقرة بمسئلة ضياع الموصل قد ظهر أُلهيَة قصدت بها فرنسة صرف أنقرة عن إمداد السوريين. وقد تمّ لها ذلك ويا للأسف وظنّت تركيا مدّة جمعتين من الزمن أنها قد سلخت فرنسة عن إنكلترة. وأيّ غرور أعظم من هذا؟

والآن ترى تركيا من لهجة جرائد فرنسة أنَّ هذه الدولة تريد أن تتزلّف إلى شقيقتها اللاتينية مهما بين الشقيقين من التنافس، ولا يبعد أن تتّفقا على اقتسام تركيا استئنافًا كما اتّفقتا في البداية. فتخرج ولاية أطنة إلى بوزانتي وولاية أزرقا في نصيب فرنسة. فإنَّ فرنسة لا تزال حافظة في قمطرها صكّ المقاسمة الذي كان يعطيها من شمالي سورية إلى سيواس. وتخرج أضالية وقرمان ومنتشا وأزمير في نصيب إيطالية.

وإذا عرفنا أنَّ سياسة إنكلترة من الأول إلى الآخر في الشرق هي هدم تركيا قبل كلّ شيء، وإذا تذكّرنا أنَّ الإنكليز كانوا أول الساخطين على إخلاء الفرنسيس لولاية أطنة وإخلاء الطليان لولاية أضالية حبًّا بتكثير أعوانها في هدم تركيا كان لنا أن نأخذ نتيجة وافية من جهة يكون إنكلترة لا تعترض هذه المرّة لا على رجوع من فرنسة إلى أطنة ولا على احتلال إيطاليا لأضالية والساحل الممتدّ فيها إلى أزمير...

وكيف تعترض ومجرّد إشاعة هذه المقاصد بحقّ تركيا قد غيّر هذه وحوّل أفكارها عن العراق وأسكن نأمتها من جهة الموصل.

وقد يقال إنَّ استيلاء الطليان على غربي الأناضول ليس بسهل، وإنَّ الأتراك بسلاء أشدّاء على رأسهم قائد عظيم كمصطفى كمال باشا فلا يهون على المجتاح أن يجتاح بلادهم.

وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان ولا يرتاب فيه موسوليني ولا شامبرلين ولا بنغالوس ولا أحد من رجال الدول. ولكن ممّا لا يختلف فيه اثنان أيضًا أنَّ لدى إيطاليا ثلاثة ملايين جندي وأسطولاً عظيمًا وأنَّ لليونان ثأرًا لا تنساه. وممّا لا يختلف فيه اثنان أيضًا أنَّ إنكلترة تكون ردءًا لهما في موقف كهذا وأنَّ فرنسة إذا دارت الدوائر على تركيا تجد أسبابًا للتنصّل من معاهدة جوفنيل الأخيرة وتكرّ على كيليكية.

فالحالة إذًا ستكون حرجة وإن كنت لا أعتقد بأنها واقعة في ميعاد قريب.

فهل يهون علينا نحن معاشر العرب أن تعود الدول المستعمرة فتخني على استقلال تركيا وتحيي معاهدة سفر بعد موتها؟ كلا، لا يهون علينا هذا الأمر لأسباب عديدة:

الأول: لأننا لا نفرح لاستيلاء الغرب على الشرق.

الثاني: لأنهم إذا التهموا تركيا فلا أقرب من أن يلتهمونا نحن وأن يخنوا على الباقي في ديارنا وعلى استقلاله.

الثالث: ما من أمّة تجاحش على استقلالها ترضى بالقضاء على استقلال أمّة أخرى.

ولكن مع اللهف نقول إنّه ليس في يد العرب شيء اليوم ينافحون به عن استقلال الترك الذي هو أخ لاستقلالهم. وقد كان في وسع العرب أن ينصروا الترك نصرًا مؤزرًا كعادتهم وكانت سورية في أيدي أهلها وكان العراق قريبًا بحثًا [...].

وقام الإمام يحيى في اليمن مقامات بلى حرّها الإنكليز طيلة أربع سنوات. ووقف ابن رشيد في جانب تركيا مواقف ذهب من أجلها رأسه. وكان للسيِّد أحمد الشريف السنّوسي من الجهاد تحت علم الدولة مدّة ثلاث عشرة سنة ما كان ممّا شهد به الخافقان وأكمل خدمته لتركيا بمساعيه في تسكين ثورة قونية وتهدئة بلاد الأكراد أيام كانت أنقرة في ضعفها. وكلّ هذا لم يذكر منه شيء، بل ذكر العكس وبولغ في الطعن وكوفيء السنّوسي آخر الأمر بالطرد من مرسين[1] وجعلت حسنات العرب سيّئات، ولم يبقَ من كلّ ما قدّمه العرب بين يدَي الدولة أيام الحرب العامّة ومنذ أربعمائة سنة إلاّ عمل الملك حسين بن علي الذي ثار على الدولة فكان أكثر العرب عليه لا معه لا كرهًا بمبدأ الاستقلال الذي ادّعاه، بل خوفًا من نكث الدول التي عاهدها وتفاديًا من كسب عداوة الترك وهو الأمر الذي وقع بحذافيره.

نعم، كان في وسع العرب أن يظاهروا تركيا وهم ٢٠ مليون نسمة في آسية أكثرهم شاكي السلاح لو فكّر رجال أنقرة في عواقب الأمور وتأمّلوا أنه باقٍ في الدنيا أناس يقال لهم العرب.

ولكنّهم عملوا عمل مَن لا يحسب لأحد من البشر حسابًا وظنّوا في أنفسهم الكفاية لصدّ كل قوّة ونحن نتمنّى والله يشهد أن تكون بهم الكفاية لصدّ كلّ معتدٍ عليهم وصيانة حوضهم في المستقبل كما صانوه في الماضي بقوّة اتّحادهم وبعزيمة الإسلام ولكنّنا في وجل مَن تحامل أوربة وتمالؤها عليهم وطمعها في ديار الأناضول على حين لا يرجع عنهم من الإفرنج طامع ولو جاءوه بالبرانيط ولو كتبوا إليه بالحروف اللاتينية!

شكيب أرسلان

(١) وضعت جرائد أنقرة صورته وكتبت تحتها "بزيّ خيانت أيدن سنّوسي".

الاتّفاق التركي الفرنساوي
عاد كالعرجون القديم!

لسعادة أمير الكتّاب وأديب العرب الأمير شكيب أرسلان

ورد في جرائد أوربة أنَّ المستر غاروجونس سأل المستر شامبرلين في مجلس العموم البريطاني عن قضيّة نشر الوفاق الفرنسي الأنقري الذي عقده جوفنيل في شباط الفائت فأجاب ناظر الخارجية الإنكليزية بما يأتي:

«الذي أعلمه أنَّ النصّ النهائي للوفاق لم يقرّر بعد. وليس عندي أثر من الاعتقاد نظير السائل بأنَّ هذه المعاهدة ستكون سرّية كما أنه ليس من شغل حكومة إنكلترة أن تطلب من هذه الحكومة أو تلك الحكومة أن تفعل كذا وكذا».

فأجابه المستر غاروجونس:

«هل يريد المستر شامبرلين أن يقول إنَّه إذا جرى الخَيس بعهد جمعيّة الأمم بما فيه الضرر لنا لا يعمل هو شيئًا؟».

فأجابه شامبرلين:

«كلا، وإنَّما أقول إنَّني لا أرى موافقًا أن تهتمّ حكومة بكونها خاست بالعهد بدون أن يكون لذلك ظلّ من الحقيقة. وأقول أيضًا: ليس على الحكومة الإنكليزية أن تأخذ على نفسها هذا الأمر وإنَّما هو من خصائص جمعيّة الأمم».

فأنت ترى أيّها القارئ أنَّ إنكلترة آمنة من جهة ذلك العهد... أي عهد عصبة الأمم الذي لا يسمح لإحدى الدول أعضاء الجمعيّة بأن تمالئ دولة خارجة عنها على دولة داخلة فيها.

ولهذا، ففرنسة لا تقدر أن تبقى متحايدة بإزاء حرب بين إنكلترة وتركيا كما كان قد جاء في وفاق جوفنيل معِ أنقرة وطبّلت وزمّرت من أجله الجرائد التركية حاسبة أنَّ تركيا في هذا الاتّفاق فازت فوزا عظيمًا.

وهذا يؤيّد مقالتنا السابقة بأنَّ الاتّفاق التركي عاد كأنَّ لم يكن.

ولعلّه يقال: إلاّ أنَّ تركيا فازت باستقلال داخلي لاسكندرونة!

والجواب: إنَّ هذا الاستقلال الداخلي على شكله الحاضر كان الفرنسيس قد وعدوا به في معاهدة فرانكلين بويون منذ خمس سنوات ولم ينفّذوا وعدهم هذا، فليس ثمّة شيء جديد. ثمَّ إنَّ هذا الاستقلال الداخلي لم يخرج منطقة اسكندرونة من تحت سيطرة فرنسة وإنَّما أخرجها من الوحدة السورية. وظاهر أنه ليس هذا مأرب تركيا في قضيّة اسكندرونة وإنطاكية، بل أماني الأتراك في تلك الزاوية هي أن يفوزوا باستقلالهم الداخلي أولاً حتّى يندمجوا بتركيا ثانيًا.

ولقد رأى الناس كيف أنَّ لجنة الانتدابات وبعدها مجلس عصبة الأمم احتجّا على فرنسة لإضافة بعض طرق ومحاطّ رعايا سكّة حديدية إلى تركيا، من أرض مرويّة بحجّة أنَّ دولة منتدبة لا تملك أرضًا وليس من بعض أرضي تُركَت إهمالاً [..] وإنَّما هي نقاط نصّت عليها معاهدة فرانكلين بويون ولم يجرِ تطبيقها من قبل فهي الآن تطبّق.

فبديهي بعد هذا أن لا تقدر فرنسة على السماح لأهالي اسكندرونة وإنطاكية بالالتحاق بتركيا. إذ هذا الالتحاق يخالف عهد العصبة. وأهمّ من هذا أنه يخالف على خطّ مستقيم مصالح بريطانية العظمى. وناهيك إذا وقعت مسئلة تخالف في وقت واحد عهد العصبة ومصالح بريطانية العظمى.

نعم، إنَّ «سلّة» أنقرة عادت هذه النوبة فارغة. ولا عجب أن تعود فارغة لأنها تركت أهل سورية جيرانها الأبديين وقعدت تفاوض على الحدود التركية السورية دولة هي عدوّة لها ولهم... دولة من المحال أن تجرأ على مناوأة إنكلترة ومصالحهما مرتبطة بعضهما ببعض لا سيّما في المستعمرات.

والحال أنَّ سورية فيما لو ملكت زمام أمرها كان يمكنها الاتّفاق مع تركيا على مسئلة الحدود وعلى مصالح ومرافق مشتركة كثيرة. وفوز سورية بملك زمام أمورها كان في وسع تركيا أن يكون لها فيه اليد الطولى لو أرادت.

ولكن هذا يجب له سياسة لا تكون دائرة على محور الشحناء، بل على محور المصلحة. وتجب له خطّة واقعية لا خطّة خيالية. وتلزم فيه مبادئ يفهم فيها التركي أنه لم

يزل شرقيًّا وأنَّ هتافه «شرقه وداع!» لن يقرّبه إلى الغرب قيد سنتيمتر. ويتحتّم له اقتناع بأنَّ لبس القبّعة لا يحوّل التركي أوروبيًّا وأنَّ أكثر أهالي مستعمرات أوربة في أفريقية لابسون البرانيط وهم مع ذلك عبيد سود... إلخ إلخ.

وهذا يجب له خطّة توفير لحقوق العرب واعتبار لمكانتهم في الدنيا وتأمل بأنَّ أمّة كهذه فيها العدد وفيها الثروة وفيها النخوة وفيها الصبر وفيها الإقدام وفيها الذكاء المضروب به المثل وبيدها أنفس المواقع وأشرف البقاع هذه أمّة لن تموت وأنَّ الحزم كلّ الحزم في مصافحتها ومخالفتها لا في احتقارها والنظر إليها شزرًا.

ولا نعلم هل يذهب توفيق رشدي بك إلى بيروت بعد أن تهلهل الاتّفاق التركي الإفرنسي الأخير حتّى نفذ منه الضوء أم يعدل عن طيّته هذه ويقنع بأنها فرحة لم تطُل إلاّ عشيّة أو ضحاها؟

لوزان

شكيب أرسلان

***

الصيف ضيّعت اللبن!

لسعادة أمير الكتّاب وكبير الأدباء الأمير أرسلان

بعد هذه النوائب التي لم تعرف مثلها سورية من قرون وأحقاب على يد هذه الدولة التي جاءت تعلّمنا المدنيّة... وبعد فظائع تقشعرّ منها الجلود ويأنف من إتيان مثلها الهوتنتوه السود ممّا لم يزل يتكرّر كلّ يوم وفي عهد جوفنيل الذي أخذ على نفسه لدى لجنة الانتدابات بأن ينهج منهجًا جديدًا في الإدارة.

وبعد الأفعال البربرية التي أتاها قوّاد الجيش الإفرنسي عند إخلاء الدروز لراشيا وإخلاء ثوّار جبل ستير لقصبة النبك وفي حمص وفي دمشق ممّا ستسجّله الكتب والتواريخ ويبقى على جبهة فرنسة سمة عار إلى الأبد.

جاءنا حضرة رئيس حكومة سورية الجديد أحمد نامي بك يتكلّم في الشام بوفاق أشبه بوفاق إنكلترة مع العراق.

فنقول لأحمد نامي بك والمسيو جوفنيل معه: الصيف ضيّعت اللبن!

لو كان هذا الاقتراح قبل تعميق كلّ هذه الجراح لقبلناه. ولكن الاكتفاء بوفاق أشبه بالوفاق البريطاني العراقي بدلاً عن هذه المصائب كلّها ليس في سورية وطني حرّ يرضى به.

نحن لم نرضَ بمثل الوفاق البريطاني العراقي إلاّ قبل هذه الحرب التي أتت على الحرث والنسل أمّا بعد الحرب فقد تغيّرت الحال. ولمّا صار جوفنيل مفوضًا بأمور سورية ولم يكن الخراب استصفى من موارد حياة سورية ما استصفاه، ولا بلغت العداوة ما بلغته، لم يرضَ منّا أحد مثل وفاق إنكلترة مع العراق. وإنّ الاقتراحات التي قدّمتها للمسيو جوفنيل مع كونها تبعد مراحل عن شروط المعاهدة الإنكليزية العراقية كانت محلّ اعتراض وإنكار وإكبار لدى كثيرين من مفكّري الوطن ولم يطابقها نصّ اقتراحات لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني ولا جواب مجلس الثورة في جبل الدروز ورأوا فيها تسامحًا كثيرًا. كلا، لا سبيل اليوم إلى اتّفاق كهذا ولا هذا وحده ثمن دمائنا وديارنا! وليكِل جوفنيل بغير هذا الصاع. فالأمر ارتقى كثيرًا عمّا كان من قبل الثورة، بل عند تعيينه هو.

وأيضًا فلا ثقة لنا في تأكيدات أحمد نامي بك ولا في تأكيدات أحد ممَّن يقبل منصبًا عند الفرنسيس ولا نرى خطبته في دمشق إلاّ من جملة الألاعيب التي يقصدون بها التمويه على السوريين. فأهل دمشق برهنوا في المدّة الأخيرة أنهم يعرفون طريق الخلاص فلا يخشى عليهم من الوقوع في الفخّ المنصوب.

ليس في اتّفاق إنكلترة مع العراق انتداب، بل الانتداب يبطل بمجرّد دخول العراق في جمعيّة الأمم، ودخول العراق في جمعيّة الأمم كان معلّقًا على طلب العراقيين. ولولا ما ظهر من طمع تركيا في الموصل وما أحسّ به العراق من الحاجة إلى الإنكليز إلى أن يكون انفضّ مشكل الموصل لكان العراق صار عضوًا في العصبة [...]. ولا تزعم إنكلترة الاستئثار بالكلمة الأخيرة في العراق فوق المجلس النيابي ولو تشترط إنكلترة على العراق حقّ تمثيله في الخارج. ولا تتمسّك إنكلترة بحسب الوفاق باحتلال العراق وكيف كان الأمر فنحن اشترطنا على الفرنسيس أن لا يدخل في مشروع الاتّفاق بيننا وبينهم موظّف من أهالي سورية، بل إن جرى اتّفاق يكون مع زعماء الثورة والمؤتمر السوري الفلسطيني والعصبة التي اشترت استقلال سورية بدمائها وجهودها. وأحمد نامي بك مع حبّنا له وما كان من إجلالنا وإجلال الجميع لقدر أبيه المرحوم ابراهيم فخري بك نقول مع الأسف أنه منذ انتهت الحرب العامّة يغادي باريز ويراوحها ساعيًا لنفسه في إمارة سورية. ومن المقرّر أنَّ مَن يسعى لنفسه في إمارة سورية لا سيّما في تلك الأوقات التي استباح فيها الفرنسيس كلّ ما لسورية زاعمين أنها ملكهم إلى الأبد لا يكون إلاّ موطّنًا نفسه على الرضى بكلّ ما تريده منه فرنسة بشرط أن يتنعّم بلقب أمير ويستوي على عرش موهوم. فهذا يخوّف الناس من أحمد نامي بك. رضي الله عن سيّدنا عمر الذي يقول: إنَّا لا نولي على عملنا مَن يريده ونخاطب حضرة البيك، فنقول له:

إن كنت سعيت هذا السعي الحثيث في نيل هذه الرئاسة حبًّا بخير سورية وضنًّا بدماء أهلها وأموالهم كما تقول فعليك أن تناشد أصحابك الفرنسيس القبول بالمطالب التي حرّرها زعماء الثورة في الجبل آخر مرّة والتي يستحيل أنَّ الوطنيين في سورية ينزلون عنها.

فإذا نصحت وصدقت ولم تقبل المنصب إلاّ على هذا الشرط قلنا لك إنَّك نِعْمَ الشبل لابراهيم فخري بك الذي كان في أنفه من الشمم وفي صدره من الحميّة ما يتفرّق على جمّ غفير فيكفيهم. ونقول لك أهلاً وسهلاً ولا أعزّ منك ولا أغلى.

وإن كنت تريد أن تكون «طبعة ثانية» لصبحي بركات وأن تستعمل صفتك الوطنية واسطة لترويج أغراض الأجنبي الذي أنعم عليك برئاسة الحكومة فاعلم أنَّ جواب السوريين حاضر وهو: إنَّك جركسي غريب الديار لا تختلف عندنا شيئًا عن الجراكسة المرتزقين الذين جاءوا إلى بلادنا يقاتلوننا في صفوف الأعداء. فيكونون ازدادوا بك واحدًا. ولعلّك وجدت منهم في محطّة رياق وأنت بمعيّة المسيو جوفنيل وهم آتون مع «إخوانهم» الفرنسيس في قطار الجرحى فطيّبت خواطرهم جميعًا حسبما سمعنا على قيامهم بـ «الواجب» في قتال «أعداء النظام» كما تقول بعض الجرائد البيروتية المتفرنسة.

كلا، يا حبيبي لا تقدر أن تكون أميرًا في سورية أو رئيسًا لحكومة مرضية في سورية على ظهر أهل سورية.

برلين

شكيب أرسلان

* * *

مدنيّة الإسلام في شمال أفريقية

لسعادة عميد البيان الأمير شكيب أرسلان

نقلت جريدة "الشورى" في الدالي تلغراف إحدى الجرائد الإنكليزية الاستعمارية ومن كبريات مجرماتها قولها: "إنَّ الإسلام لم يأتِ شمالي أفريقية إلاّ بالخراب والدمار" وعقّبت على ذلك بقولها إنَّ حضارة العرب في أسبانية شاهدة ببهتان الدالي تلغراف.

والذي يقرأ ردّ الشورى ويتأمّل في اقتصاره على ذكر حضارة الأندلس يخال أن ليس في شمالي أفريقية من مدنيّة الإسلام ما يستحقّ أن يكون شاهدًا.

والحال أنَّ في تونس والجزائر والمغرب الأقصى من آثار الحضارة العربية ما لا يقلّ عن تلك الحضارة الباهرة في الأندلس وما يشهد ببُعد مدى الدول الإسلامية التي تعاقبت على المغرب الأدنى والأوسط والأقصى.

وعندي مجموعة رسوم لأنفَس مباني العرب في هذه البلدان جمعها مؤلّف ألماني ونشرها مع تعليق الشروح اللازمة عليها بالألمانية والإفرنسية فجاءت كتابًا جديرًا بأن تخلو منه قاعة استقبال ومع كون النسخة من هذا الكتاب تباع بجنيه ونصف جنيه إنكليزي تجد الأوربيين يتسابقون إلى اقتنائه. ووددت لو أنَّ واحدًا من ذوي الحمية العربية يبتاع نسخة من هذا الكتاب ويبعث بها هديّة إلى "الدالي تلغراف" ويكتب له على ظهر الجلد "هذا شاهد بكذبك".

وسأكتب عجالة عن علماء الأوربيين الذين ألّفوا في محاسن الحضارة العربية في المغرب وأشادوا بما فيها من بدائع الصنعة ونوادر الأبّهة وأفقأ حصرمًا في عين "الدالي تلغراف" وأعين عميان آخرين تضيق صدورهم كلّما قيل إنَّ للعرب آثارًا باهرة في العمران.

وسأنقل جملة عن كتاب للأديبَين الإفرنسيين الشهيرين والكاتبَين الأخوين البليغين جيروم وجان تارو كتباه على مدينة مراكش منذ عهد قريب ووصفا فيه مقبرة الملوك السعديين في تلك الحاضرة فقالا: "إنَّ مَن لم يشاهد بعينه داخل هذه القبّة التي هي أعجوبة من أعاجيب الذنيا لم يمكنه أن يدرك إلى أيّ درجة من الرقيّ وصلت المدنيّة الإسلامية".

ومالي أنا وللفتوى ومالك في المدينة. وهل يتأخّر قاموس الآثار العربية وأسقطس الخطط الشرقية الأستاذ العلاّمة أحمد زكي باشا عن نشر كلمة شافية في هذا الموضوع يعلم منها القارئ أنَّ حضارة الإسلام في المغرب عمّت العدوتين وأنَّ آثارها في تونس والقيروان والجزائر وتلمسان وفاس ومكناسة الزيتون ومراكش وغيرها تضاهي آثارها في غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة أو تقرب منها. ولا تنسَ آثار العرب في صقلية ولا سيّما في بالرمو مقصد السيّاح فهي من آثار الذين كانوا منهم في تونس.

وهناك أسد آخر رابض للإفادة وهو العلاّمة الهمام الأستاذ السيِّد عبد العزيز الثعالبي الذي يقدر أن يروي عن بيته وصاحب البيت أدرى.

فلا يقدر «الدالي تلغراف» ولا «دالي» آخر ولا «تايمس» ولا «طان» ولا كذّابون آخرون من السنة الاستعمار ومعاول الاستغلال والاستعباد أن يسلبوا الإسلام حلاه ويغصبوه حقّه بالثرثرة والبهتان وهيهات أن يحجب طفل السياسة شمس العلم وما يعميها عن العيان إلاّ قليلاً ريثما تسطع أشعّتها فتملأ الدنيا نهارًا.

برلين — شكيب أرسلان

***

المعركة الكبرى في غوطة دمشق
بيان المسيو جوفنيل أمام لجنة الانتدابات
ردًّا على مذكّرة الوفد السوري

لسعادة أمير الأدباء والكتّاب الأمير شكيب أرسلان

عندما كان جوفنيل في أنقرة حيث لقي من الحفاوة الكمالية ما لقي وانعقد الاتّفاق بين تركيا وفرنسة على ظهر السوريين ووقعت المؤامرة الأنقرية الجوفنيلية على قتل الاستقلال السوري الذي هو بغيض إلى أنقرة بمقدار ما هو بغيض إلى فرنسة ـ ولو أتعب يونس نادي نفسه في جريدة "جمهوريت" لإثبات العكس ـ استنجزت أنقرة جوفنيل الوعد الذي كانت وعدته فرنسة من جهة إعطاء منطقة اسكندرونة استقلالها الداخلي الذي يسمّيه الإفرنج "أوتونومي" والأتراك "مختاريت" فوعدها بذلك. وما كاد يصل إلى بيروت حتّى أمر السلطة الإفرنسية في اسكندرونة بأخذ القرار اللازم وأعلنه في الجرائد زاعمًا أنَّ هذا هو مراد الأهالي. والحقيقة أنه مراد تركيا.

ولكن بلغ إنكلترة خبر هذا الوفاق الفرنساوي التركي وأخذتها منه الغيرة وسمعت بفصل منطقة اسكندرونة عن سورية وعلمت أنه الخطوة الأولى لإلحاق هذه المنطقة بتركيا.

وخالجت إنكلترة الوساوس وظهرت في جرائدها علامات على الهواجس فاستعلمت عن حقيقة هذا الاتفاق وأشعرت فرنسة عدم موافقتها على تلك السياسة كما ذكرنا في مقالة سابقة. ولمّا لم يكن في طوق فرنسة أن تخالف إنكلترة لأسباب عديدة علّلت إلحاق بعض القرى التي ألحقت بكلس بأنه ليس بشيء جديد وإنَّما هو تطبيق لمعاهدة فرنكلين بويون ولكنّها اضطرّت إلى العدول عن قرارها الجديد بشأن فصل لواء اسكندرونة عن سورية فصدر أمر جوفنيل إلى السلطة في اسكندرونة بنقض القرار السابق فنقضوه. هذه هي القصّة. وكلّ من القرارين الأول والثاني من عمل الحكومة المحتلّة.

وزعم جوفنيل ـ وهو زعم يشاركه فيه كثير من الأوربيين ـ أنَّ استمرار الحرب في سورية لا جناح فيه عليه، بل هونتيجة تصميم الدروز على القتال فإنَّ الدروز كانوا ظانّين أنهم يتغلّبون على فرنسة وأنَّ فرنسة مضطرّة أن تظهر القوّة في سورية لأنَّ أهل الشرق لا

يعتبرون سوى القوّة ولا يعرفون حكمًا إلاّ للقوّة. وأخذ يكرّر هذا المعنى الذي طالما سمعناه من الأوربيين على حين أنَّ القوّة هي معبود أوربة لا الشرق. فالإفرنجي بفطرته لا يحترم في الدنيا غير القويّ مهما توافرت سيّآته ولا يحترم غير الضعيف مهما تعدّدت حسناته.

ثمَّ إنَّ جوفنيل لأجل أن يثبت حسن نيّته ورغبته في حقن الدماء صرّح بأنه بدأ بمفاوضة الوطنيين منذ كان في باريز وأنه تفاوض مع هذا العاجز ولا يُنكر أنه اتّفق معي في جملة نقاط. ثمَّ إنَّه لمّا مرّ بمصر اجتمع مع لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني وكانت المقابلة غايةً في المجاملة إلاّ أنه لمّا أشار إليهم بتحرير مطالبهم أرسل إلى المسيو جوفنيل... [أمر] إبطال الانتداب ومنها الجلاء التامّ إلى غير ذلك.

ثمَّ إنَّ ابن عمّنا الأمير أمين أرسلان ترجّاه بزعمه الرخصة له بالذهاب إلى جبل الدروز ونصحهم بالخضوع فسمح له رغبة في السلم فأساء سليمان باشا الأطرش تأويل هذه النصيحة وحملها على ضعف الحكومة الإفرنسية وطغي واستكبر استكبارًا وعاد الأمير أمين بخفى حنين.

ولست على ثقة في كون ابن عمّنا أمين التمس الوساطة من نفسه أم أوعز إليه بعض رجال الفرنسيس بذلك. ولكنّي على ثقة من أمر واحد: وهو جاءني بعض الإخوان من باريز يلحّون عليَّ في الذهاب لملاقاة جوفنيل بناءً على طلبه. فلو رضيت الذهاب بمجرّد قولهم لكان المفوّض السامي اليوم ادّعى أنني أنا الذي ذهبت إلى باريس وتوسّلت إلى أن أقابل حضرته. ولعلمي بأطوار رجال الحكومات لا سيّما الحكومات الاستعمارية أفهمت الإخوان الذين توسّطوا بأن لا يتعبوا أنفسهم لأنني لا أذهب إلى باريز إلاّ بدعوة تأتيني من المسيو جوفنيل رأسًا، وأن يصرّح فيها أنَّ الغرض منها المذاكرة في قضيّة سورية. وقلت لهم: إذا لم تكن بيدي هذه الدعوة أنكر هؤلاء الجماعة وأنهم استدعونا ولو كان من السوريين مائة شاهد على أنه سواء كان أنا أو ابن عمّي فلا بغض من كرامتنا أن نرغب في حقن الدماء ونسعى في السلام ونلتمس الوفاق مع دولة نعلم قوّتها وعظمتها ولكنّنا لا نلتمس سلامًا يكون سيفًا ولا وفاقًا ينقلب حيفًا. فإنّنا نعلم أنَّ الصلح على القواعد التي يريدها جوفنيل لا يكون إلاّ هدنة مؤقّتة ثمَّ يهبّ السوريون مرّة أخرى في وجه السلطة الفرنسوية. إنّنا أنا أو ابن عمّي أمينًا وجميع أبناء أعمامي العرب لا يخالجنا أدنى ريب بأنه لو اجتمع الثقلان لردع الفرنسيس عن ظلم السوريين وعسفهم بسلطان تلك السيطرة التي يدعونها لعجز الثقلان

عن هذا الأمر. وإنَّ الطريق الوحيدة لرفع تلك المظالم والمغارم الإفرنسية عن السوريين هي استمتاع هؤلاء بتمام سلطانهم القومي. وما دام الفرنساوي أدنى سلطة على السوري فهو ظالمه ومرهقه عشرًا.

والمسيو جوفنيل يطلب من الثوّار إلقاء السلاح وبعد إلقائه يقبل مباشرة الانتخابات وبعد تمام الانتخابات تضع الجمعيّة التأسيسية دستور البلاد. ولكن مَن يضمن لنا بعد وضع السلاح عدم غدر الفرنسيس بالأهلين الذين اشتركوا بالثورة. ثمَّ مَن يضمن لنا أن يخرج من هذه الانتخابات جمعيّة وطنية تسنّ للبلاد الدستور الذي تريده الذي يريده جوفنيل ومعاونه أحمد نامي؟

وأفاض المسيو جوفنيل في ذكر الأراجيف والإشاعات التي تدور في الشرق وحمل كلّ ما يشاع من عسف فرنسا وقسوة عساكرها على مبالغة السوريين وتفنّنهم في الإغراق. وقرأ أمام اللجنة والحضور أماثيل من هذا النوع مثل أنَّ المسيو جوفنيل أثناء سياحته إلى تدمر مع قنصلَي إنكلترا وأمريكا قد ذبح قنصل إنكلترا في الطريق فأخذ قنصل أميركا بثأر زميله وقتل جوفنيل. وقد أضحك المسيو جوفنيل بعض البنات والشبّان السامعين عندما أورد هذه النكتة. ولكنّنا لم نفهم ما وجه إيرادها هناك؟ فعلى فرض أنَّ في سورية مَهَرة في تلفيق الأخبار ـ نظير جريدة الماتان في فرنسا مثلاً ـ فهل ذلك برهان على أنَّ كلّ ما عُزِيَ إلى الفرنسيس من الأعمال الوحشية كذب وبهتان؟ والذي لحظناه أنَّ أصحابنا الفرنسيس أخذتهم الغيرة من فيض قريحة بعض السوريين بالأراجيف حتّى قالت جريدة «تريبون دو جنيف» وهي من الجرائد السويسرية المتعصّبة لفرنسة: إنَّ المسيو جوفنيل الصجفي رأى مع الأسف أنَّ السوريين قد فاقوه.

وأمّا هذا العاجز فلم يستحسن من بيان جوفنيل كلّه إلاّ هذا الانتقام من جهة المبالغة والغلوّ والتسرّع إلى نشر الأخبار كيفما كانت. ومع أني أعرف مقدار مبالغات الفرنسيس ولا أقرأ لهم بلاغًا رسميًا واحدًا إلاّ وجدت الحقيقة فيه مقلوبة أو محرّفة، ومع أنَّ بضاعتهم بحذافيرها هي تمويه واختلاق فقد كنت أكره أشدّ الكره الأخبار التي كان يبعث بها مراسلو الجرائد المصرية من الشام كأنَّ: اقتتل الثوّار والفرنسيس في الواقعة الفلانية فقُتل من الفرنسيس ثلاثة آلاف ولم يفقد من الثوّار سوى ١٠ أو ١٥ قتيلاً. ومرّة قرأت تحت إمضاء واحد اسمه «سبع العيش» أنَّ مجموع قتلى الثوّار من أول الحرب ثلاثمائة وما عدت أعلم

كم قتيل يقابلها من الفرنسيس أحد عشر ألفًا وكذا قتيلاً...إلخ فإنَّ أخبارًا كهذه تسلب الثقة من بلاغات الثورة وينتهي الأمر بما ينتهي مع كلّ كذّاب، وهو أنه لو كحى الصدق لا يصدّق. ويظهر أنَّ مذكّرتنا أصابت من المسيو جوفنيل مكان وجع فاستشاط غضبًا ولم يملك نفسه أن تعرّض في ردّه لأشخاصنا فقال عن الأمير لطف الله إنَّه ليس بسوري ولا فلسطيني ولا بأمير، وأنَّ الملك حسينًا الذي أعطاه هذا اللقب سقط، فهو أمير بأمر باقٍ من ملك ساقط...إلخ وما استحسن أحد من ذوي الذوق تعرُّض المسيو جوفنيل للشخصيّات، بل جاء ذلك دليلاً على أنَّ الحقيقة لفحته بنارها فأراد أن يبرّد كبدة بالطعن والغمز. فالأمير لطف الله سوري الأصل وله الحقّ بأن يسأل عن وطنه الأصلي ولو كان من أتباع فرنسة نظير الكثيرين من السوريين المقيمين بمصر لمّا كان جوفنيل يثير أدنى اعتراض على تدخّله في أمور سورية، بل كان يحبّذ ذلك، فخطأ لطف الله في نظر الفرنسيس إنَّما هو مخالفته لما علية جمهرة قومه وترجيحه الرابطة العربية على غيرها... وأمّا لقب أمير فليس يقدّم ويؤخّر شيئًا في الموضوع لأنَّ المرء بأخلاقه وأعماله لا بألقابه وأسمائه. وكان على جوفنيل أن يغمز لطف الله فيما لو خان وطنه أو أتي عملاً شخصيًّا يصدّه والحال أنَّ لطف الله حري بأن يقول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكلّ رداء يرتديه جميل

***

سورية طريق آسية...

لكاتب العصر وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان

كان للفرنسيس علل عديدة في الاستيلاء على سورية يلوكونها بألسنتهم صباح مساء منها علاقتهم بالموارنة ومنها فتوحاتهم في سورية من عهد الصليبيين ومنها المشروعات الاقتصادية التي تخصّ فرنسة في سورية ومنها ميل أهل سورية بطبيعتهم إلى "الأمّ الحنون" فرنسة...

وكنّا نجاوبهم إن كانوا يريدون أخذ سورية بالموارنة فالموارنة كلّهم لا يزيدون على عشر أهل سورية ومعلوم أنَّ العُشر لا ينيف على التسعة الأعشار مهما بلغ من قيمة الوحدة المارونية. وإن كانوا يدّعون بإرث الصليبيين بعد سبعمائة سنة فللعرب حقّ بمرسيلية ومونبليه ونيم وطلوزة وجميع مقاطعات البروفانس وفرانش كونته وجبال الألب التي ملكوها نحوًا من مائتَي سنة وهذا كلّه من مملكة فرنسة نفسها عدا غيرها من الأقطار الأوربية. ثمَّ إنَّ الصليبيين لم يكونوا جميعًا إفرنسيسًا، بل الأمم الأوربية كلّها يومئذٍ زحفت على الإسلام كما هي زاحفة اليوم فلا تقدر فرنسة أن تدّعي تمثيل الجميع. وأمّا ما تدلي به فرنسة من حجّة المشروعات الاقتصادية التي لها في القطر الشامي، فلا نعلم لها شيئًا سوى شركة مرفأ بيروت وسكّة حديد بيروت ـ دمشق وسكّة دمشق ـ حلب وسكّة دمشق ـ المزيريب وليس بسكّتَي حديد أو ثلاث يصحّ استيلاء أمّة على أمّة. وأمّا غرام أهل سورية بفرنسة فلم نشعر به إلاّ إن كان من قبيل قول شاعرنا المتنبّي: ما لي أكتمُ حبًّا قد برى جسدي. وقد قلت للمسيو جوفنيل عند تلاقينا في باريز بكلّ صراحة: إنَّ أهل سورية لم يطلبوا في وقت من الأوقات مجيء الفرنسيس إلى سورية وإن وجد فيهم مَن طلبه فالمسلمون لم يوجد منهم واحد طالب لاحتلالكم والمسلمون هم ثلاثة أرباع سورية.

ثمَّ إنَّ الفرنسيس بعد الحرب العامّة وخلوّ الجوّ لهم احتلّوا سورية وفلسطين هم وحلفاءهم الإنكليز، أصدقاء العرب، بموجب صكّ مقاسمة حرورة فيما بينهم إذ كانوا من الجهة الأخرى حرّروا ضدّه الملك حسين بن علي.

كنت أذكر هذه القصّة مرّة للمسيو جيوليني، شيخ وزراء إيطالية، وقال لي: وقد

عملوا معنا كذلك. فإنَّهم كتبوا لإيطالية صكًّا بولاية أزمير وكتبوا خفية عنها صكًّا آخر لليونان بالولاية عينها وفي الآخر كان العمل بالصكّ الثاني!

ولكن بعد الاحتلال أدلوا للناس بمهزلة «الانتداب» وصاروا يعيدونها ويصقلونها وكلّما ناقشهم الإنسان في شيء قالوا له «انتداب».

وهذه المرّة أدلى المسيو جوفنيل أيضًا بحجّة الانتداب في الجلسة العلنية أمام لجنة الانتدابات فكتب المسيو ويليام مارتينن، من أعظم كتّاب السياسة في أوربة ومن المعروفين بالضلع إلى فرنسة، مقالة في «جورنال دو جنيف» المشهورة بالتعصّب لفرنسة صرّح فيها بسوء الحالة في سورية معدّ لا بكلام جوفنيل نفسه وكأنّما في فحواه أنَّ فرنسة انتدبت على سورية بقرار من جمعيّة الأمم، فقال: إنَّ المسيو جوفنيل قال ذلك سهوًا فإنَّ فرنسة أخذت هذا الانتداب من حلفائها.

إلاّ أنَّ جوفنيل جاءنا اليوم بآية جديدة.

كان الإنكليز يكرّرون دائمًا كلمة «طريق الهند» وكلّ يوم يضعون يدهم على بلد ويقولون هذا واقع على طريق الهند وهذا لازم لنا من أجل طريق الهند، فمصر على طريق الهند وقبرص على طريق الهند والسودان على طريق الهند والصومال على طريق الهند وعمان على طريق الهند والبحرين على طريق الهند والكويت على طريق الهند والبصرة على طريق الهند وعدن ولحج وحضرموت والمكلا كلّها على طريق الهند...إلخ حتّى ضرب المثل بطريق الهند. فيا ويل مَن يوجده الله على هذا الطريق فإنَّ إنكلترة لا تقبل فيه صرفًا ولا عدلاً وإذا بنا الآن بـ «طريق آنام».

فالمسيو جوفنيل ألقى خطبة في باريز بعد منصرفه من جنيف ذكر فيها من جملة الأسباب الموجبة للاستيلاء على سورية إنَّ طريق آسية... وإنَّها محطّة طيران من باريز إلى آنام ومحطّة طيران من دقار في السنيغال إلى أنام. فيجب ربط مستعمرات فرنسة في الهند الصينية بباريز وربط مستعمرات فرنسة في آسية بمستعمرات فرنسة في أفريقية وكلّ منهما لا يتمّ إلاّ بالبقاء في سورية.

انظر إلى هذا الهذيان الذي قلّما جاءت به حُمّى على مريض.

فلنقل إنَّ سورية مستعمرة لفرنسة ومطار وبحر عوال ومجرى سوابق. فالطيّارة لا بدَّ

لها حتّى تدرك آنام من المرور بالعراق وفارس والهند وصيام. فهل تقدر فرنسة أن تحوز هذه الممالك حتّى تمرّ طيّاراتها من فوقها؟ نظنّ الجواب نفيًا وتمرّ البرد الهوائية من هناك بحسب المعاهدات الدولية المتعلّقة بالطيران. وإذ كان لا مندوحة لفرنسة عن الطيران فوق ممالك غير ممالكها فلتكن سورية من الجملة وإن كان لا بدَّ للفرنسيس من الاستراحة في أرض يحسبونها أرضهم فلتنزل طيّاراتهم في جونيه مرفأ كسروان لعلّ الأهالي هناك يقولون لهم: جئتم أهلاً ووطئتم سهلاً.

أمّا السوريون فلا ينزلون عن بلادهم لفرنسة حتّى تنطاد منها الطيّارة إلى آنام... ويظهر أنَّ الفرنسيس يعتقدون أننا نحن نجهل ما هو جارٍ في آنام... فآنام تتأجّج فيها شعلة استقلال أشدّ ممّا في سورية. وقد يوجد في سورية نظرًا لاختلاف الطوائف فنام لا يكرهون وجود فرنسة أو نفوذ فرنسة فيها فأمّا تلك المملكة الهندية الصينية فإنَّ حركة الانفصال عن فرنسة فيها عامّة وإنّما هم يتهيّأون لها ويعدّون للأمر عدّة لا يُخشى بعدها الفشل وترى الفرنسيس جادّين في إرضائهم بتوسيع دائرة اشتراك الأهالي في الحكم ولم يكن هذا ليرضى الأناميين حتّى يتحرّروا تمامًا. كما أنه لن يرضى الألزاسيون الذين حركتهم تشتدّ يومًا فيومًا حتّى ينفصلوا عن فرنسة ويصيروا أحرارًا في بلادهم وتكون بلادهم فاصلاً بين المانية وفرنسة.

فإذا كان جوفنيل يريد سورية من أجل التونكين فليثبّت عرش آنام التونكين قبل أن ينقشه بسورية!!!

وقد أشار جوفنيل أمام لجنة الانتدابات إلى هذه النقطة لكنّه لم يتوسّع فيها وأراد أن يبيّن أنَّ سورية هي طريق أوربة إلى آسية فيقوله «أوربة» يكون استمال قلوب أعضاء اللجنة إلى قضيّة فرنسة.

وكذلك حاول في تلك الجلسة العلنية أن يحرّك حفائظ الأوربيين على الشرق بجُمل أخرى مثل قوله: «إنَّ السوريين يسيئون الظنّ في فرنسة وفي جمعيّة الأمم كلّها».

قال هذا على سبيل الوشاية ولكنّني والله سررت من قوله لأنه أفهم لجنة الانتدابات أنَّ السوريين ليسوا جلاميد حتّى يرضوا عن جمعيّة الأمم وهي ترى السيف والنار يعملان في بلادهم من سنة ولا تجسر أن تعطي قرارًا جازمًا.

وزاد في الطنبور نغمة أخرى بقوله: «إنَّ أهل آسية يظنّون أنَّ وفاق لوكارنو موجه ضدّهم» فلم يقتصر هنا في الوشاية على السوريين، بل اراد أن يشمل بها أهل آسية كلّهم. ومقصده بذلك إيجاد شقاق أوربي آسيوي لتنتصر جمعيّة الأمم لفرنسة في معركة سورية إذ كان أكثر هذه العصبة من عرق أوربي.

ولمّا اطّلعنا على ضبط الجلسة السرّية وجدنا من جملة أجوبته لأعضاء اللجنة الذين كانوا يسألونه عن أسباب الثورة جوابًا يقول فيه «إنَّهم ثاروا على فرنسة لأنها دولة مسيحية».

والخلاصة أنَّ المسيو جوفنيل أستاذ في فنّ الوشاية ولكن جميع الأبواب التي طرقها لا تقنع أحدًا من لجنة الانتدابات ولا من غيرها من أنَّ ثورة سورية نشأت عن شيء سوى ظلم الفرنسيس وقسوة أعمالهم وسوء إدارتهم.

لوزان　　　　　　　　　　　　　　　　شكيب أرسلان

***

الإسلام بين المادح والقادح

نشرت جريدة الدبا الفرنسوية الاستعمارية في عددها المؤرَّخ في ١٨ يوليو مقالة للمسيو كميل جوليان، من أعضاء الأكادمي الفرنسوية في علاقات فرنسة بالإسلام، جاء فيها:

«يقولون إنَّ العلاقات التي جدّت بين فرنسة والإسلام تشبه ما كان في أيام الصليبيين والصحيح أنَّ الأمر بعكس ذلك. لا بل الحال الحاضرة هي تكفير الماضي وإصلاح الخطيئات السابقة. ففرنسا تحترم الإسلام كديانة لها أسباب موجبة وعظيمة وقيمة إنسانية».

ونحن لا نرى في سياسة فرنسة ما يقوله المسيو كميل جوليان وإنَّما نقول إنَّ كلمات كهذه تستلّ السخائم من القلوب وتساعد على السلام والوئام. وهي على كلّ حال أفضل من كلام لويس برتران من الأكادمي الإفرنسية أيضًا. وصاحب الكتاب الشنيع الذي كتبه على الإسلام وعلى مصر فلم يدع نقيصة إلاّ ألصقها بالإسلام ولا فضيلة إلاّ نفاها عنه وجاء كتابه من أوله إلى آخره قدفًا وطعنًا بالإسلام والمسلمين.

أمّا كونه أنكر على الإسلام كلّ مزيّة مدنيّة وكلّ قيمة اجتماعية وذهب إلى المكابرة في آثار العرب الباهرة وصوّب رأي الإسبانيول وغيرهم من الإفرنج على إصلاء الإسلام الحروب الصليبية وطرد العرب من إسبانية فلا نقدر أن نوجّه المؤاخذة على إفرنسي يزعم ذلك على حين نقرأ كثيرًا من الكتابات العربية في جرائد ومجلاّت صادرة بمصر في هذه الأيام بقلم كتّاب من المسلمين كلّ الغرض الذي تحوم أقلامهم حوله هي تنقص مزايا العرب والإزراء بمدنيّتهم وإثبات قصورهم وضؤولة عملهم وعزو آرائهم العلمية إلى غيرهم وما أشبه ذلك من الاجتهادات التي لو انصرفت في البحث عن آثار سلفهم لكان أَوْلى بهم وأشرف لهم وأدنى إلى العلم والتاريخ. ولهذا خفَّ عندنا جرم لويس برتران وأمثاله من الأوربيين الذين انطوت جوانحهم على ضغن مزمن وهم إنَّما يعملون لإخلاء مدنيّة قومهم وتسويغ استيلاء الغرب على الشرق.

لوزان

شكيب أرسلان

اللباس الصحّي والغطاء الصحّي للرأس

هل الهيئة الاجتماعية سائرةٌ كلّها بحسب قواعد العلم؟

لسعادة العالِم الاجتماعي الكبير الأمير شكيب أرسلان

إنَّ الجمعيّة الطبّية المصرية قرّرت أنَّ الطربوش ليس بلباس صحّي، وأنَّ غطاء الرأس يجب أن يقي الجبهة من الأمام والنخاع من الوراء من تأثير الحرارة وعليه يجب لبس القبّعة الإفرنجية لأنها تقي فيما يظهر كلّ ذلك.

ويُستحبّ في حقّ القبّعة حينئذٍ أن تكون من فلّين تدور بها خرقة من القماش الأبيض أو أن تكون من الخُوص صيفًا ومن اللبّاد أو الصوف في شتاءً.

فلتسمح لنا الجمعيّة الطبّية الموقّرة أن نلقي عليها الأسئلة الآتية:

١ـ إنَّ القبّعات ليست كلّها ذات رفرف إلى الأمام وإلى الوراء كافٍ للوقاية من الشمس، بل إنَّ النوع الرسمي من البرانيط وهو الذي يلبسه الإفرنج في المحافل الرسمية ويتقبّع به رجال الحكومات هو شيء طويل جدًّا ذو رفرف لا يكاد يكون قيراطًا من قلّة عرضه فهل هذا الرفرف يُعدّ واقيًا أيضًا من حرارة الشمس مهما كان ضيّقًا أم ماذا؟ وإن قيل، بل يعتمد على البرانيط ذات الرفارف العريضة المتدلّية، أجبنا أنَّ هذه ليست بالقبّعات المقبولة في الاحتفالات والمقابلات الرسمية. والحال أننا متى لبسنا القبّعة كالإفرنج وجب أن نراعي بها إصلاح الإفرنج. فكيف نصنع؟ نقلّدهم في القبّعة ونقول لهم إلاّ أننا ننشز عليكم في النوع الرسمي منها؟ لا أظنّ ذلك ممكنًا لأننا ما دمنا مقلّدين فيجب أن نقلّد على طول كما يقال صادم ذلك الصحّة أم لا يصادمها.

٢ـ إن كان المقصود الوقاية من حرارة الشمس فماذا يقولون في العمامة البيضاء التي تمنع أشعّة الشمس من أن تخرق الغطاء إلى الرأس سواء بكثرة طيّاتها أو ببياض لونها؟ ألا يحسبون لهذه العمامة تأثيرًا في الوقاية من الشمس لمجرّد كونها عمامة، أم يعترف لها علم الطبّ بذلك؟ وهل الكوفية والعقال في السفر أقلّ تأثيرًا من البرنيطة في دفع حرارة الشمس؟

٣ـ لا ينبغي أن ينظر في لباس الرأس إلى قضيّة الحرارة فقط، بل هناك جهات أخرى

تجب مراعاتها فمن تلك الجهات أنَّ العمامة تقي الرأس من شدّة الصدمات وتخفّف عنه تأثير الضربات وهل في البرنيطة الإفرنجية جزء من الوقاية التي تكفلها العمامة من هذا القبيل؟ لا يلزمني أن أكون طبيبًا ولا جرّاحًا شهيرًا حتّى أعلم أنّ العمامة لا سيّما العمائم الكبيرة العجراء أوقى للرأس من الصدمات الكثيرة التي تعترضه كلّ يوم وأحفظ من القبّعة. وكذلك لا يلزمني علم ولا فنّ حتّى أحكم بأنَّ الرأس هو العضو الذي يجب الحرص على وقايته أكثر من غيره. فلماذا صرفت الجمعيّة الطبّية النظر عن هذا بأسره وحصرت التوجّه في نقطة واحدة ولا سيّما أنها مدقّقة كثيرًا؟

٤ ـ إذا أراد الإنسان أن يسند رأسه إلى حائط وراءه وكان لابسًا القبّعة لم يتيسّر له ذلك بسبب رفرفها إلاّ إذا رفعها عن رأسه، وعند ذلك تعرّض رأسه للهواء والبرد كما لا يخفى. ثمَّ هناك شيء آخر وهو أنه أسند رأسه حاسرًا إلى حائط أحسّ باحتكاك رأسه بجسم صلب ممّا يزعجه وقد يجرحه. بخلاف ما لو كان على رأسه طربوش ولا سيّما لو كان عليه عمامة فإنَّه يتّكئ إلى ما وراءه بكلّ سهولة ولا يحتاج إلى كشف رأسه، وأنه ليضطجع نائمًا بالطربوش وبالعمامة ولا يقدر على ذلك بالقبّعة.

٥ ـ هل يريد أطبّاؤنا أن يقنعونا بأنّ كلّ ما عليه الأمم المتمدينة أي الأوربية من الأوضاع والأزياء والاصطلاحات موافق للقواعد الصحّية؟ كلا. ولا الأوربيون يدّعون ذلك؟

فالأوربيون يشربون الخمر كما نشرب نحن الماء. والخمرة مضرّة لا سيّما مع الإفراط الذي يفرطونه في شربها وقد قال الدكتور ريشه الفرنساوي الشهير: ما أعجب إلاّ من الحكومات التي تمنع بيع السموم ولا تمنع بيع الخمور. وقد منعت أميركا الخمر ولكن خمسين دولة إفرنجية لم تمنعه. فكيف تؤلف بين المدنيّة المبنية على حفظ الصحّة وبين شرب الخمر؟ والأوربيون يلعبون بالقمار والقمار مضرّ من كلّ الوجوه. والأوربيون يعدّون من أسباب لذّة العيش رقص النساء مع الرجال وهذا في الطبقات العالية يستمرّ أحيانًا إلى ما بعد نصف الليل بساعات. فهل تَعُدّ الجمعيّة الطبّية هذا العمل موافقًا للصحّة: طول السهر وتهيّج العواطف في كثير من الأحيان. لا أظنّها تدعي ذلك فالمدنيّة التي تحاول الاقتداء بها لا نراها متقيّدة بحفظ الصحّة في أمور لا تُعدّ ولا تحصى. والضرر الذي يقع من الطربوش أقلّ جدًّا من الأضرار التي تشتمل عليها كثير من عادات الإفرنج.

ومتى كنّا نرى الإفرنج الذين هم أئمّة الحضارة اليوم يحافظون على عاداتهم ولو

أضرّت بهم أضرارًا جسيمة جاز لنا أن نحافظ على عاداتنا فيما ضرره لا يكاد يُذكَر أو فيما لا يضرّ أصلاً. وإنَّ بعض عاداتنا أصلح للصحّة وأحسن من عاداتهم ولا تراهم يقلعون عن عاداتهم ويأخذون ما في بابها عنّا.

إنَّنا نكره لبس البرنيطة لأننا لا نرى فيها مزيّة تزيدنا علمًا ولا فضلاً ولا قوّة ولا مالاً وإنَّما تزيدنا بُعدًا عن مشخّصاتنا القومية واندماجًا في غمار الأجانب عنّا، لا بل في غمار أعدائنا!

إنَّ الشرقي ينبغي له أن يبقى شرقيًّا وأن يحتفظ بعاداته وأذواقه وأزيائه وكلّ ما يبعده عن الذوبان في غيره إلاّ إذا تصادم ذلك مصلحة متحتّمة أو علمًا ثابتًا. ولسنا نرى شيئًا من هذا التصادم في هذه المسئلة.

وما نرى في مسألة القبّعة إلاّ تفرنجًا تهتف به نفوس مريضة تزعم «التجدّد» وهي في الحقيقة لا ترى «التجدّد» إلاّ متابعة الإفرنج في كلّ ما يفعلونه حقًّا كان أم باطلاً ضارًّا كان أم نافعًا ونحن نفهم بـ«التجدّد» أخذ العلوم والصناعات والاطّلاع على كلّ الحقائق الكونية ممّا لا يزال يتجدّد بتمادي الأيام.

ومتى وجب على الهيئة الاجتماعية أن تسير بحسب مقتضى العلم بدون أدنى اعتبار آخر وشاهدنا ذلك في الأمم التي هي أرقى منّا في سلّم الاجتماع وجب علينا أن نبادر إلى ما بادر إليه غيرنا بلا نزاع فأمّا أن يكون الإفرنج تعزّ عليهم عاداتهم وشنشناتهم ومشخّصاتهم القومية ومميّزاتهم الوطنية ولو كان العلم في عكسها ولو كانت الصحّة في خلافها ولو كان الاقتصاد في تركها وينبغي لنا نحن وحدنا أن لا تعزّ علينا أطوارنا وأزياؤنا وعاداتنا وأن نتهافت على تقليد غيرنا تقليد القردة فلسنا نرى في ذلك شيئًا من الوطنية ولا من العزّة القومية، بل نرى فيه إثارة من إنكار الوطن والتجرّد من العاطفة القومية وهذه علامات سيّئة جدًّا.

فيشي

شكيب أرسلان

أشعّة الشمس والقبّعة...

إنَّ الذي نسمعه من الأطبّاء إلى حدّ اليوم أنَّ الشمس هي المطهّر الأعظم الذي تتوكّأ عليه صحّة القرويين والبادية والفقراء الذين تعوزهم الوسائل الصحّية ولا تتوافر لهم شروط النظافة ومن هؤلاء أهل القرى والعزّب في برّ مصر.

وعلى هذا يكون الاجتهاد في الحيلولة بين رؤوس هؤلاء وأشعّة الشمس مخالفًا لِما سمعناه إلى الآن من فوائد التعرّض للشمس ويكون علم الطبّ يوصي بالشمس وينهي عنها في وقت واحد وفي موقع واحد.

وكذلك يوجد في أوربا جمعيّات اسمها جمعيّات الرؤوس المكفوفة فإنَّ المنتسبين إليها أن يسيروا في الشوارع ويسافروا بدون قبّعة حتّى يعوّدوا رؤوسهم التمرّس بالشمس ممّا يكون أحسن واقٍ من نفوذ أشعّتها. ونحن نراهم بأعيننا كلّ يوم. ولا شكّ في أنَّ هذا الجمعيّات الأوربية لم تأخذ بهذه العادة وتتمسّك بها بدون أن تستند فيها إلى قواعد طبّية وبدون وقوف على آراء الإخصّائيين في الموضوع. وفي أوربا أطبّاء كما في مصر.

فلهذا تحيّرنا في فتوى الجمعيّة الطبّية المصرية التي توصي بالوقاية من شيء أوصى غيرها بالتعرّض له. ولا نجد مع ذلك العمامة ولا الكوفية مع العقال مانعين من خطره، بل نجد البرنيطة هي الغطاء الوحيد الواقي من ضرر الشمس...

فالمرجو من صاحب الشورى أن يضمّ أسطري هذه إلى المقالة التي سبقت لي في هذا الموضوع وله الفضل.

شكيب أرسلان

* * *

الحكم الشرعي هو القصد في كلّ شيء

تحفة من تحف نابغة الزمان الأمير شكيب أرسلان

إلى أديب فلسطين الأخ الأستاذ السكاكيني، أمتع الله الأدب بطول بقائه

رأيتك في موضوع زواج الأستاذ الدكتور منصور فهمي قد ألممت بأمور كثيرة كلّ منها يكاد يكون علمًا قائمًا بذاته وفلسفة لا تستوعبها الأجلاد العديدة ووددت لو اتّسع لنا الوقت نوفي هذه المباحث الاجتماعية العالية حقّها لكن واأسفاه حال الجريض دون القريض وكلّ منّا مشغول من مصائب وطنه ونكبات قومه بما يثني عن الزواج والابتناء والبحث عمّا فيهما من الخيرات والأسواء.

إن دام هذا ولم تحدث له غير

لم نبكِ موتًا ولم نفرح بمولود

ولكن إن لم يصبها وابل فطل، فها أنا ذا على قدر ما يسمح الوقت أجاذبك الحبل وأؤيّد ما أراه حريًّا بالتأييد وأستجلب نظرك إلى ما لي فيه خير فأمّا الزواج في نفسه فقد يراه الإنسان قيدًا ثقيلاً وعبئًا يجدر به أن لا يتعرّض لحمله ومن كلّ الجهات أتاه لم يجد فيه إلاّ تعبًا وألمًا ومسؤولية وخوفًا وإن كانت فيه حلاوة فهي بما يحيط به، من شوائب الأكدار والأقدار كحلاوة الخرّوب الحطب فيه أكثر جدًّا من العسل. ومع هذا فإنّ السواد الأعظم من الناس يتأهّلون وأنّ السعداء في الحياة معظمهم من هذا النوع وأنه إن كان في هذه الحياة سرور فتسعون في المائة منه عند المتزوّجين دون المعازيب لهذا يحار الإنسان في تعليل إجماع الناس تقريبًا على إتيان هذا الأمر الشاقّ مع تسليمهم بمشقّته وما يحيط به من عناء وتبعة، ولك أن تقول يحار الإنسان في إجماع الناس على الاعتراف ببلاء، هم في الوقت نفسه يحملون أنفسهم عليه بنفوس طيّبة أشبه بدودة القزّ التي تجتهد الاجتهاد كلّه في غزل بيت تموت هي في وسطه. لا جرم يا أخي أنّ هذا سرّ من أسرار الطبيعة وأنه غالب على الناس بحكم الغريزة لا بحكم العقل. إذ لو تأمّل العاقل في قضيّة الزواج وكيف أنّ المرء بينما هو حرّ مفلت من قيود الأهل والأولاد وخالص من كلّ عبء سوى عبء نفسه التي بين جنبيه إذا به جاء فأثقل نفسه بأوقار باهظة وهموم مذيبة، ولم تكفه نفسه التي هي وحدها فيها

البركة من جهة الهمّ والغمّ حتّى أضاف إليها أنفسًا عديدة من شكلها. نعم، إذا تأمّل العاقل في ذلك وجده جنونًا. ولكنّه جنون أجمع الخلق عليه وأوصى به الأنبياء والأصفياء وأشار به الحكماء والفلاسفة ولم يشذ منهم إلاّ القليل.

وسمعت من فم أستاذنا الإمام الشيخ محمَّد عبده، أكرم الله مثواه، نقلاً من أحد كبار الصوفية في تعريف الزواج هذه الجملة الغريبة: الزواج جنون إلهي.

ثمَّ هو جنون ولكنّه جنون عزّزه الله في حضارة مخلوقاته جميعًا بمقتضى وجوب التناسل واستيفاء النوع فالحياة مبنيّة على حبّ البقاء. وكان الإمام، رحمه الله، يقول: كأنَّ الإنسان من حبّه بالبقاء وتعذّر ذلك عليه لم يرد فراق هذه الدنيا قبل أن يترك فيها بضعة منه تنوب عنه وتحيي اسمه وتكمل بدايته ومن أجل هذا قالوا: الولد تكملة أبيه.

ثمَّ إنَّ آلام الحياة بجانبها آمال. والخوف بحذائه أمن. والنصب بعده راحة. وليس الزواج كلّه مصائب. ويكف المرء لذّة وقرّة عين أن يكون له أبناء نجباء.

مِنَنُ الإله على العبادِ كثيرةٌ

وأجلّهنَّ نجابةُ الأولادِ

وكم ولد بنى بيوتًا لا عماد لها بفضل نجابته. وكم والد ذاق الراحة بعد العناء، والسعادة بعد الشقاء، بعد أن شبّ أولاده وأفلحوا. وكم قليل بنفسه ذليل بوحدته رزقه الله بنين أشدّاء ونبتت على كعبه مقصبة رجال فبدل بذلته عزًّا وبمخافته أمنًا. ولك أن تقول في الشعوب ما تقوله في الأفراد. فالأمم التي يكثر عددها، ويزداد نسلها هي آمن الأمم استقبالاً ولهذا تجد الألمان وهم المغلوبون في الحرب الكبرى أحسن مستقبلاً في نظر علماء الاجتماع من الفرنسيس الذين كانوا من الفئة الغالية. وكلّ أمّة تجتهد الآن في زيادة نسلها علمًا بأنَّ البقاء في هذه الأرض وعدمه متوقّفان على النسل وعدمه. وحبّ البقاء فطري في البشر. قال أبو العلاء:

وخوفَ الردى آوى إلى الكهف أهلُه

وعلّم نوحًا وابنه عملَ السفن

ومن هنا تعلم أنَّ أحدث قاعدة اجتماعية أخذ بها فلاسفة العصر الحاضر وعضت عليها أوربة بالنواجذ هي سنّة الرسول (ﷺ) القائل: تزاوجوا وتناسلوا حتّى أباهي بكم الأمم يوم القيامة.

نعم، إنَّ السرّ الأعظم في الزواج هو حفظ النوع وبقاء النسل ولهذا لا أجد في هذا المعنى كلامًا أحلى من كلامك عندما تقول: إذا تزوّج هذا الزواج الروحي ثمَّ رزق ولدًا فما ينقص من حياته يعوّضه بحياة ولده، وما فاته من أمل في نفسه تداركه في ولده. فإذا أشرق وجه ولده فكأنَّ وجهه هو أشرق. وإذا أقبل عليه ولده وعيناه تلمعان فكأنَّ عينيه هو تلمعان. وإذا رأى ولده يضحك ويلعب فكأنه هو يضحك ويلعب. وإذا أدرك ولده سنّ الشباب فصار ذا شجًى وترنّم فكأنَّما هو الذي يشجي ويترنّم. وإذا سما ولده إلى المدارك العالية فكأنَّما هو الذي يسمو إليها وإنَّ أجمل عاطفة في الرجل لعاطفة الأبوّة...إلخ.

هذا تفسير أنَّ الولد تكملة أبيه كما مرَّ وأنَّ الإنسان ليذهب من هذه الدنيا وفي نفسه أشياء منها وحسرات عليها فيرى في ولده العوض الوحيد الذي يتدارك ما فاته هو فكأنه لم يفته. والعاطفة الأبوية هي أجمل عاطفة في الرجل، وعاطفة الأمومة هي أشرف عاطفة في المرأة هذا لأجل أنها أصدق عاطفة في الإنسان. وما أظنّ لذّة من لذّات الحياة تعادل لذّة رؤية الأب أولاده حوله وما هم إلاّ كما قال الشاعر:

وإنَّـمـا أولادنـا بينـنـا

أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبّت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني من الغمض

وما أحسن قول المرحوم اسكندر العازار من المعاصرين وهو يصف لذّة الزاوج:

وحواليك من بنيك عيون

لا عيون المهى ولا الغزلان

ولهم في حديثهم نغمات

يا حنيني لنغمة الكروان

أمّا ما ذكرت من الاعتراض على الذين لا يعرفون السرور في حياتهم "ولا يستقبلون الأيام إلاّ بوجوه مقطبة وصدور منقبضة وأخلاق ضيّقة الذين لا يلتذّون بشيء، بل دأبهم الانتقاد والاعتراض والاشمئزاز والتشكّي من غير علّة فيزعجون أنفسهم ويزعجون الناس... إلخ".

فيا أخي إنَّ هذا الخلف لمن الأمراض التي يبتلي بها الإنسان ثمَّ يبتلي المجتمع بسببها. والإفرنج يسمّونه «التشاؤم» فكلّ شيء في عين المبتلي به أسود. ومن أحسن ما قرأت في هذا المقام كتاب لطبيب أميركي اسمه «ماردن» يبيّن فيه مضار الانقباض والتشاؤم وما في التقطيب وكثرة النعي وشدّة السخط على الدهر من الضرر بالصحّة وبالنشاط وبانتظام الأعمال وسداد الآراء ويوصي كثيرًا بالتفاول وقلب الأمور على جهة الخير وتجنّب القنوط، وبالتماس الوجوه المفرحة بحيث إذا أخذ المرء نفسه بهذه العادة انقلبت فيه سجيّة وعاش سعيدًا فهانت عليه الأرزاء إذا وقعت وما زلت أحدّث نفسي بنقل هذا الكتاب إلى العربية لكثرة ما فيه من الوصايا المعقولة والآراء المقبولة مع الأسلوب السهل العذب الخالي من تقعّر الأطبّاء وتنطّع المتزيّدين بالعلم والحكمة. ولعمري إنَّ الحثّ على التفاؤل من الواجب على معلّمي الناشئة لأنَّ الانبساط والسرور لَمِمّا يسهّل مشكلات المعيشة ويهدي خطى السائر في هذه الدنيا روح النشاط والحركة ويرغّب في الزواج والنسل. ومن النكات التي سمعتها في حياتي أني كنت مرّة ألتمس النزهة في قرية «عرنة» وهي أعلى قرية في السفح الشرقي من جبل الشيخ ففي المساء اجتمع عندي أهل القرية جميعًا، منهم الذي هو أبو علم الدين قاسم وأبو نصر الدين محمَّد وأبو محمود سلمان وأبو محمَّد شاهين ومنهم الذي هو أبو عساف جرجس وأبو ناصيف الياس وأبو قبلان أسعد وهلمّ جرّا. وأُخذت معهم بالحديث في أمور معيشتهم والسؤال عن أحوال زرعهم وضرعهم متلذّذًا بسذاجة أجوبتهم وقرب مناحيهم إلى الطبيعة ومتعجّبًا من اندماج المنطق الوافر في ذلك القالب من البساطة فمن جملة ما أوصيتهم به أن يتزوّجوا ويكثروا من الولد لأنَّ أراضيهم واسعة واحتياجاتهم البيتية قليلة ومناخهم باعث على الصحّة والنشاط فإذا كثرت أولادهم كثر العمل في أراضيهم فازدادت ثروتهم ورفاهيّتهم. وكان البيت الذي كنّا فيه مكتظًّا بهم وهم جلوس صفوفًا، الصفّ وراء الآخر، فهتف واحد منهم كان جالسًا في الزاوية فقال: نعم، كلّ هذا صحيح ونحبّ أن نخلّف أولادًا ولكن ظلم الحكومة... فأضحكتني هذه النكتة وأضحكت الجمهور. وهي مع سذاجتها كلّها منطق. ومقصد ذلك الفلاّح المسكين أنّ الزواج والتناسل ممّا ينبغي له النشأة والانبساط. وأنى لهم هذه النشأة وهذا الانبساط والجندرمة تناديهم وتراوحهم بصنوف المظالم والمغارم. لا جرم أنَّ الظلم والقهر ممّا تذهب معه دواعي السرور فيقلّ الارتياح إلى الزواج. على أنَّ السرور يجب أن لا يتعدّى الحدود التي تصل به إلى البطر ولهذا كرهت الشرائع السماوية الإفراط في الفرح كما كرهت الإفراط في كلّ شيء.

والإنسان كلّما كان سريع الهزّة طروبًا كان أعرق في الإنسانية.

وما راعهم إلاّ شمائل ماجد
طروب ألا إنَّ الكريم طروب

لكنّه إذا أفرط في الاهتزاز والفرح عُدَّ ذلك من الخفّة وخسر سجيّة الرصانة وقد يصيبه ما يصيب الحيوانات من الأرن فيصير أقرب إلى الحيوانية منه إلى الإنسانية.

ولهذا كانت أوامر القرآن الكريم هي القصد. قال الله تعالى: لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبّ كل مختال فخور.

لا ينهي القرآن عن الفرح بمعنى السرور والتماس المشروع من طيّبات الحياة فهو يأمر به في مواضع كثيرة، ويحثّ على أخذ الإنسان نصيبه من هذه الدنيا إنَّما ينهي عن الغرق في لجّة الدنيا وينهي عن الإفراط والإسراف: وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. وأمّا الذين من أتباع القرآن حسبوا العلم هو الانسحاب من الدنيا والزهد فيها وفسّروا الكتب المنزلة بهذا الشكل فقد أساءوا التفسير وذهبوا في معنى كون الدنيا دار قلقة مذهبًا ليس من روح الكتب المنزلة التي عرفت الإنسان إنسانًا ولم تعرفه جمادًا ولا حمّلته ما لا طاقة له به. ربّنا لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [...].

وأمّا أنَّ الشيخ تقيّ الدين السروجي، نوّر الله ضريحه، كان يكره مكانًا تكون فيه امرأة، ولا يأكل شواء قطعَهُ النساء بأيديهنَّ...إلخ فهذا لا يلتئم مع الشرع الشريف ولا مع سنّة مَن قال (ﷺ): حبّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيّب وقرّة عيني في الصلاة. وقد كان صاحب هذا القول عليه الصلاة والسلام أزهد في الدنيا بمعنى الزهد الحقيقي من الشيخ تقيّ الدين السروجي ولكنّه لم يكن مزاجه مريضًا، بل كانت الإنسانية فيه على أكمل وجه فأباح للناس التمتّع بالنساء بحسب مقتضى الطبيعة البشرية السليمة، لكنّه أباح بصورة الحلال حتّى لا تختلط الأنساب ولا تفسد الأخلاق ولا يصبح الناس كالبهائم ينزو بعضهم على بعض بمجرّد الشهوة.

فإن كان الاستمتاع بالنساء وبالطيّبات من الرزق مع مراعاة الاعتدال والتقيّد بالحلال سنّة سنّها صاحبها منذ ١٣٠٠ سنة، وليست من أوضاع هذا العصر، فإنَّ العقل ليس فيه قديم ومحدث، بل هو العقل ميزان كلّ شيء عند الأوّلين كما عند الآخرين.

ولعلّنا لو سألنا الأطبّاء والحكماء والفلاسفة العصريين حتّى المادّيين منهم لم يستطيعوا أن يزيدوا شيئًا على تلك الوصايا القديمة، ولا أجاز أحدهم الرفث إلى النساء ولا التلذّذ بالطيّبات إلاّ على الوجه الذي يمنع الضرر الاجتماعي والصحّي أي الحلال والاعتدال.

وأمّا اعتراضك يا أخي على ابن الوردي في قوله:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل

وقل الفصل وجانب من هزل

فابن الوردي هنا واعظ كما لا يخفى والواعظ يبالغ في الوعظ وكأنه يقرع المبالغة بالمبالغة. وابن الوردي لا يجهل أنَّ الإنسان إنسان قد يغنّي وقد يتغزّل وقد يمازح ولكنّه يريد أن لا يكون ذلك خلقًا ثابتًا وأدبًا مستمرًا. فما قولك في رجل ـ لا سيّما إذا كان بلغ سنّ الاكتهال أو الشيخوخة ـ لا يزال يغنّي ويغازل النساء ويداعب ويهزل لا جُرم أنَّ ذلك مستهجن حتّى في باريز وحتّى في أنقرة... التي هي من طراز أحدث من طراز باريز... وأنت ترى أنَّ ابن الوردي فسرّ بيته الأول ببيته الثاني.

ودعْ اللهو لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أَفَل

أي هذه أمور قد تُغتفَر للشبّان لكنّها قبيحة بالشيوخ أفلا ترى ذلك حقًّا؟

وأمّا قوله: واترك الغادة لا تحفل بها. فليس معناه أن يتركها فلا يتزوّج بها، بل أن لا يغازل الغيد ويتعشّقهنَّ مستهترًا وهو قد تجاوز سنّ الصبا. أراك تنحت أثلة رجال الدين من المسيحيين على ترديهم ثياب الحزن وانصرافهم إلى العبوسة ومنع الطيّبات ونقول للشرقيين منهم ليقتدوا بأمثالهم في أوربة. لكن يا أخي سواء كان القسّيس أو المطران في شرق أو غرب، كيف تراه وهو حافل بالغادة... متيّم إثرها؟ هل يبقى شيء بعد ذلك من وقاره الروحي؟ وكيف تسمع بعد ذلك مواعظه؟

نعم، إنَّ الذين يريدون الزواج منهم لا مانع أن يحفلوا بنسائهم، وتراهم غير مقصّرين في ذلك. قيل إنَّ مطرانًا كان يطوف على رعيّته فبلغ إحدى القرى ونزل في بيت القسّيس الذي فيها بحسب العادة. ففي المساء جلس الخوري وبجانبه الخورية وبجانبهما أولادهما وكانوا بضعة عشر شابًّا وشابّة فأخذ المطران يحدّق فيهم بعد أن عرف أنهم كلّهم أولاد الخوري. فقال له الخوري: لا شكّ أنك تفكّر الآن أنَّ الخوري لم يشتغل إلاّ بالخورية في

هذا الزمان. فضحك المطران، إلاّ أنه لم يوبّخه على إفراطه بالاحتفال بالخورية ولا يحقّ له أن يوبّخه.

أمّا في الإسلام فالاحتفال بالغادة بالحلال هو شأن أكثر شيوخنا وعلمائنا تجد الواحد يبلغ الثمانين والتسعين ويتأهّل وقد يكون له الولد.

تلاقيت مع أخي شوقي بك بهذه الأيام الأخيرة في باريز فانساق معنا الحديث وهو شجون إلى حبّ هؤلاء المشايخ للزواج فقال لي: يا أخي لم نفهم هذا السرّ في كون علماء الأزهر يبلغ الواحد منهم التسعين وهو لا يخرج من بيته ولا يعرف الرياضة البدنية وتجد صحّته طيّبة وتراه يتزوّج ويلد. فقلت له: سرّ ذلك راحة البال والنوم باكرًا وشدّة اليقين واتّباع الدين. وروى لي الأستاذ الأكبر سيِّدي أحمد الشريف السنّوسي أنَّ الوليّ الكبير سيِّدي أحمد بن إدريس دفين صبيًّا خلّف ٦٠ طفلاً بعد أن بلغ الثمانين. وقرأت في أحد مؤلّفات الفرنسيس عن الطرق الصوفية الإسلامية أنَّ رجالها لا يقصّرون في التقوى والزهادة عن قدّيسي النصرانية إلاّ أنهم لا يصبرون عن الزواج. والسبب في ذلك أنَّ الزاهد أو العالِم المسلم يجد الزواج من جملة العبادة ويتذكّر النهي الوارد في الشرع عن الرهبانية والتبتّل ولذلك تجد المسلمين يزداد عددهم برغم جميع ما يحيط بهم من الأسباب التي توجب تناقص عددهم. ولو كان طرز معيشتهم في النظافة والتحوّطات الصحّية كطرز معيشة الأوربيين وكانوا من القوّة والمنعة على ما هي عليه أمم الإفرنجة لكانوا أضعاف ما هم الآن، ولكن المسلمين إلاّ ما ندر فاقدون للأسباب الصحّية أو مهملوها جهلاً وجمودًا فاقدون لأسباب الفرح والنشاط بتكالب الغريب المعتدي على بلادهم. ولا تنسَ ظلم الحكومة... الذي قال عنه فلاح عرنة لله درّه!

لوزان

شكيب أرسلان

***

تصريحات ويزمان
مسلمون يريدون أن يصيروا يهوذا؟
لكاتب العرب ونابغة العصر الأمير شكيب أرسلان

أرسلت جريدة "الجورنال" الباريزية مراسلاً اسمه "كسيل" إلى فلسطين ينشر مآثر الصهيونية ويشيد بأعمال اليهود العمرانية ويصوّر العرب بالصورة التي يحاول الصهيونيون أن يمثلوهم بها في نظر الأوربيين. فنشر المراسل المذكور عدّة مقالات حال اشتغالنا بمسئلة سورية وبمفاوضات الصلح الأخيرة دون ترجمتها أو الإشارة إلى بعض ما جاء فيها من الأضاليل. على أنَّ الرسالة الواردة من كسيل هذا في عدد ٢٨ أغسطس من الجورنال لا يجوز أن تمرّ سكوتًا عنها فقد قال ويزمان، زعيم الصهيونية، للكاتب المذكور:

"نحن خمسة عشر مليون يهودي في أنحاء العالم. فكم من أمّة ليس لها عددنا تتمتّع بأرضها يلعب دورًا في التاريخ. أفلا ترى عجيبًا أنَّ أرناؤطيًا وأحدًا من أهالي الجبل الأسود ينظر إلى الأمور العامّة بالنظر الألباني أو الجبلي وأنَّ اليهودي يبقى محرومًا هذا الحقّ؟".

فأجاوب المسيو ويزمان:

إذا كان الله حكم على اليهود بأن يتشتّتوا أيدي سبأ ولا تكون لهم مملكة، أفيكون العرب مسؤولين عن ذلك؟ ويجب أن يعاد شمل هذه الأمّة على ظهر العرب ومن كيس العرب؟

إنَّ أربعة عشر مليونًا ونصف مليون من هذا الشعب اليهودي هم في أوربة أميركا. إذًا قد كان الأَوْلى بالأوربيين الذين هم في ديارهم أن يجمعوا شملهم إلى مملكة واحدة وأن يعيدوا عليهم حقّهم الضائع من كيسهم لا من كيس غيرهم لا أن تقطعهم إنكلترة ملك العرب الذي يتصرّف به العرب من ألف وثلاثمائة سنة.

ثمَّ يقول ويزمان:

"تأمّل في التأثير الذي كان لأمّتنا على الثقافة الانسانية. أفلا ترى أنَّ هذه الصبغة الروحية يجب حفظها؟ لقد كانت الديانة من قبل هي المؤثّرة أمّا بعد اليوم فسيكون الدور لفلسطين يهودية".

نحن نقدّر أنَّ نطمئن خاطر ويزمان أنه مهما كان من نفاسة هذه الصبغة الشريفة المراد حفظها... فلن يوجب ذلك تحويل فلسطين مملكة يهودية. ولن تصير فلسطين يهودية إلاّ بعد أن ينقرض السبعون مليون عربي الذين على وجه الأرض فليرتع الزعيم الصهيوني على ظلمه.

ثمَّ قال ويزمان:

«جاء الزمن الذي تصير فيه الأمّة اليهودية مسؤولة ومضى وقت الظلم والغدر فنحن نطالب بالحساب ونريد الموازنة بين حسناتنا وسيّئاتنا. وكيف كان الأمر فقد قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ونظمت لنا عهود دولية بأن تكون فلسطين وطنًا قوميًا. فيجب أن نكون أهلاً للثقة وأنا واثق أننا سنكون لها أهلاً».

يا ويزمان: إنَّ الدولة التي تزعم أنها أقطعتك فلسطين وطنًا قوميًّا إنَّما أقطعتك لفظة، لا بل أقطعتك لفظة مبهمة. وهي إلى هذه الساعة تفسّرها بما يخالف آمالك في المملكة اليهودية. ومهما يكن من تفسيرها يا ويزمان فلا تلك الدولة ولا أنت تقدر أن تبتلع العرب... إنَّ العرب الذين في العالم لا يقدر أن يبتلعهم أحد والمستقبل هو لهم لأنَّ المستقبل هو للأمم الكثيرة العدد. والعرب سبعون مليونًا متّصلون بعضهم ببعض من السوس الأقصى إلى الأهواز ومن حلب إلى الخرطوم، ووراء العرب مائتان وخمسون مليون مسلم من أمم أخرى ينتصرون للعرب. ولا نظنّ ١٥ مليون يهودي مبعثرين في كلّ ما عمّر ربّنا يقدرون أن يخاصموا هذه الكتلة الإسلامية المتّصلة المتماسكة. كما أننا لا نظنّ أنَّ النصرانية ـ برضى إنكلترة ـ سترضى بتحوّل فلسطين مملكة يهودية. كلا، يا يزمان، هذه أضغاث أحلام. إنَّ كره اليهود في أوربة أشدّ جدًّا ممّا يعلم أهل الشرق. وما دمت قد تعرّضت لهذه الدّعاوى العريضة فلأقصنَّ على الشرقيين أحسن القصص عن الجمعيّات المؤلّفة في أوربة لا سيّما في ألمانية لأجل إسقاطكم وإزالة جرثومتكم ولأرينَّك لمحًا باصرًا.

ثمَّ يقول ويزمان:

«عاملان عظيمان اتّفقا في قضيّتنا ولا بدَّ أن يعطياها النصر، أحدهما حسّي أو ديني والآخر اقتصادي، فالأول صادر عن هذا اليقين اليهودي بمصاير أمور اليهود وحبّ هذه الأمّة لفلسطين والثاني صادر عن الفقر الذي أحلّه باليهود والاضطّهاد الواقع عليهم في أوربة الشرقية».

تحبّون فلسطين وتحنّون إليها وما أحد منعكم من الحبّ والحنين ولا من البكاء عند أسفل جدار الهيكل. ولكن لا يليق بالباكي الذليل أن يجيء فاتحًا عزيزًا وأن ينقلب من البكاء إلى الإبكاء. كلا، يا ويزمان، لشدّ ما احتقرتم شأن العرب وما اغتررتم بالأماني وظننتم أنتم وبعض الإنكليز معكم أنها أمّة لن تقوم لها قائمة. فسترون أنكم لا تقدرون على هضم هذه الأكلة التي تطبخونها، فالعرب لم يموتوا ولن يتخلّوا لكم عن وطن عربي بحت هم سادته من ثلاثة عشر قرنًا لأجل عاملكم الديني أو الاقتصادي. فالملك عقيم لا يعرف عاملاً ولا شفيعًا والبلاد لأهلها لا للطارئ عليها. ولا يغرّكم بعض الأسافل الذين يزيّنون لكم أعمالكم فهؤلاء ليسوا بشيء في فلسطين وعند مجيء الحزّة لا ترون منهم أحدًا.

ثمَّ أطرى ويزمان رجولية شبّان المستعمرات اليهودية وأثر الصهيونية في الأخلاق والأبدان، وقال:

"ليس هذا كلّ شيء. فأمام الصهيونية مفاز غير هذه...".

وما هي؟

فسّر ويزمان، فقال:

أمس جاءني أحد مشايخ البدو من جوار طبرية وهو زعيم على ٦٠٠ رجل فقال لي: قد حُملنا قسرًا على الإسلام منذ قرون لكنّنا نعرف أنَّ أصلنا يهودي ونريد أن نعود يهودًا. فقلت له إنَّنا لا نقدر أن نعاونه بالمال لأنه بذلك يتعرّض للسوء من جهة جيرانه. فأجابني: فكّرنا في هذا كلّه وما عقدنا العزيمة إلاّ بعد الرويّة.

وكم من هؤلاء البوادي من هؤلاء الفلاّحين مَن أصلهم يهودي. ومَن يدري ماذا يكون من أمرهم لا جرم أنه سيكون تجدّد سامي عظيم.

ولقد كنّا دائمًا مِعبر أمنٍ من أمّةٍ إلى أخرى. وهذا المعبر نبغي أن نشيّده هذه المرّة في محلّ مقرّر فنكون جسرًا بين الشرق والغرب". إلى آخر ما حدّث به من أحلامه الذهبية.

وأنا أقول إنَّ نحس الإسلام قد انتهى وذلك أنَّ المصيبة إذا بلغت أقصاها أقلعت وإذا تمَّ شيء بدا نقصه.

سمعنا أنَّ الكردينال لافيجري يريد أن ينصّر أهل الجزائر. وسمعنا أنَّ زويمر وجماعته من البروتستانت عندهم جمعيّات لتنصير المسلمين خاصّة بذلك. وسمعنا أنَّ جمعيّات

بروتستانتية نصّرت أناسًا من الشحّاذين والطغام في الجاوى. وسمعنا أنَّ الروس في زمان القيصرية أجبروا كثيرًا من المسلمين على التنصُّر وأنهم رجعوا إلى الإسلام بعد انهيار الحكم القيصري.

أمَّا مسلمون يصيرون يهودًا، لا لا. هذه علامة انتهاء النحس. فالذلّ لا يبلغ بالإسلام أقصى من هذا!

كنت قرأت في الجرائد منذ سنتين أنَّ قبيلة عربية بجوار صفد طلبت الدخول في الدين اليهودي وسئل عن أسباب ذلك فقيل إنَّ أحد وجوه المسلمين اعتدى عليهم في أراضيهم وأنهم عجزوا عنه في المحاكم فأرادوا الانتقام بالتهوّد أو أرادوا تهديد المسلمين بذلك حتّى يردعوا ذلك الظالم عنهم.

ويجوز أن يكون أحد البوادي النازلين بجوار طبرية قال هذا لويزمان طمعًا في دريهمات يأخذها.

ومثل هذا وأمثاله ممَّن يصبأ عن دينه لأجل المال هم أَوْلى باليهود من المسلمين وغير مأسوف عليهم وشبيه الشيء منجذب إليه.

بقيت هناك حقيقة مُرّة نريد أن نصرّح بها لإخواننا الفلسطينيين ونرجوهم أن يتقبّلوها منّا بدون اشمئزاز، أننا حضرنا الجلسة الأخيرة التي انعقدت في جنيف في مارس الماضي لأجل المذاكرة في إدارة فلسطين وسمعنا إفادات المندوب الإنكليزي وفهمنا منها كيف أنَّ اختلاف أعيان فلسطين ـ لأنَّ الأعيان هم الذين اختلفوا ـ ومنافساتهم ومزاحماتهم على العضوية والرئاسة وما أشبه ذلك قد قوّت آمال الإنكليز واليهود كثيرًا على إنفاذ البرنامج الصهيوني وأضرّت جدًّا بالعرب ويا للأسف. كما أنَّ نغمة ويزمان هذه المرّة تشعر أيضًا بنشاط وأمل لا منشأ لهما سوى اختلاف الفلسطينيين. وخلاصة القول إنَّ بقاء فلسطين بلادًا عربية أو تحوّلها يهودية وطرد العرب أخيرًا منها ذلك منوط بالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب

وبهذا بلاغ لقوم يعقلون.

لوزان

شكيب أرسلان

الجبل الذي على ظهر فرنسة

لذلك الكاتب الذي ينمّ عليه قلمه

توزّع نظارة المالية الفرنسوية فذلكة الديون التي على فرنسة من كلّ نوع وقد أفادت التلغرافات الواردة اليوم من باريز أنه تبيّن بموجب هذا التقرير كون فرنسة مديونة بما يأتي: مجموع الدين بأسره خمسمائة وستّة مليارات (٥٠٦) ومائتان وأربعة وثلاثون مليونًا ومائتان وسبعة وعشرون ألف فرنك.

منه دين داخلي مائتان وثمانون مليارًا وخمسمائة وستّة وأربعون مليونًا وثلثمائة وتسعة وستّون ألف فرنك (٢٨٦,٥٤٦,٣٦٩,٠٠٠).

ومنه دَينٌ خارجي ـ على معدّل الليرة الإفرنسية ١٥٠ فرنكًا ـ يبلغ مائتين وتسعة عشر مليارًا وستّمائة وسبعة وثمانين مليونًا وثمانمائة وثمانية وخمسين ألف فرنك (٢١٩,٦٨٧,٨٥٨,٠٠٠).

وفائض مجموع الدين واحد وعشرون مليارًا وخمسمائة وخمسة وثلاثون مليونًا ومائة وخمسة وستّون ألف فرنك (٢١,٥٣٥,١٦٥,٠٠٠).

أي أكثر من نصف دخل الدولة الفرنساوية عن سنة ١٩٢٧. انتهى.

وبرغم هذه الحالة المالية التي توجب القلق وبرغم أنه لا يوجد في الدنيا دولة عليها ديون تعادل نصف ثروتها العامّة ودفع فرائض تزيد على نصف دخلها السنوي وهي تختار الحرب على السلام وتحارب لمجرّد الاعتداء على الأنام فإنّ فرنسة تبذل كلّ شهر ٤٠ مليونًا لتقتل أهل سورية في ديارهم وتخرّب وترضي فئة قليلة من سكّان سواحل سورية يقرّون للفرنسيس بحقّ الحركة الوطنية السورية يحسبه إلى درجة يمسّ كرامة فرنسة.

قهوة الجامع الباريزي

وراء الجامع الكبير الجديد في باريز حمّام بديع منقطع النظير على النمط الشرقي لا الغربي. وبلصق الحمّام قهوة عربية على الطرز المعماري العربي الأنيق. ويأتي إلى هناك

الشرقيون وكثير من الأوربيين الذين يريدون معرفة الذوق العربي في البناء والمفرش والأكل والشرب ويجدون في هذا المقهى القهوة العربية والشاي بأنواعه والنارجيلة ويحرق أمامهم البخّور وعود الطيب وأحيانًا يضربون لهم ببعض معازف وينشدون عليها شعرًا أو أمواليًا بألحان مطربة ولم أحسّ أنَّ في هذه القهوة مسكرًا ولا أصدّق ذلك ولا شاهدت فيها رقصًا إذ ليس فيها مكان للرقص، وأمّا المطعم الذي فيها فمفروش بالسجّادات والزرابي والطنافس فيجلس الناس على هذه ويتّكئون إلى المساند وتوضع أمامهم صدور النحاس على حسب اصطلاحنا قبلاً ويؤتى لهم بمآكل عربية مغربية أشهرها الكسكس والشكشوكة وغيرها ممّا له طهاة هناك يتقنون طبخه ولا تنسَ الحلويات العربية فعندك هناك أشهاها والخلاصة أنَّ ما نقل من وجوه المسكرات وإحياء الليالي الراقصة هناك فلم نشاهد منه شيئًا ولا تنعتقده صحيحًا

شكيب أرسلان

***

من بحر الظلمات:
جزيرة سائرة في البحر
لعطوفة كاتب الشرق وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان

نحن على متن باخرة طولها ٣٥٠ مترًا وعرضها ٣٤ مترًا وعلوّها ٣٥ مترًا ومحمولها ٥٣ ألف طنّ إلاّ ثلثمائة. فهي ثاني باخرة في الدنيا من جهة الجسامة لا تفوقها إلاّ باخرة أخرى اسمها "الماجستيك" محمولها ٥٦ ألف طنّ وكلتاهما من البواخر الإنكليزية.

وقد كانت الباخرة التي نحن عليها الآن للألمان ورأيتها بعينيّ رأسي في مرسى هامبورغ سنة ١٩١٧ وصعدت إليها للفرجة وها أناذا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ أركبها وهي إنكليزية وأخوض بها بحر الظلمات قاصدًا أميركة. فسبحان مقلّب الأحوال. ومديل بعضها من بعض.

وكان اسم هذه الباخرة وهي ألمانية "إمبراطور" فلمّا اشتراها الإنكليز بعد الحرب جعلوا اسمها "برينغاريا" فنحن اليوم من ركّاب الباخرة "برينغاريا".

وركّاب هذه الباخرة ٣٠٠ في الدرجة الأولى و٣٠٠ في الدرجة الثانية و٤٠٠ في الدرجة الثالثة ومثلهم في الدرجة الرابعة. أمّا عدد مَن فيها من الملاّحة والمستخدَمين فألف ومائة شخص. فجملة سكّان هذه البارجة نحو ألفين وخمسمائة نسمة.

فإذا نظرنا إلى طولها وعرضها وارتفاعها ووزنها وعدد سكّانها لم يكن من العجب أن نسمّيها جزيرة تختلف عن سائر الجزر بأنَّ هذه ثابتة وأنَّ جزيرتنا ماشية على وجه الماء.

وأمّا ما فيها من مرافِق الحياة ووسائل الراحة والترف لما لا تحيط به عجالة كهذه وحسبي أن أقول إنّني شاهدت أفخم فنادق أوربة وأجمل أنزالها ولا أتذكّر أنَّ واحدًا منها يفوق الباخرة "برينغاريا" في وفرة أسباب الرفاهة والفراهة واستقصاء جميع لوازمها.

وأمّا ما فيها من القاعات والساحات والمراقص والمجالس والمقاعد والمصاعد والأبهاء والمقاصر التي القلم عن وصف بهائها قاصر، فهذا أمر يقدّره جيّدًا مَن تأمّل في أنَّ طول هذه الباخرة ٣٥٠ مترًا.

وإنَّ ركّاب الدرجة الثانية والثالثة لهم مراقصهم وحمّاماتهم لا تفترق عن الدرجة الأولى إلاّ بالزخرف والرياش.

والذي ألحظه أنَّ الإنكليز المترفين خاصّة لهم ولوع بالحمّام كلّ يوم فالإنكليزي لا بدَّ أن يعمّ الصابون بدنه كلّ صباح والإنكليزية لا مندوحة لها من أن تشغل الحمّام يوميًا ولو ساعة من الزمن.

وكأنهم يظنّون أنَّ هذه البسطة التي نالوها في هذه الدنيا كان من جملة العوامل فيها مداومة الاستحمام ومسح الأبدان بماء «الكولونيا» فإن تساهلوا في أمر النظافة بدأوا بفقد مستعمراتهم...

فإن كان الاستعمار وعدمه بكثرة الصابون وقلّته فما أحرى المسلمين بأن يجعلوا كلّ بلدة من بلادهم محالة عن نابلس.

ولكن ألا نُجِب بقول إنَّ المسلمين قد فقدوا أكثر مزاياهم وصارت النظافة التي هي عندهم من قواعد الدين تكاد تكون نسيًا منسيًّا وانتقلت بالفعل إلى قوم كانوا في الماضي يهزأون بشدّة وسواس المسلمين بالنظافة.

يقولون إنَّ لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسة ـ الذي عاش في القرن السابع عشر للميلاد ـ لم يكن في قصره حمّام مع كلّ ما كان فيه من وسائل النعيم.

هذا مع أنَّ المسلم المتوسّط في طبقة الاجتماع لم يكن ليستغنى عن حمّام في منزله فضلاً عن الملوك والأغنياء.

فأمّا الآن فقد انقلب كلّ شيء وصار عاليها سافلها.

كنت أتأمّل في عظمة هذا البحر المسمّى بالأوقيانوس الأطلانتيك وأفكّر في جرأة هذا الجنس الأوربي على اقتحام الأخطار والتطوّح في الأسفار وكيف تجد سفائنهم في هذا البحر ذاهبة جائية كأنها زوارق تطوف في مرسى، ثمَّ إنّني فكّرت أنَّ العرب كانوا أشدّ جرأة وإقدامًا عندما عمدوا إلى اختراق بحر الظلمات من لشبونة في سفينة شراعية سارت بهم نحو شهرين بين سماء وماء.

فأين تلك الهمم التي كانت عند آبائنا؟ وأين هاتيك النفوس التي كانت تضيق بها الدنيا فصارت الآن لا تملأ أجسامها؟

أين العرب الذين خرجوا من سواحل عمان وحضرموت فبلغوا أقصى بحار أفريقية وفتحوا زنجبار وجزائر القمر ومادغسكر ومن الجهة الأخرى وصلوا إلى الجاوى وسومطرة وأسسوا فيها الممالك فطووا ألوفا وألوفا من الأميال على أثباج تلك الأبحر الهائلة وذلك كله على متون السفن القلعية السائرة بقوّة الرياح.

أين مملكة عمان التي كانت منذ مائة سنة تملك بارجة حربية بمدافعها ومعدّاتها وكانت لها المستعمرات الواسعة في أفريقية الشرقية؟! فانظر إليها اليوم قد تجرّدت من كلّ حول وطول وعادت أشبه بمشيخة قريه ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أفترى العرب يجمدون على هذا الذلّ وهذا الهوان ويستمرّون على ما هم عليه من الغفلة وتفرق الكلمة والاشتغال بسفاسف الأمور عن عزائمها أم يفيض الله خلقًا جديدًا ونشأة مستأنفة تعيد عليهم سيرتهم الأولى؟ كلا، بل أنل قوله تعالى:

«كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا حقًّا أنّا كنّا فاعلين»

بحر الظلمات، في يوم السبت ١ يناير ١٩٢٧ — شكيب أرسلان

* * *

مَهين عند قومه. مُكرّم عند الناس!

لعطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

خلع بعض الشرقيين الطربوش وعدّوا لبسه دنيئة من الدنايا. وحاكموا عليها الناس ودقّوا أعناقهم... وأوشك آخرون أن يقتدوا بهم لو لم يمسك رجال الحلّ والعقد برمق الكرامة الشرقية ويقفوا في وجه أولئك الحمقى الذين ألقوا على دعايتهم الأجنبية اسم "تجدّد" وأنكرت فئات لبس العمامة وزعمت أنها رمز الهمجيّة وضربت الرقاب من أجل لبسها. وودّت زعانف آخرون أن تضرب الرقاب على لوث العمائم بمصر كما تضرب لوثها في تركيا... ولو قام أحد منذ سنوات قلائل وحدّثنا بأنه سيكون من الشرقيين أناس يبلغ بهم التقليد الأعمى أن يجازوا بالقتل من لبس الطربوش أو العمامة لظننّا أنه ممسوس يخلط أو محموم يهذي. ولكنّنا رأينا ذلك بأعيننا وسمعناه بآذاننا.

وحاول أناس أن يحملوا الشرقيين والعرب خاصّة على التفصّي من كلّ شيء شرقي أو عربي وزعموا أن لا حياة للأمم الشرقية بدون ذلك. ولسنا نعجب من أن يصاب الشرق بمثل هذه الأمراض الاجتماعية على أثر الحرب الكبرى وأن ينكر الشرق بعض بنيه وأن يحتقروا كلّ ما هو منسوب إليه. فما زالت الأمم قديمًا وحديثًا تبتلي بمثل هذه الأمراض إذ مجموع الأمّة عبارة عن جسم معنوي لا يخلو من أن تطرأ على الجسم الحيواني عوارض الأمراض البدنية.

ولكن الطربوش والعمامة والزيّ الشرقي واللغة العربية كلّ ذلك كان مكرّمًا معزّزًا مقدّسًا في بلاد غربية تعرف الفضل وذويه ولا يمنعها كونها أعرق البلاد في التغرّب أن ترفع للشرق منارًا وتحمي له آثارًا.

يوجد في أميركا جمعيّة شريفة نابهة عالية القدر اسمها Shrine ومعنى هذه الكلمة الكعبة أو المكان المقدّس الذي يحجّ إليه. وليست هذه الجمعيّة من الجمعيّات الماسونية ولكن مبادئها أشبه بمبادئ الماسونية وبعبارة أخرى لا يوجد في مبادئ جمعيّة Shrine ما يناقض المبادئ الماسونية. ثمّ إنّ بين جمعيّة "شراين" والماسونية رحما ماسةٍ إذ لا يدخل هذه الجمعيّة إلاّ مَن كان منسوبًا إلى الماسونية. ولا يكفي أن يكون منسوبًا إلى الماسونية، بل شرط

الدخول في جمعيّة "شراين" أن يكون المريد مترقيًّا في الماسونية إلى درج ٣٢ ومَن علم مبلغ أهمّية الماسونية في أميركا وأنها هي مصّاص هذه الأمّة الأميركية العظيمة، وتأمّل في شرط الدخول إلى جمعيّة الكعبة المشار إليها، أمكنه أن يفهم في أيّ ذروة هي هذه الجمعيّة من ذرى الاجتماع الأميركي.

ويُقدَّر عدد المنسوبين إلى جمعيّة الكعبة هذه بمائتين وخمسين ألف شخص من الفضول أن نقول بعد الذي تقدّم من الكلام أنهم جميعًا من الطبقة الراقية. ولهم محافل عديدة ومنهم عدد كبير من رجال حكومة أميركا وأعضاء مجلس الشيوخ، بل ممَّن تولّوا رئاسة جمهورية الولايات المتّحدة. والمريد يسمّى شريف [...]. فإنّه يوجد عندهم محافل بأسماء عربية ولكن أسماها محفل نيويرك وهو الذي يسمّى بمحفل مكّة. وقد علمت من أسماء محافلهم محفل سلام في توروك من ولاية نيوجرسي. ومحفل الملائكة في لوس أنجيلوس من ولاية كاليفورنيا. ومحفل عنزة بالمكسيك. وبلغني أنَّ عندهم محفل دمشق، ومحفل بغداد، ومحفل مصر، ومحفل عمر، ومحفل علي، ومحفل رمضان، ومحفل زمزم، ومحفل المدينة، ومحفل فلسطين، ومحفل الناصرة، ومحافل أخرى تحمل كلّها أسماء عربية، وهذه الأسماء يلفظونها بالعربي لا بترجمتها في اللغة الإنجليزية. ولهم في ولاية بنسلفانيا محفل كبير فخم البناء مكتوب عليه بأحرف كبيرة "أشهد أنَّ لا إله إلاّ الله". وإذا دخل الواحد منهم إلى المحفل فلا بدَّ أن يقول: "السلام عليكم" يلفظها بالعربية. وعلى جدران أبهاء المحافل توجد آيات قرآنية كما هي على جدران المساجد عندنا. ولا يجوز الداخل أن يدخل المحفل إلاّ بالطربوش. فالطربوش هو اللباس الرسمي المنسوبين إلى جمعيّة شريان. أمّا أصحاب الرتب الذين ترقّوا في الجمعيّة فيلبسون العمائم والطيالس. وكثيرًا ما يجتمعون في الاحتفالات ويخرجون في الشوارع مئات وألوفًا وهم بالطرابيش والعمائم. وليس التعارف فيما بينهم على الطريقة الأوربية أي أنَّ الإنسان لا يكلّم الآخر إلاّ بواسطة رجل يعرفه، بل طريقة التعارف عندهم أشبه بطريقة الشرقيين، فإذا شاهد الواحد الآخر لابسًا طربوشًا تقدّم إليه وصافحه بدون واسطة قائلاً له "السلام عليكم". ثمَّ إنَّ المنسوب إلى هذه الجمعيّة يحمل على صدره زرًّا عليه صورة سيف وهلال ونجمة. فالهلال راكب عليه السيف والنجمة من فوقه. وهذا هو شعار الجمعيّة.

قصدت بهذه المقالة أن يعلم مَن في الشرق أنَّ الطربوش والعمامة والجبّة واللغة العربية والآي القرآنية والأزياء الشرقية يتنافس بها المتنافسون في أكمل وأغنى مراكز المدنيّة الغربية بينما كثيرون من الشرقيين يحقّرونها وينفضون أيديهم منها... «ومَن يضلّل الله فما له من هادٍ».

نيويورك، في ٢ مارس

شكيب أرسلان

* * *

الأجنبي قد يصلح بينهم...

تحفة لعطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

اطّلعت في «الشورى» على المقالة التي دمجها يراع المحقّق الخبير ببلاد جزيرة العرب وعلمت منها اجتهاده في تأييد حقّ الملك عبد العزيز بن سعود بعقد المعاهدة التي عقدها مع السيِّد الإدريسي.

ولست أنازع المحقّق الخبير وجهته في سواغ هذه المعاهدة، ولا أرى بأسًا من بقاء إمارة الإدريسي على ما هي عليه الآن بحيث تكون فاصلاً بين مملكة ابن سعود ومملكة الإمام يحيى، لكن على شريطة أن لا يكون للإدريسي حقّ عقد المعاهدات مع الأجانب ولا منح الامتيازات للأجانب.

وإنِّي أرى من الخطيئات الكبر والأمور التي لا تغتفر أن يهبّ الإمام يحيى لمحاربة ابن سعود من أجل عقد معاهدته هذه مع الإدريسي، أو أن يوجف بخيله ورَجله على إمارة موجودة منذ نحو ربع قرن، وقد كانت تكانف متصرّفية عسير وولاية اليمن في أيام الدولة العثمانية فلا عجب إذا بقيت تكانف مملكتَي الإمام يحيى والملك ابن سعود في هذه الأيام.

وكيف كان ضرر وجود هذه الإمارة بالإمام يحيى فلا يكون بمقدار ضرر الحرب التي يمكن أن يصليها ابن سعود من أجلها، ولا يعلم الإنسان ماذا يكون من عواقبها؟

وإذا كان خوف الإمام من الإدريسي ناشئًا من جهة علاقاته الماضية مع الأجانب فقد أزال ابن سعود هذا المحذور بمنح الإدريسي من كلّ مداخلة مع الأجانب بموجب العهد الذي أخذه عليه.

وإنَّ ملك الإمام يحيى طويل عريض لا تنقصه إمارة الإدريسي التي لا يزيد سكّانها على مأية ألف نسمة، ولم تكن مع ذلك فيما سبق من أملاك الإمام.

ولا أنازع المحقّق الخبير بجزيرة العرب في أنَّ الزيود يكرهون الشوافع وأنَّ الشوافع يمقتون الزيود. ومع أني لا آخذ على نفسي الاشتراك في تأكيد أنَّ الزيدي يستحلّ دم الشافعي وماله...إلخ. ومع أني لا أعتقد أنَّ علماء الزيدية ينكرون كون الشافعية مسلمين

وبالتالي لا يجوز استحلال مالهم ودمهم فلا يسعني أن أنكر كون الأخبار التي تتواتر إلينا من هاتيك الأطراف تثبت أنَّ بين الشوافع والزيود ويالَلأسف خضًا شديدًا وفسادًا كبيرًا.

ولكنّنا نخشى أنَّ بعض أنصار ابن سعود يتّخذون هذه البغضاء بين الزيود والشوافع وسيلة لإغرائه يغزو اليمن معتمدًا على الشوافع زاحفًا بأسم «السنّة» ضدّ «الروافض».

نعم، نخشى في أخريات هذه الأيام التي نحبّ أن تنمو فيها روح القومية العربية من نشوب حرب مذهبية في جزيرة العرب.

ونحن نعلم أنَّ أجدر خطّة بابن سعود أن يسلكها هي أن يتوفّر على إصلاح الحجاز ونجد وعسير التي يكون منها ملك كبير أو يوجّه همّته إلى تنظيم أمورها.

وليس للملك عبد العزيز أدنى مصلحة في أستيراء زند الحرب مع الإمام يحيى من أجل شوافع اليمن ولو وعده هؤلاء بأن ينهضوا وإيّاه يدًا واحدة.

والأولى بالملك المشار إليه أن لا يتخطّى صفدة ولا إمارة الإدريسي جنوبًا ولا يزيد على معاهدته مع هذه الإمارة شيئًا.

ولا ينفع ابن سعود شيء مثل السلم والسكون الذين فيهما يقوى ويرتاش وينهض [...] ويزيد بذلك وارد خزانته وينظّم جيشه على الأصول العصرية، وإذا لا سمح الله اشتعلت حرب بين الإمامين فأول ثمرة من ثمراتها تكون اتّفاق إنكلترة مع إيطالية على تقسيم جزيرة العرب سرًّا... كما قسّمت إنكلترة وفرنسا سورية وفلسطين سرًّا سنة ١٩١٢ ثمَّ أكّدت هذه المقاسمة بمقاسمة أخرى يقال لها معاهدة سايكس ـ بيكو عقدناها سرًّا أيضًا سنة ١٩١٦ واليوم هذا السرّ صار جهرًا وهذه المعاهدات السرّية بتقسيم دول أوربة بلاد الغير من عادتهم أن يعقدوها أولاً في الخفاء ثمَّ إن يجهروا بها وينفّذوها في أول فرصة.

ومن هذا النمط معاهدات إنكلترة وفرنسة سنة ١٩٠٢ و١٩٠٥ على تقسيم أفريقية والتي بموجبها سكتت فرنسة عن المسئلة المصرية وأخذت في مقابلة ذلك مراكش.

فمبدأ الحرب بين الإمامين هذه المرّة إذا قدّر وقوعها لا سمح الله أن يكون مبدأ تقسيم جزيرة العرب إلى مناطق إنكليزية وطليانية، يقع ذلك في البداية سرًّا ثمَّ يصير جهرًا!

وأمّا العداوة الشديدة بين الشوافع والزيدية. فإنّها بعد ذلك تزول... تزول... تزول... إذ يأتي الأجنبي فيكسر شوكة الفريقين ويصلح بينهما.

هكذا كانت الدولة العمانية السنّية والدولة الفارسية الشيعية تتقاتلان بأسم المذاهب أحقابًا طوالاً. ولكن أوربة المسيحية خضدت شوكة الفريقين فأصلحت بينهما فلا تجد الآن لا عداوة ولا بغضاء بين السنّة والشيعة لا في تركيا ولا في فارس ولا في جوارهما.

وهكذا يصلح الأجانب بين الفريقين المتنافسين في جزيرة العرب... ويحنو الشوافع على الزيود ويحنو الزيود على الشوافع يومئذٍ، ولكن بعد خراب البصرة!

«واشنطون»

شكيب أرسلان

* * *

الألمان والإنكليز رجعيّون!

جمود على القديم!

لعطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

لا يخفى أنَّ مجلس اللُّرَدة (بضمّ ففتح، جمع لرد) وضع قديم في إنكلترة لا يزال إلى يوم الناس هذا على هيئته المعروفة من سابق الزمان وسالف العهد والأوان، وإن كان قد حدث فيه بعض التغيير في هذه الحقب كلّها فيكون في تخفيف وطأته على مجلس العموم الإنكليزي وعلى الحكومة البريطانية، كأن يعدّ قرار مجلس العموم نافذًا إذا تكرّر ثلاث مرّات ولو لم يوافق مجلس اللردة عليه.

أمّا من جهة وضعه وتشكيله فهو لم يتغيّر ولم يتبدّل إلاّ بزيادة عدد أعضائه حتّى بلغوا نحو الثمانمائة وأكثرهم من أبناء البيوتات العريقة وذؤبات الشرف متوارثون منصب اللوردية أبًا عن جدّ وكابرًا عن كابر بمجرّد النسب لا غير. فإذا وجد في هذا المجلس غير هؤلاء النبلاء فيكون بعض شيوخ الامّة الأولى سبقت لهم أعمال جلائل أو بعض أساقفة ورؤساء روحيين ولكن الأكثرية لا بدَّ أن تبقى في المجلس للنبلاء والأصلاء لا ينازعهم في هذا الأمر منازع.

وقد رأى بعض ساسة الإنكليز أنَّ بقاء مجلس اللردة هكذا على هيئة يوم قال الله "ألست بربّكم"، ليس ممّا يأتلف مع طبيعة العصر الحاضر مع كلّ ما حدث فيه وتجدّد فقاموا يطالبون بتغيير وضعه وتنزيل عدد أعضائه ونظّموا بذلك لوائح قدّموها للحكومة وللمجلس اللوردي نفسه ووافق عليها كثير من خواص النبلاء، ويقال إنَّ هذا المجلس سينزل عدد أعضائه إلى ثلاثمائة لا غير إلاّ أنَّ هؤلاء الثلاثمائة لا مناص من أن يكون معظمهم من الوارثين لقب لورد ومنصب اللورد كابرًا عن كابر فهذه قاعدة مقدّسة لا تقدر بريطانية العظمى أن تعبث بها مهما كان من صخب حزب الأحرار وضجيج حزب العمّال.

فيظهر أنَّ الأمّة الإنكليزية التي ليس يضارعها أمّة اليوم في العظمة والسؤدد لا تجد أنَّ بقاء قاعدة التوارث اللردي هذه ولا الإغضاء عن امتيازات الأشراف ممّا يؤخّر رقيّ إنكلترة ولا ممّا يعرقل سير العلوم والمعارف فيها ولا ممّا يذهب بشيء من سماكة دروع البوارج

البريطانية ولا ممّا ينزل من عددها ولا ممّا يقف في وجه الطيران من قارّة إلى قارّة ولا ممّا يتحيّف من جوانب ركام الجنيهات الإنكليزية ولا ممّا تتعثّر به الكشوف العلمية ولا التجارب الكيماوية ولا يتمنّع به إيجاد النشاط في خلايا البروتوبلاسما البشرية...إلخ إلخ.

كلا، إنَّ إنكلترة تجد كلّ هذا متآلفًا مع التقاليد القديمة والأوضاع التي مضت عليها القرون وقد نقلنا من مدّة بيان رئيس نظارة ألمانية في الرايستاغ القائل: إنّ الثقافة الألمانية قائمة على أساس الدين المسيحي. أي الدين الذي ناهز عمره نحو الألفَي سنة.

وبأول فرصة سننقل إلى اللغة العربية كتابًا كبيرًا اسمه «الديانة في ألمانية» موضوعه شرح أحوال الكنائس الألمانية من بروتستانية وكاثوليكية على ما هي عليه في حالتها الحاضرة وذكر علاقاتها بالتعليم العامّ وبالأحزاب السياسية وبمبادئ العملة وبسير العلم والصناعة إلى غير ذلك ممّا يجدر بكلّ شرقي أن يعرفه عن أرقى أمّة وأصعدها في سلّم المدينة الحديثة.

وبعد هذا ليقل ملاحدة أنقرة وأذنابهم الذين بمصر... وأذناب أذنابهم الذين بسورية وفلسطين والعراق. إنَّ الأمم الإنكليزية والألمانية من أجل محافظتها على هذه المبادئ القديمة أمم منحطّة متأخّرة متقهقرة مرتجعة جامدة بالية متعفّنة ناسجة عليها العناكب. وإنَّ الرقيّ الذي يبتغيه مجدّدو شرقنا هو أعلى ممّا رضي به الإنكليز والألمان.

فيا موت زر الحياة زميمة ويا نفس جدّي أنَّ دهرك هازل

جنيف، ٢٩ يونيو ١٩٢٧ شكيب أرسلان

***

ظلمات بعضها فوق بعض...

قرأت الآن في جريدة «السياسة» تحت عنوان «أيّة بادرة هذه» كلامًا لمراسل السياسة خاصّ في بيروت معناه أنّ هذا العاجز وإحسان بك الجابري «سحبا من لجنة الانتدابات العرائض والشكاوي التي كانت اللجنة التنفيذية قدّمتها إلى جمعيّة الأمم على الإدارة الإفرنسية في لبنان وسوريا».

فاستغربنا هذا الخبر جدًّا من عدّة وجوه:

أولاً ـ يجب حتّى نعمل عملاً كهذا أن تكون دولة فرانسة أجابت السوريين الوطنيين إلى مطالبهم وإلى مطالبهم كافّة فلم يبقَ محلّ للنزاع ولا سبيل إلى الشكوى وهذا ما لم يحصل منه شيء إلى اليوم.

ثانيًا ـ كيف يصدّق العقل أننا نحن نسحب عرائض وشكاوي واردة من اللجنة التنفيذية إلى لجنة الانتدابات في جنيف وذلك بدون إذن اللجنة التنفيذية ولا علمها.

ثالثًا ـ كيف يصدّق العقل أنّ لجنة الانتدابات نفسها تسلّم إلينا عرائض واردة إليها رأسًا من اللجنة التنفيذية وذلك بمجرّد طلبنا وبدون سؤال هذه اللجنة هل تريد سحب هذه العرائض أم لا؟

ولا نعلم هل هذا الخبر الغريب الذي لفّقه مراسل «السياسة» هو من جملة التحرّضات العامّية التي يرويها الناس في الأزقّة أم هو خبر مدسوس عمدًا لتوهين الثقة العامّة في الوفد السوري ممّا يسعى به بعض الناس لمآرب نمسك الآن عن الخوض فيها.

وليست هذه بالفريّة الأولى التي صادفتها في هذه الأيام. فقد سمعت أنّ إحدى صحف بيروت المتفرنسة نشرت خبرًا تقول إنّه واردها من باريز بأنه قد تقرّر جعلي سفيرًا للدولة السورية في عاصمة الفرنسيس.

فأرسلت إلى جريدة «العهد الجديد» الوطنية الحرّة تكذيبًا باتًّا لهذا الخبر الآخر العريق في الاختلاق كالخبر الأول.

إنّي لا أقبل منصبًا ولو استقلّت سورية تمام الاستقلال فكيف أقبل منصبًا وهي في هذه الحال؟ للمناصب أناس مولعون بها. ولست منهم والحمد لله.

لوزان، ٢٧ يوليو

شكيب أرسلان

سورية لن ترضى ببروغرامك هذا!

إلى حضرة المسيو بونصو، معتمد فرانسة في سورية

لعطوفة كاتب الشرق الأمير شكيب أرسلان

أمّا من جهة الجواب على البروغرام الذي أعلنته مؤخّرًا في سورية وإثبات ما فيه من مخالفة عهود الحلفاء ومناقضة الوعود التي وعدوها العرب في أثناء الحرب وما فيه من العبث بحقوق الأمم العامّة وبروح «الانتداب» نفسه ـ على فرض أنَّ هناك انتدابًا قانونيًا ـ فكلّ هذا سنقدم عنه الشرح اللازم لجمعيّة الأمم في الشهر المقبل ونثبته لها بندًا بندًا وجد ذلك ننشره في الجرائد السيّارة. غاية ما نريد أن نعلنك الآن أنَّ البروغرام الذي أتيت به بعد هذا الصمت الطويل لا يرضي السوريين ولا يطابق أمانيهم ولا يحقّق الآمال التي استحقّها لهم فداء بضعة عشر ألف قتيل وخراب قسم عظيم من سورية، وأنَّ بروغرام جوفنيل كان أقرب إلى مطالب السوريين من بروغرامك وأميل إلى الحرّية وقد رأيناه يومئذٍ غير وافٍ بالمراد وملأنا الآفاق بالاحتجاج عليه لأننا وجدنا أنه لا يزال بينه وبين حرّيتنا الحقيقية مسافة بعيدة.

وها نحن أولاء نرى بين إعلانك الأخير وبين معنى الحرّية ـ لألفظ الحرّية لأنكم كرام جدًّا بالألفاظ ـ مسافة أبعد ممّا كان بينها وبين برنامج جوفنيل. فبدلاً من أن نتقدّم إلى الأمام رجعنا إلى الوراء.

وإنَّ الوفاق البريطاني العراقي على ما فيه من النقص والخلل ومن هضم حقوق العراقيين الثابتة ممّا هو سبب أزمةٍ شديدة بين إنكلترة والعراق في هذه الأيام يكاد يكون المثل الأعلى بالقياس إلى برنامجك الضئيل هذا. ومن أغرب الأمور أن تعتقد أنت وقومك أنَّ السوريين سيرضون بما لم يرضَ به إخوانهم في العراق.

وإنّه وإن كانت الجلسة التي انعقدت في مجلس الشيوخ للبحث في مسئلة سورية قد أحيطت بالكتمان والتعمية حتّى لا يطّلع الملأ على ما هناك من الأمور الماسّة بحقوق الناس، فقد رشح منها إلى الخارج ما يؤيّد كون إعلانك في بيروت لم يكن مطابقًا لكلامك في هاتيك الجلسة. فكان القليل النذر المتلكّئ المتذبذب الذي وعدتم بإعطائه في هاتيك الجلسة الخفيّة وجدتموه فيما بعد سمحًا واسعًا ضافيًا مجرّرًا أذياله فندمتم على هذا الكرم كلّه،

وعدتم إلى خلقكم الاستعماري الحقيقي الذي يغلب التخلّق بالسماح والذي مهما تظاهرتم بعكسه ظهر عليكم بأدنى سبب.

فتحقّق هنا ما لم يكن يخامرنا فيه أقلّ شكّ وهو أنكم لا تعطون سورية قليلاً ولا كثيرًا إلاّ تحت ضغط الحوادث وإنَّ دعواكم كون فرانسة لا تعطي السوريين حقوقهم ما داموا يطلبونها بقوّة السلاح خالية من الصحّة.

ففرانسة لم تكن لتعطي شيئًا مذكورًا تحت قوّة الثورة لكنّها أقلّ عطاء وأكزّ يدًا وأشدّ غطرسة عند خمود الثورة. وشأنها في ذلك شأن كلّ دولة استعمارية لا تعرف الحقّ إلاّ إذا جاء ومعه المدفع...

وشأنها في ذلك شأن كلّ إفرنجي لا يتهيّب في الدنيا سوى القوّة القاهرة ولا يرى عظيمًا إلاّ مَن قدر على الذود عن حوضه بسلاحه. وهو لا يعرف لمكارم الأخلاق معنى وقد يهزأ بها في فضيلة نفسه ويعدها من باب الحماقة.

نعم، هذه الوصمة أنتم تَصِمون بها الشرقيين وتكرّرون كلّ يوم أنَّ الشرقي لا يخضع إلاّ للقوّة القاهرة وأنه لا يفهم إلاّ إذا جاء السيف ترجمانًا وما أشبه ذلك من أقاويلكم التي بينها وبين الحقيقة ما بين المشرق والمغرب. فكنّا نحبّ أن يكون بين الشرقيين والغربيين قاضٍ عدل يفصل هذه الدعوى وينظر في تاريخنا وتاريخكم القديم منهما والحديث ليحكم مَن من الفريقين لا حرمة عنده إلاّ للقوّة ولا كرامة إلاّ للصارم البتّار!

جئت إلى سورية في العام الماضي على حين كانت الثورة مشتعلة ورجعت منها إلى باريز وأنت ناوٍ إجابة السوريين إلى الكثير من مطالبهم فكانت كلّما ضعفت الثورة تضعف عندك هذه النيّة والليل إن طال غالي اليوم في القصر وكذلك الاستعمار والثورة يجني تناقص هذا من تزايد ذا. فلمّا عدت إلى سورية المرّة الأخيرة وجدت للثورة علالة اعتقدت أنها دماء قريب الأجل فقلت في نفسك صار من الحمق أن نعطي السوريين وقد ركدت ريحهم ما كنّا نريد أن نعطيهم وهي عاصفة.

ولا عجب أن تكون هذه مبادئك وأنت من مأموري دولة استعمارية كدولة فرنسا وقد أحاط بك الكولونل كاترو وأمثاله... ورجعت تلقي بآذانك إلى المفسدين من تلك الفئة التي

لا تجد لنفسها نعيمًا مثل أن ترى سيف فرانسة عاملاً في رقاب العرب. فاتّخذوهم نصحاء فلا بدَّ أن يأتي يوم تعلم فيه وقومك أنَّ العرب لن يموتوا وأنهم هم سادة البلاد وأنك أضعت مالك ودمك سدًى فإنَّ سورية شجًا في حلق الاستعمار لا تقاس بغيرها...

ولو كنت أنت وكاترو وتلك الزمرة المغرورة تفكّرون في العواقب لعلمتم أنَّ الذي ظننتموه صريعًا إلى الأبد... قد نهض بعد تسع سنوات من صرعته وأنه سيطلب حسابًا على حين لا تلقون معكم ٢٧ دولة كالمرّة الماضية... وإنَّه سواء حارب أم سالم فهو قوّة كبرى تعرقل حرّية مَن يجاورها. فكان الأَوْلى بكم أن تمعنوا في الرويّة وأن لا ترهقوا العرب عسرًا وأن لا تدوسوا كرامتهم وأن تستلوا السخائم التي تركتموها في صدورهم بحسن الفعال بدلاً من أن تسيروا على هذه الخطّة العوجاء التي جاءكم على عوجها ألف دليل وأنتم غير منتهين عنها لأمر يريده الله.

أم ظننتم أنَّ مكافلة الإنكليز لكم في المدّة الأخيرة وما مالأوكم عليه من طرد المجاهدين من الأزرق وما قرّرتموه وإيّاهم من أنهم ينكثون بالوعد الذي وعده العراق من إدخاله في جمعيّة حقّ لا تضطرّوا أنتم إلى إدخال سورية فيها، هذه تدابير تقتل روح النهضة العربية وتهيّء لكم ولهم الاستيلاء التامّ على سورية وما جاورها. فإذا كان هذا ظنّكم فقد ساء فألكم وكذب خالكم وخابت آمالكم. ولعمري إنَّ أحسن ما تعملونه هو التمالؤ مع البريطانيين علينا وتفهيمنا بذلك أنكم لا تزلون وإيّاهم على مثل ما كنتم وإيّاهم في القرون الوسطى. فهذه هي الخدمة الكبرى وهذا هو الديناميت الذي نرجوه لتفليق ما بقي من الصخور الجامدة من الأمّة العربية حتّى تتفجّر من تحتها عيون الحياة.

لوسرن، ٨ أغسطس

شكيب أرسلان
أحد أعضاء الوفد السوري

❋❋❋

الصّلت لا السلط...
ولا ندفع إلاّ على هذا الشرط!
تحفة من تحف ملك البيان الأمير شكيب أرسلان

أخي أبا حسن

بعثت إليكم منذ أيام بحوالة مالية زهيدة المقدار راجيًا منكم أن ترسلوا منها ثلاثة جنيهات إلى القدس وثلاثة جنيهات إلى نابلس ونصف جنيه إلى الرملة إعانة لمنكوبي الزلازل وهذا أناذا الآن باعث إليكم بثلاثة جنيهات أيضًا تتكرّمون بإرسالها إلى الصلت ـ وإيّاكم أن تكتبوها السلط ـ فقد بلغني أنَّ أخي الأستاذ الجامع بين المعارف والعوارف أحمد زكي باشا، مدَّ الله في حياته وأمدّه بنفحاته تبرّع بمبلغ لإعانة منكوبي الصلت ـ نعم الصلت ـ على شرط أن لا تكتب بالسين والطاء كما يفعلون الآن. وأنا يا أبا الحسن واضع ختمي بجانب ختم الأستاذ أحمد زكي وليست هذه أول مرّة أضع فيها ختمي بجانب ختمه وأرضى بمبرم حكمه. وبلغني أنَّ الأستاذ يستشهد على كتابتها بالصاد والتاء بمعجم البلدان وأنا أعزّز شاهده بشاهد آخر هو تاريخ أبي الفداء الذي يحبّه أحمد زكي باشا كثيرًا فقد جاء في ذلك التاريخ ـ إن كانت ذاكرتي لم تخنّي ـ أنَّ السلطان صلاح الدين يوسف أقطع أخاه العادل أو أميرًا آخر لا أتذكّره الآن تمامًا بلاد البلقاء على شرط أن يرفع من الصلت كذا غرارة من القمح إلى بيت القدس كلّ سنة. فأنت ترى أن أصلها بالصاد والتاء كما يقال صلت الجبين وكما ورد في شعر المتنبّي: فجاءت به صلت الجبين سميذعًا ...إلخ، والعامّة، لا بل الخاصّة أحيانًا لا يزالون يحرقون قلوبنا بتحريف الكلم عن مواضعه وبكتابتها بالسين والطاء وفي ذلك من ربّكم بلاء...

وليست هذه بالطامة الوحيدة في هذا الباب فكم نادى الأستاذ أهل حلب قائلاً بالله عليكم يا كرام الشهباء لا تقولوا للقِبلة "قبلية" وأهل دمشق مناشدًا إيّاهم الله أن لا يقولوا للكمبيالة "كمبيالية" والله يعلم أني أعاني من هذه الآلام ما يعانيه أخي أحمد زكي باشا ولكن خطب "الكمبيالية" عندي أيسر من خطب "القبلية" بسبب كونها لفظة أعجمية والتغيير في كلام الأعاجم ـ أجلك الله عن ذكرهم ـ فيه فسحة في لغتنا كما جاء في الأمهات.

وأنا لست متعجّبًا من إيذاء هذه المصيبة صاحب السعادة العلاّمة قاموس الأعلام أحمد زكي باشا. الذي إن لم يكرثه هذا الأمر فمَن يكرث إذًا؟ ولكنّي متعجّب من الأستاذ خفير اللغة إسعاف أفندي النشاشيبي كيف لا ينضمّ إلينا نحن الاثنين في هذا المأتم... الذي ليس زلزال الصلت بأصدع منه للقلوب، وأن لا يكون له صوت في هذه المناحة.

ولا أعفي الأستاذ السكاكيني نفسه من مشاطرتنا هذه القيامة مهما يكن من حبّه للتجدّد وشنآنه لكلّ قديم فإنَّ الانفلات من كلّ قيد لا ينبغي أن يصل إلى قدس أقداس اللغة والعياذ بالله.

يقول الأستاذ السكاكيني: «لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا خلف ولا وراء».

وأجاوبه: أهون عليك ذلك من أن نقبل الصلت بالين والطاء.

جنيف

شيكب أرسلان

(الشورى ـ ولكن إدارات البريد! إنَّ هذه الإدارات في مصر وفلسطين تأبى إلاّ أن يكون اسم الصلت بالسين والطاء «السلط» وقد حاولنا مجادلة عمّال بريد القاهرة في الاسم فرفضوا قبول حوالة إلى «الصلت» وقالوا «معندناش صلت»!

فجاء موظّف نبيه وقال إنَّ اسمها الحقيقي «ملح» لأنها تكتب بالإنكليزية كما هو موجود عندنا في التعليمات الواردة من بريد فلسطين SALT ومعناها «ملح» فطلبنا إليه ـ ونحن نقصد المزاح ـ أن يقبل إرسال الحوالة إلى «ملح» فأجاب بالرضى!

وهكذا فإنَّ الحقّ وسادتنا أعلام اللغة في وادٍ وعمّال الحكومات في وادٍ آخر. ولولا أننا أرسلنا الحوالة إلى «السلط» بالعربية و SALT بالإنكليزية لنكب المساكين بضياع فرع الدكتور كحيل ورفيقه.

***

القول ما قالت حذام...
والقول ما قال ياقوت في الأعلام!
لكاتب العرب وأمير الأدب الأمير شكيب أرسلان

إلى حضرة الأديب المعترض علينا في قضيّة الصلت أو السلط

يا أخي إنَّك أديب وأدبك ظاهر من كلامك فاسمح لي أن أعجب من تجاهلك مغزى كلامي في قضيّة الصلت أو السلط ومن أنه قد ذهب عنك أنني ذاهب فيها إلى الاحماض وقاصد إلى مداعبة أخي الأستاذ أحمد زكي باشا الذي أداعبه في الأحايين، والذي إذا عمد إلى تصحيح بعض الأغلاط التي تدور على الألسن وضع ذلك في قوالب من التشديد هي أقرب إلى الفكاهة منها إلى الجدّ. فخطب كتابة الصلت بالصاد والتاء أو بالسين والتاء هو أيسر جدًّا من أن نبكي ونستبكي عليه وأن نقول بأنه أصدع القلوب من الزلزال الذي أصيبت به تلك البلدة، ولكنّنا أردنا الفكاهة وإزالة صدأ القلوب بما تراكم عليه هذه الآونة من الأكدار. فالصلت إذا كان حقّها أن تُكتب بالصاد والتاء فلا تخرب الدنيا إذا كتبت بالسين والطاء. وإنَّ كثيرًا من الكلمات لا سيّما الأعلام وأسماء البلدان قد تجيء بعدّة أحرف إذا كانت متقاربة اللفظ ولكن هذا لا ينبغي أنَّ بعضها أفسد من بعض.

ومن حيث إنَّك حملت الكلام محمل الجدّ فخذ من الجدّ ما يأتي: إنَّني مع قلّة بضاعتي من الأصل ومع بعدي عن مكتبتي كما قلت كنت مستغنيًا عن بحثك في الكلمات التي تلفظ بالسين والصاد والكلمات التي تتقلّب فيها التاء إلى الطاء فقد أعلم منها بظهر الغيب أطول جدًّا ممّا ذكرت ولست أرى في هذا الشاهد الذي أوردته ما يمنع مجيء الصلت بالصاد والتاء، وبحصرها بالسين والطاء فقد يكون الأول هو الأصل وقد يكون الثاني من تحريف العامّة أو غير المحقّقين، لا سيّما وأنك تسلّم بأنَّ وضع السين موضع الصاد وبالعكس لا يمكن أن يكون قاعدة مطّردة. فإذا جاء في غير ألفاظ معدودة كان تحريفًا.

إنَّك واهم في ظنّك أنك مَن استشهدت لنا بقاموس الفيروزابادي ارتفع النزاع وجفّ القلم وأصبح قوله هو الذي يؤخذ به وقول ياقوت الحموي هو الذي يترك. فإنَّه مع جلال قدر الفيروزابادي ليس في درجة صاحب معجم البلدان في معرفة الأعلام فإنّ ياقوت من

أعظم علماء الجغرافية عند العرب وفي الوقت نفسه من أكبر علماء اللغة المدقّقين في اشتقاق الألفاظ كما يعلم ذلك كلّ مَن طالع معجمه. فهو متخصّص في هذا الباب وصاحب القاموس ليس بمتخصّص فيه. وقول المتخصّص في علم أرجح من قول غيره. وكذلك أبو الفداء هو من أكبر الجغرافيين والمؤرّخين عند العرب وليس ممَّن يكتب الصلت بالصاد والتاء إلاّ وقد رآها في الكتب القديمة التي طالعها كلّها قبل تحرير تاريخه. ولقد انتُقد قاموس الفيروزابادي بأضعاف أضعاف ما انتُقد معجم ياقوت، بل ألّفت كتب في المآخذ على الفيروزابادي آخرها الجاموس على القاموس لأحمد فارس الشدياق الذي جمعه من أقوال مَن تقدّمه وكلّ من ياقوت وأبي الفداء أقدم عهدًا من الفيروزابادي كما لا يخفى.

في حوران بلدة اسمها بصرى وهي التي يقال لها الآن بصرى اسكى شام ولمدّة أخرى في طرف اللجاة هي بصر الحرير. فالأولى تُكتب بالصاد بدون مراجعة وعلى ذلك قول الشاعر:

صفائح بصرى أخلعتها قيونها

ومطردًا من نسج داود مبهما

وأمّا البلدة التي يتولّون لها اليوم بصر الحريري ويكتبونها بالصاد فقد ورد في قاموس الفيروزابادي أنها بسر بالسين، وذكر أنها بلدة في حوران. فقول العامّة اليوم بصر بالصاد هو تحريف يجوز أن يكون وقع مثله في لفظة الصلت من الصاد إلى السين لا سيّما أن لفظها بالصاد مع التاء أو بالسين مع الطاء يكاد يكون واحدًا.

ما علمت لماذا تجعل رواية ياقوت هي التي ينبغي أن تكون الرواية المحرّفة الواقعة فيها الصاد موقع السين ورواية الفيروزابادي هي الأصلية. فلعلّك أصغرت مقام ياقوت وهو الذي لا يقدم عليه الفيروزابادي ولا غيره في هذا الباب. فالناس في الإعلام يقولون: قال ياقوت أكثر جدًّا ممّا يقولون قال الفيروزابادي. ما أتيت بصلت الجبين وما استشهدت ببيت المتنبّي بدعوى أنَّ معنى اسم مدينة الصلت هو بمعنى صلت الجبين، ولكن لإثبات صورة كتابتها وأنها بالصاد والتاء كما هي كلمة الصلت من قولهم صلت الجبين. ومع هذا يجوز أن تكون هذه اللفظة عربية الأصل ملموحًا فيها معنى الصلت الذي به المجرّد ويكون قد روعِيَ في هذه التسمية موقع البلدة الطبيعي يوم أطلق عليها ذلك الاسم. كذلك يجوز أن تكون لفظة أعجمية الأصل قد أعطاها العرب اسمًا يوجد مثله في لغتهم وهذا ممّا يقع عندنا

كثيرًا. فأمّا إذا ذهبنا إلى كتابة الصلت «سلطًا» فنكون رجّحنا بدون مرجّح إذا المناسبة بين معنى هذه اللفظة وبين هيئة البلدة مفقودة والمنقول الذي له مناسبة أولى من المرتجل الذي ليست لها مناسبة. فعمّال البريد في «الصلت» جديرون بأن لا يسمعوا منك!

جنيف شكيب أرسلان

* * *

الإنكليز أمّة تقليدية
هكذا يقول ناظر خارجيّتها!
لعطوفة كاتب العرب الأكبر الأمير شكيب أرسلان

جاء المستر تشمبرلين في هذه الأيام إلى باريز واجتمع مع المسيو بريان وأعلن لأرباب الصحف الذين جاءوا يسئلونه عن الموقف السياسي أنه اتّفق مع المسيو بريان في كلّ النقاط التي أجالا قداح البحث فيها لكنّه لم يعقد معه محالفة. كما أنه لم يفكّر في عقد المحالفة التي شاع أنه يريد عقدها بين إنكلترا وإيطاليا وإسبانيا واليونان. وقد سئلوه عن رأيه في جمعيّة الأمم فأجابهم بأنه لا يبالغ في تأثيرها وأنه سيمضي زمن طويل حتّى تكون المركز الذي تأسّست لأجله وتحكم في مسائل الحرب والسلم حكمها مسمطًا. قال فإنَّ مركزًا كهذا لا يتأتى لجمعيّة الأمم في بضع سنوات، على أنَّ جمعيّة الأمم تزداد ثقة الناس بها سنة فسنة وهي تزداد ثقة في نفسها. قال فقد وصلنا إلى كوننا نقدر على المنافسة علنًا في المسائل الدقيقة التي كانت في الماضي من مواضيع المذكّرات الخفيّة. فأنا كلّما جئت إلى جنيف أرى ثقتي قد ازدادت في الجمعيّة بشرط أن لا يكون منظورًا إليها كدولة فوق الدول، بل كمجمع دولي مؤلّف من حكومات مستقلّة بذواتها يجب أن تكون قراراتها الخطيرة بالاتّفاق. ولا يخفى أنَّ مثل هذا يلزم له زمن مديد لأنَّ سلاحنا الوحيد إنَّما سلاح الإقناع، فكفرد من أمّة تقليدية قانونها الأساسي لم يؤلّف إلاّ تدريجيًّا ولم يسنّ منه مادّة إلاّ بعد تحقّق فائدتها، تراني أنظر إلى عصبة الأمم نظرة إنكليزية، وأعتقد أنَّ المقرّرات الأخيرة التي جرت فيها ستكفل تقدّمًا محسوسًا في قضيّتَي نزع السلاح والتأمين. انتهى.

قلت: مسكينة الأمّة الإنكليزية التي أكثر أعضاء برلمانها من المحافظين والتي يقول ناظر أمور خارجيّتها أنها "أمّة تقليدية" لا تسنّ القوانين إلاّ شيئًا فشيئًا بعد الخبرة وظهور الفائدة. مسكينة هذه الأمّة التي تنظر دائمًا إلى ما ورائها وتربط الحديث بالقديم ولا تعدّ القديم حديثًا ماضيًا تخالف النظر إليه سنّة الرقيّ كما يرى بعض الناس في الشرق...

مسكينة لأنها مع هذه المبادئ لا تسود إلاّ على أربعمائة مليون من البشر لا غير... ولا يدخل خزانتها إلاّ ثمانمائة مليون جنيه سترليني ذهب... ولا تملك إلاّ أعظم أسطول في العالم...

فمَن له أذنان فليسمع.

جنيف شكيب أرسلان

* * *

مصاب جلل ومشتاق بلا أمل

لعطوفة كاتب العرب الأكبر الأمير شكيب أرسلان

يعيش الإنسان بالآمال، فمنها ما تحقّقه الأيام ومنها ما تخترمه المنون كما تخترم الآجال. وكثيرًا ما تأتي الدنيا بما ليس في الحساب وتحول دون الشيء وقد تهيأت له جميع الأسباب، وخلته أطلّ من الباب. وقد صادفني في هذه الحياة أن رأيت مَن اعتقدت رؤيتي إيّاه هي والأولى والآخرة فإذا به أمامي كيفما ذهبت. بعكس ذلك فارقت أناسًا على أن يرجعوا إلى بعد خمس دقائق فذهبوا ولم يرجعوا لا في الدقائق ولا في الساعات ولا في الأيام ولا في الشهور ولا في السنين، وماتوا بدون أن نجتمع. وكم كنت في هذه الغربة فكّر في إخواني وأحبّائي وأترابي وأقدّر لنفسي معهم من الاجتماعات وأتخيّل لها الأزمنة والأمكنة والهيئات والبيئات، وأحسب ذلك على طرف التمام وماتوا وانطووا وماتت بموتهم تلك الخيالات وانطوت واحسرتاه هاتيك العلالات. وكان يبلغ بي تجسيم الخيال أن أتحدّث في نفسي إلى مَن اشتاق إلى لقائه من إخواني وأحاوره ويحاورني وأعد نفسي بإعادة هذا الحوار المخيّل عليه عندما يتحقّق اللقاء. وبينما أنا في هذه الآمال إذ زحفت عليها مصارع الآجال فأعادتها هساهس وجعلتها وساوس لعلّها أحاديث ونجاوى بين النفوس ولعلّ الفوتوغرافيا إذا تقدّمت أيضًا تصوّر حركات الأرواح كما تصوّر الآن حركات الأشباح، وتبرز آثار مدبّ الأفكار في الفضاء على أديم الهواء وتكون تلك النجاوى قد وقعت فعلاً وهاتيك اللقيات ليست توهّمًا ولا حلمًا. ولمّا انتقل الأخ مختار بيهم إلى الدار الباقية كنت ممَّن أمنّي النفس بلقائه وممَّن أناجيه على بُعد الدار وشطاط المزار، وأعتقد أني لا بدَّ أن أراه وأحدّثه بها بهاتيك الرسائل النفيسة وأسأله عن علم وصولها فلمّا جاءني نعيه، رحمه الله، علمت أنَّ أعذب الأحلام ما لا يتحقّق وكان من جملة رثائي له هذه الأبيات:

أعـزز عـلـى أبـا أمـيـن أنـه

أملي بقربـك عـاد وهو بـوار

قد كنت أرجو أن أراك فإذا به

مـا بعـد ذيـاك العـشـيّ عـرار

أبـدًا أطـارحـك النُّجـى كـأنـنـا

رغـم المسـاوف بيـنـنـا سـمّـار

وكم من خلّ مضى وتَرب صارا الترب وأنا مؤمّل لقاءه وسأمضي أنا وكثير من الإخوان والأعزّة مؤملون لقائي وستخيب آمالهم برؤيتي وتنقضي الأعمار ولا تنقضي الأماني، وإنَّ ألذّ أماني الإنسان لقاء الأعزّة، وإنَّ أشقّ خيبات الآمال خيبة مَن لم يبقَ له أمل في اللقاء، ولم يبعد كثيرًا عن الواقع الذي قال:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت

أيدي المنايا إلى أرواحنا سبلا

التمست مرارًا الأذن لي بالذهاب إلى فلسطين ولم يكن لي أقلّ شغل في فلسطين ولكنّه الحنين إلى بلاد عربية والقصد المجرّد إلى مشاهدة الأحباب. والله يعلم أنه لم يكن فيهم أعزّ من الأخ الأجل والخلّ الأمثل الرفيع المحلّ سليل المجد الأقعس وذؤابة الشرف الأنفس أحد أركان فلسطين المشار إليهم بالبنان المرحوم المغفور له الحاج حافظ بك طوقان فكنت لا أفوز بهذه الرخصة ولو إلى أجل مسمّى ولو تحت كفالة مَن شاءت السلطة بأني لا أدخل في أثناء إقامتي بفلسطين بشيء اسمه سياسة!

وهكذا لم يكتفِ الأجانب بالاستيلاء على أوطاننا حتّى حالوا بيننا وبين مشاهدة إخواننا. وكنت أشتاق إلى أخي الحاج حافظ على أمل باللقاء فها أناذا مشتاق إليه على غير أمل به وها هي حسراتي تنزل معي التراب. وها هي دموعي على الفائت الذي لا يعود. وهو ذا استحساني إلى ذلك الوجه الذي كنت أطمع أن أراه فلن أراه. فأسأل الله الذي جعل الأرواح جنودًا مجنّدة أن يجمع بين هاتين الروحين في الآخرة. فقد كانتا متآخيتين في هذه الدنيا تشعران شعورًا واحدًا في النعماء والبأساء وتتّحدان روحًا واحدة فيما سَرّ وفيما ساء.

وأمّا فلسطين فقد فقدت بفقده الركن الذي لا تهتزّ لحادث نواحيه. والعضد الذي لا تفت النوائب فيه. والأخ الحميم والأب الشفيق والشهم الذي سيطول افتقادها بدره. والغطريف الذي ستعلم كلّ يوم قدَره. ولعمري إنَّه الفقيد الذي يعزّ نظيره والراحل الذي يندر مَن يسدّ مسدّه، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. رعاك الله يا حافظ الذمام. وطيّب الآباء

والأعمام. وأكرم نزلك في جواره وجعل رحلتك إلى رَوحه ورَيحانه. وألهمنا جميل الصبر على فراقك وأحسن عزاءنا بأخيك وأنجالك، ونَمْ في أمان وثِقْ بنعيم من ربّك مقيم وسلام قولاً من ربّ رحيم فأنت كريم وقد حلّ بساحة كريم. وأيّ كريم. لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم.

لوزان

شكيب أرسلان

* * *

تعلم ما في نفسي!

لعطوفة كاتب العرب الأكبر الأمير شكيب أرسلان

كثيرًا ما أكتب الجملة وأريد إتمامها بعبارة أو كلمة فتتزاحم الخواطر في رأسي فتذهب بما كنت أريد أن أقوله وتبقى ناقصة وتلبث تلك العبارة المتمّمة لها في قعر الدواة. وقد أعيد النظر على ما كتبت فأفطن لموضع النقص وأسدده وقد تحوّل عدواء الشغل ووفرة الوارد والصادر من الكتب فأسرّح المقالة بدون إعادة النظر عليها وعندما تجيء في الجرائد مطبوعة أرى فيها الزائد والناقص وينغّص ذلك على لذّة قراءتها. وكم من مرّة رميت بالجريدة التي فيها مثل هذا السهو جانبًا لأنه لو كانت كلمة محرّفة أو مصحّفة بجهل منضّد الحروف لأمكن تصحيحها في عدد آتٍ من الجريدة أو المجلّة ولكن الجملة الناقصة يكون من أبرد الأمور أن تعتذر بأنها بقيت في كعب الدواة!

وفي المقالة التي كتبتها من أميركا ونشرتها «الشورى» تحت عنوان «مهين عند قومه مكرّم عند الناس» جملة من هذا النمط، فقد كنت أريد أن أقول «إنَّ مجموع الأمّة عبارة عن جسم معنوي ولا يخلو من أن تطرأ عليه عوارض الأمراض الاجتماعية كما تطرأ على الجسم الحيواني عوارض الأمراض البدنية» فقلت «إذ مجموع الأمّة شخص معنوي لا يخلو أن تطرأ على الجسم الحيواني عوارض الأمراض البدنية» فكلّ مَن قرأ هذه الجملة وكان ذا لبّ وفهم عَلِمَ أنَّ فيها نقصًا وأنَّ هناك في قعر الدواة كلامًا. ولكن سيِّد الألِبّاء وإمام المدقّقين الأستاذ السيِّد رشيد رضا عندما كرّم تلك المقالة بنقلها إلى مجلّته «المنار» ووضع علامة على الجملة التي تخلّف بعضها في الدواة وقال: «كذا في الأصل المطبوع والظاهر أنه سقط منه شيء وأن يكون أصله: لا يخلو من أن تطرأ عليه عوارض الأمراض الاجتماعية كما تطرأ على الجسم الحيواني عوارض الأمراض البدينة».

فعلم ما في نفسي بتمامه بدون أن يغيب عنه حرف. وقد وقع لبعض الشعراء أنه كان ينشد الشطر الأول من البيت ويقال له أكمله فكان يقول الشطر الثاني وهو لا يعلم أنَّ

الشطر الثاني قد قيل من قبل فيأتي قوله طبق قول الأول ولم يكن سمعه في حياته. فكان الناس يقضون العجب من مثل هذا التوارد وقد يقع في أنفسهم شيء من جهة صحّة الخبر ولكن هذا الشاهد الذي جاء في «المنار» دليل على صحّة تلك الأخبار.

لوزان

شكيب أرسلان

* * *

من أجل الشهيد الكريم

لأديب العرب الأكبر الأمير شكيب أرسلان

قرأت في «الشورى» أنَّ بعض الوطنيين الفلسطينيين سيطبعون صورة الشهيد الكبير أحمد المريود على البطاقات البريدية تخليدًا لذكره.

فشكرت للوطنيين الفلسطينيين هذه الفكرة السامية.

وأحمد المريود، رحمه الله، يجب أن تطبع صورته لا على البطائق البريدية فحسب، بل في الكتب المدرسية التي يتعلّم بها الأحداث حتّى يحفظوا اسم المريود وصورته من نعومة الأظفار.

ويجب أن يطلق اسمه على شوارع شهيرة في مدن برّ الشام فيقال جادة المريود وشارع المريود وما أشبه ذلك بدلاً من شارع غورو وشارع اللنبي وأمثالهما ممَّن ذكرهم إيذان بسقوط الوطن في يد الأجنبي.

ويجب أن تُسمّى باَسمه مدارس ومكاتب في الأقطار الشامية فيقال مكتبة المريود ومكتب المريود ومدرسة المريود وما جرى هذا المجرى. فليس شيء من هذا بكثير على هذا البطل العربي.

ويجب أن يقام كلّ حول مأتم في مثل يوم استشهاد أحمد المريود فتنشد فيه المراثي وتُلقى الخطب ويتذكّر الناس أعمال الأبطال الذين قامت على جماجمهم دعائم الاستقلال السوري العربي وماتوا لتحيا أمّتهم. ولتكن ساحة المرجة في فيحاء الشام هي الساحة التي تموج بالألوف من المحتفلين بتذكار يومه إذا كانت هناك قد عرضت تجاليده بيد العدوّ والشامت على العيون الباكية دمًا لفقده.

كلّما تذكّرت كيفيّة مصرع أحمد المريود في قلّة من أهله في بلدته وسقوط عدّة من إخوته وبني عمّه من حوله قتلى مرتفعين شهداء عند ربّهم جاءت في بالي حادثة قتل سيِّدنا وقرّة أعيننا الحسين بن علي بن أبي طالب (ﷺ)، في نفرقلائل من أهله. تلك الفاجعة التي

لا يزال ألم ذكراها في القلوب إلى يوم القيامة. طيف برؤوسهم لأجل الشماتة فكانت تلك الرؤوس أغلى وأعزّ ما حافظ عليه المسلمون إلى اليوم.

فرحمك الله يا أحمد المريود. وإنَّ سورية لمديونة لك بأسرها ومضمخة بعبير دمك الطاهر الزكي الذي هو أفضل ما تتعطّر به، وهنيئًا لك بمقعد صدق عند ربّك وهنيئًا لك بمقام خلود في التاريخ. إنَّ الحياة هي حياة الأرواح والحديث الحسن بعد الوفاة لا حياة المآكل والمشارب التي هي أليَق بالحيوان ممّا هي بالإنسان.

لوزان

شيكب أرسلان

***

مجمعٌ للبحث في العلاقات بين إسبانية وأميركا الجنوبية

لعطوفة كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان

ورد في جريدة الطان عددها المؤرَّخ في ١٤ فبراير رسالة عن مادريد مآلها أنه افتتح في تلك العاصمة مجمع للبحث في العلاقات بين إسبانية وأميركا الجنوبية، إذ لا يخفى كون أكثر ممالك جنوبي أميركا مأهولاً بأمم ترجع إلى أصل إسبانيولي وأنَّ هناك مساعي لزيادة روابط الاتّحاد بين الأصل والفروع.

فنهض المسيو يانغاس، ناظر الخارجية الإسبانية، وخطب في ذلك المؤتمر قائلاً:

«إنَّ العامل الاجتماعي هو الأهمّ في العلاقات المراد تقويتها بين إسبانية وأميركا الجنوبية. ولمّا كانت الروابط السياسية بين القطرين قد انفصمت من قبل، صار يجب السعي في إيجاد الوحدة الأدبية بينهما وذلك بزيادة العلاقات الروحية بين تلك الأمم الشقائق.

وممّا لا شكّ فيه أنَّ فكرة التكافل بين أبناء السلالة الواحدة تلقى مزيد القبول عند أهل إسبانية وأهل اميركا الجنوبية».

ثمَّ تكلّم الوزير الإسبانيولي على العلاقات الاقتصادية فلم ينكر البال الذي لها إلاّ أنه صرّح بكون وحدة الأمّة قائمة بالعلاقات الروحية وأنه من الواجب تأسيس الروابط العقلية بين الأصل والفروع لتوطيد روح الوحدة بينهما.

وأخذ يشرح عن مساعي الأمم الأوربية كلّ من جهتها في نشر دعايتها الروحية والفكرية وذلك بواسطة الجمعيّات الخاصّة وأوضح أنَّ الحكومات الأوربية لم تقعد عن الأعمال الرسمية أيضًا في نشر لغاتها وثقافاتها. إلى أن قال:

«إنَّ أقصى همّ الدولة الإسبانية هو تأسيس مكتب أميركي خاصّ في نظارة الخارجية بمادريد يشتمل على مكتب استعلامات وذلك لتنمية الروابط الروحية والعقلية داخلة فيها الفنون والآداب والعلوم التي يجب أن يعوّل عليها عند الفريقين». انتهى.

ونحن نقول للعرب اتّخذوا هذه الأمثولة لأنفسكم وضعوها نصب أعينكم لأنكم بالموقف نفسه.

أولاً - إنَّ العامل الاجتماعي هو الأقوى بين الأمم وإنَّ ركنه هو اللغة والثقافة قبل كلّ رابطة أخرى.

ثانيًا - ينبغي أن تنشر في سورية والعراق وجزيرة العرب كلّها روح الدعاية الأدبية وأن تتشبّع الضمائر بأننا سكّان هذ البلدان كلّها أمّة واحدة أصلها واحد وغايتها واحدة.

ثالثًا - يجب أنَّ الحكومات الحجازية واليمانية والنجدية والعراقية والحضرمية والعمانية وحكومة سورية الآتية في الطريق تجعل بثّ روح هذه الوحدة أقصى همّها وأن ترصد لها المساعي الرسمية فضلاً عن المساعي الخصوصية التي يقوم بها الزعماء والمفكّرون. ويناسب منذ الآن أن يؤسّس الملك ابن السعود في نظارته الخارجية والإمام يحيى في مثلها في مملكته والملك فيصل بن علي في نظارة الخارجية العراقية مكاتب أشبه بالمكتب الذي يشير الوزير الإسباني إلى تأسيسه ومزيد الاهتمام به في نظارة الخارجية الإسبانية لأجل زيادة روابط الوحدة المعنوية بين إسبانية وإخوانها ممالك أميركا الجنوبية. فنحن الممالك العربية أحوج إلى الانضمام من إسبانية وأميركا الجنوبية إذ ليس عليها من أخطار الابتلاع ما علينا...

وبالاختصار الأمّة التي لا تبكّر مذ اليوم إلى ضمّ شملها ولمّ شعثها هي ذاهبة. وإنَّ جمع الشمل السياسي لا يكون إلاّ بلمّ الشعث الاجتماعي وببثّ روح الوحدة الأدبية. وقد بقيت جرمانيا ألف سنة في النزاع والشقاق وأمراؤها يحارب بعضهم بعضًا مع انضوائهم جميعًا تحت علم القيصرية إلى أن ارتفع سويّها العلمي وانتشرت فيها المعارف فتحقّقت بذلك الوحدة المعنوية وتبعتها الوحدة المادّية وأصبحت الوحدة الجرمانية كلمة متحقّقة في جميع وجوه الحياة وعاد تعدّد الممالك والإمارات الألمانية ليس له أدنى حكم مع اتّحاد الأرواح. فليتّخذ العرب مثال ألمانيا ينسجون عليه وإذا تطلّعوا إلى التاريخ وجدوه غنيًّا بالأمثلة.

فورت سميث أركانس

شكيب أرسلان

حفلة تكريم شوقي في باريس

خطاب الأمير شكيب أرسلان

(باريس، في ٣٠ مايو ـ لمراسل الشورى الخاصّ)

في الساعة التاسعة من مساء ٣٠ مايو أقبل المدعوّون على منزل المسيو دومرغ المصوّر الشهير الذي تقرّر أن يكون الاجتماع فيه، فكان المنزل بارزًا في حفلة باهرة من الزينة تأخذ بالأبصار ولمّا انتظم عقد الاجتماع قام المسيو توسين وقرأ خطبة في موضع الحفلة وفي مقاصد جمعيّة فرانس ـ إسلام ونوّه بفضل الشرق على الغرب واعترف بأنَّ مبادئ الشرق هي أسمى وأسنى من مبادئ الغرب، وأنَّ الحرب العامّة قد أثبتت فساد نظريّات الغرب وأوضحت كون المدنيّة المبنية على المادّة وحدها قاصرة عن الوفاء بحاجة الإنسانية إنَّ أمراض المدنيّة الغربية الحادثة قد بدأت تسري إلى الشرق وأورد مثلاً على ذلك صنيع أنقرة التي نقضت التقاليد ومرقت من الديانة مع أنَّ هاتين هما البيان في عظمة تركيا السابقة. وأطال في هذا الموضوع وختم كلامه بالإشارة إلى فضل شوقي أكبر شعراء مصر، والتمس من الأمير شكيب أرسلان أن يتكلّم في شاعرية شوقي ويوفي هذا المقام حقّه فنهض الأمير وتكلّم بالإفرنسية فقسّم خطبته، بل محاضرته إلى ثلاثة أقسام أولها في الشعر العربي على وجه الإجمال والثاني في شعر أحمد شوقي خاصّة والثالث في علاقاته الأخوية منذ ٣٥ سنة مع الشاعر العصري الأكبر.

فأمّا الشعر العربي فذكر أنَّ أصحابه ينقسمون إلى خمس طبقات الجاهليين فالمخضرمين فالإسلاميين فالمولّدين فالمعاصرين ثمَّ ذكر فحول شعراء الجاهلية وأصحاب المعلّقات السبع وأشار إلى مجامع العرب كسوق عكاظ وغيرها، وقال إنَّ هذا المقام يستلزم شرحًا طويلاً لا تقوم به إلاّ عدّة محاضرات وإنّما هذه عجالة يراد بها إعطاء صورة عامّة وأنَّ مزيّة الشعر الجاهلي هو الفحولة والجزالة مع زيادة القرب من الطبيعة، ولذلك يكثر فيه وصف الإبل والخيل والرياح والسحاب والبيداء وما أشبه ذلك ممّا كان نصب عين العرب كما أنه يمثّل أخلاق العرب وأحوالهم النفسية ويعطي صورة لا توجد عند أمم أتمّ منها عن مناقب الفرسان والفروسية التي مآلها الجمع بين الأضداد من القسوة المتناهية في الحرب إلى الرقّة المتناهية في السلم وما كان من فخار العرب بقَري الضيف وحماية النزيل وإباء الضيم

والعفو عند المقدرة وأنَّ الملاجيء إذا أمسك بأطناب بيت لم يجُز مسّه بأدنى سوء ولو كان في تلك الساعة قد قَتَل أحد أولاد صاحب البيت ممّا تتناهى عنده معالي الهمم ومكارم الأخلاق. قال وللشعر الجاهلي مزيّة لغوية هو أنه أصل اللغة وهي ترجع إليه وأنَّ قواعد النحو مرتّبة عليه ثمَّ ذكر طريقة المخضرمين الذين عاشوا قسمًا من حياتهم في الجاهلية وقسمًا كحسان بن ثابت وأنظاره في الإسلام وقال إنَّ لغتهم لغة الجاهلية مع نفحة دينية جاءتهم من القرآن ثمَّ ذكر الإسلاميين الذين ولدوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق والأخطل المسيحي، وقال إنَّ شعرهم أقرب إلى المدنيّة من شعر الجاهلية، ولكن فيه من الفحولة ما في الجاهلي، وهو ثقة في اللغة ويستشهد به في علم العربية. ثمَّ وصل إلى المولّدين وقال إنَّ شعرهم عليه مسحة الحضارة وفيه من الرقّة ودقّة المعنى وتهذيب اللفظ ما قيس في شعر مَن قبلهم ولكن فيه صنعه وأحيانًا تكلّف [...]، لكنّه لا يصحّ أن يكون بحجّة أنَّ شعر القوم بعد أن اتّسعت فتوحات العرب واختلطوا بالأعاجم فشت العجمة في اللغة. ثمَّ انتقل الأمير إلى ذكر شوقي ووصف شعره وقال إنَّه مع عدم خلّوه من مظان انتقاد يُعدّ أعلى طبقة في الشعر الحاضر، ولا نزاع أنَّ شوقي أكبر شاعر في العالم العربي اليوم. قال وكان أحد أصحاب المجلاّت سأله منذ نحو ٢٠ سنة عن رأيه في شعراء العصر فحرّر مقالة مآلها أنَّ ابن الأثير، صاحب المثل السائر، اختار من المولّدين أبا تمّام والمتنبّي والبحتري وسمّاهم لات الشعر وعزاه ومناته، وهكذا كاد ينعقد أجماع الناس وأنه هو يختار البارودي وشوقي وحافظ ابراهيم من بين شعراء الوقت ويرى البارودي أشبه الشعراء بأبي تمّام في علوّ النفس وجزالة اللفظ وصولة الأسلوب وشوقي أشبه الشعراء بالمتنبّي في دقّة المعاني وجري الأبيات مجرى الأمثال السائرة، وحافظًا كالبحتري في الانسجام والطلاوة ووحدة النسج. قال ولا يخرج من تلك أنهم هم الثلاثة قد انفردوا بالإجادة، بل هناك بضعة عشر شاعرًا في الشام ومصر والعراق ـ وكان منهم في تونس ـ معدودون من الفحول ذكر منهم الرصافي معروفًا والكاظمي وخليل المطران واسماعيل صبري وإيليّا أبا ماضي وفؤاد الخطيب والزركلي والملاّط وغيرهم قال فأمّا شوقي فقد عابه بعضهم بكونه مقلّدًا وأنه لم يأتِ بأسلوب جديد وأنه حافظ على طريقة الأوّلين وليس هذا الامتعاض بوارد، بل من أحسن محاسن شوقي محافظته على اللغة، وهذا أناتول فرانس كان من أشدّ أدباء الغرب على التقاليد وأولعهم بنقض القديم إلاّ أنه كان المحافظ الأكبر على الأسلوب التدريسي. ثمَّ قال إنَّ شوقي حصّل علومه في فرنسا وهو من أعظم المستنيرين بضياء المعارف الغربية، ولا يكاد يوجد موضوع

عصري لم يتعرّض له شوقي ولا حادثة عصرية إلاّ جاءت في شعره ولكن جاء ذلك في القالب العربي الحرّ الذي لولاه لا يبقى أدنى طلاوة لمعنى ولا حلاوة لنكتة فاللغة هي جمال كلّ منطق. قال الأمير، من جملة ما قال العرب:

الشعراء في الزمان أربعة
فشاعر يجري ولا يُجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعة
وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقّه أن تصفعه

وفسّر ذلك للجمهور بالفرنساوي حرفيًا فتلذّذ بذلك الحاضرون ثمَّ قال لهم إنَّ شوقي هو اليوم الذي يجري ولا يُجرى معه. وقال إنَّه شاعر وطني عميق الإحساس حرّ النزعة، وممّا زاد في منزلته عند الشرقيين وحبّبه إليهم حبًّا جمًّا كونه شاركهم في آلامهم وناح معهم في مصائبهم الأخيرة بصوته الذي يهزّ أوتار القلوب وبيانه الطالع كالفجر في ليالي الخطوب.

وختم الأمير محاضرته بذكر علاقته الخاصّة مع شوقي وأنهما تِربان من جهة العمر، وقد تعارفا في باريس عندما كانا في مقتبل العمر، وأنه هو الذي أشار على شوقي بتسمية كتابه بـ «الشوقيّات»، كما ذكر ذلك شوقي [...].

* * *

الأمير شكيب وكتابه
عن شوقي ★

لا شكّ أنّ الأمير شكيب أرسلان هو أبرز شخصيّة في العالم الإسلامي، وأعظم رجل يلتجئ إليه المسلمون عند الملمّات في مشارق الأرض ومغاربها؛ وقد أحرز على تلك المكانة بتضحية مستمرّة دفاعًا عن المسلمين طيلة نصف قرن. فإليه تتّجه الأنظار إذا حصل للإسلام ضيم أو أصيب في لغته وثقافته. وشكيب أرسلان لا يهمّه شيء على قدر ما هو مهتمّ بالإسلام واللغة العربية. بالأمس مثلاً قامت الحرب في الحبشة ونظر الناس إليها نظرات مختلفة ولكنّه نظر إليها من جهة مصلحة المسلمين فقط، نعم جرّ عليه موقفه انتقاد بعض المندفعين بعامل الدعاية البريطانية. ولكن الحقّ كان في جانبه.

ومنذ ستّ سنوات كتب له هذا العاجز يستفسره عن تصريحات فاه بها شوكت علي ضدّ حركة الهندوس فأجاب بما معناه: «نحن لا يهمّنا من أمر الهند إلاّ الإسلام وزاد حفظه الله: شوكت علي أثبت وطنية وإسلامًا من كثير ممَّن طعنوا فيه وهو محتاج للإنجليز في قضيّة التأمينات اللازمة لمسلمي الهند وهذه تهمة أكثر من كلّ شيء وهي بذاتها مهمّة».

وورد له في حديث مع المقيم السابق مسيو بونصو ما يلي: «أمّا من جهة السياسة فأهل المغرب أحرار أن يختاروا ما يشاءون وغاية أمانينا أن يكونوا على وئام مع فرنسا وأمّا من جهة الدين الإسلامي واللغة العربية فإنَّنا متكافلون مع المغاربة أشدّ التكافل لا فرق بين المغرب والمشرق».

ما لي أريد أن أثبت بالحجّة لقرّاء الأطلس ما يؤمنون به ويعرفونه حقّ المعرفة. مَن منهم يجادل بأنَّ ذلك الأمير الجليل متشبّع بروح إسلامية عامّة، ومَن منهم يجهل أنَّ عاطفته الوطنية تأبى أن تنحصر ضمن حدود سوريا الضيّقة؟ ومع ذلك أجد لذّة في إقامة البرهان وإن كنت أعلم أنَّ النهار لا يحتاج إلى دليل فليسمح القارئ بأن أقطف زهرة أخرى من كتاب الأمير تبيّن رفعة مبادئه وسموّ وطنيّته، قال حفظه الله: الإسلام وطن لكلّ مسلم أينما

★ الأطلس، ص. ٥.

كان وهذه من أهمّ مزايا الإسلام. والوطنية والإسلام أشدّ امتزاجًا من الوطنية واللادينية وأنا لا أفهم لِما يكون المسلم اللاديني وطنيًّا. فالوطني المسلم بموجب عقيدته يرى نفسه أنه إن كان الأذلّ في الدنيا فهو الأعزّ في الآخرة، ويرى أيضًا أنه ما يصاب به الإسلام من طائلة الكفر عليه فإنَّما هو تمحيص ليعود المسلمون إلى العمل بأوامر الله ونواهيه وأنه لا بدَّ للإسلام من الظهور على الجميع في الآخرة والوطني المسلم يعتقد أنه وإن كان دون الأوربي في المادّة فهو فوقه في المعنى؛ ومن أجل هذا وأشباهه تجده واثقًا بنفسه معتقدًا أنَّ الله لا بدَّ أن يظفره مهما بلغ ذلّة.

***

وبعد فلست أدري ما الحامل لي على كتابة ما تقدّم، فليس لمثلي أن يتجرّأ ويكتب عن شكيب أرسلان ليعرف بمذهبه في الوطنية ومكانته في الإسلام وإنَّما قصدت الكلام على كتابه عن شوقي.

وكتاب «شوقي أو صداقة أربعين سنة» هو حلقة من سلسلة كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن المقفّع في سلاسة التعبير ولطف المعنى وإفراغ الفوائد الجمّة في قالب التسلية والفكاهة. إلاّ أنَّ هذا الكتاب رمز لِما هو أسمى وأعلى، ذلك أنه مثال نادر من أمثلة الوفاء والمحافظة على العهد.

كتاب شوقي إنَّما هو مجموعة خواطر الأمير حول صديقه، جمعها كما وردت في ذهنه ودفعها للمطبعة فلا تشعر فيها بتكلّف ولا بتصنّع، بل الذين يعرفون الأمير وكان لهم الشرف الأقصى بمعاشرته والقرب منه عندما يطالعون هذا الكتاب سيتخيّلون الأمير يتحدّث إليهم ويقصّ عليهم شطرًا من حياته، كما كان يقصّه عليهم وهو في نزهته حوالي بحيرة (ليمان) إذا الشمس غربت واخضرّ الجوّ وتورّدت ثلوج جبال سويسرا؛ وإذا تكلّم الأمير عن الشطر من حياته المتّصل بالأدب فإنَّما يتكلّم عن نهضة الأدب العربي وتطوّره في عصرنا؛ فمَن يجهل أنه من الأركان التي قام عليها هذا النهوض وهذا التطوّر؟

وسيتعجّب قارئ كتاب شوقي من هذه الذاكرة القوية التي حافظت على هذه الذكريات وهذه الحوادث بكلّ دقّة ولا يظنّ أنَّ الأمير عند كتابة ما كتب كان يراجع التقاييد ويلفّق الوثائق؛ وإنَّما كتابه مجرّد إملاءات أملاها كما أتت عفوًا منقادًا لتسلسل أفكاره.

وإذا أردت أن تعلم غاية الأمير من تأليف كتابه فراجع صحيفة 135 حيث يقول: «إنَّما هي رسالة توخَّينا فيها تجديد ذكرى شاعر كبير وتسجيل علاقتنا مع أخ قديم إنجازًا لوعد قطعناه على نفسنا يوم فُجعنا به؛ والإخاء إخاء في الحياة وبعد الممات؛ وعلى اللاحق أن يحفظ عهد السابق».

وفي هذا التعريف كثير من التواضع، إذ في الكتاب غير ذلك من شرح شعر شوقي والدفاع عنه ومقارنات بين بعض الأدباء ومناقشات أدبية طريفة فيها الفائدة وفيها التسلية.

وجواب الأمير على مَن سينتقدون طريقته في النقد الأدبي يوجد في صحيفة 136 بفصل أُطلق عليه هذا العنوان «رأي للمؤلف».

ونحن ننصح قارئ الكتاب أن يبدأ بذلك الفصل خاصّة إن كان من أنصار التجديد في الأدب.

إنَّ الذين سينتقدون على الأمير طريقته هم مَن ليس لهم ولع ولا شغف بأيمة الأدب العربي في عصر عزّه ورفعته؛ والأمير لا يخاطب هذه الطبقة من القرّاء.

إنَّ كتاب شوقي سيزيد المعجبين بشوقي إعجابًا وسيرسل لهم ضياء على جهات كثيرة من أدبه وفضله؛ أمّا خصوم شوقي فالأَوْلى لهم ألا يطالعوا هذا الكتاب إن أرادوا المحافظة على خصومتهم لأديب مثل إحياء الشعر العربي أحسن تمثيل.

أحمد بلافريج



كتاب سياسي من الأمير شكيب أرسلان عن المعاهدة السورية وعن الوحدة العربية ★

أرسل الأمير شكيب أرسلان، عضو الوفد السوري الدائم في جنيف، إلى الشاعر الأستاذ حليم دموس كتابًا جاء فيه:

المعاهدة السورية الفرنسية

أمّا من جهة (المعاهدة السورية الفرنسية) فكلّ من معاهدة مصر ومعاهدة العراق مع إنكلترا ليست خيرًا منها. وسترون أنَّ السوريين بذكائهم يجتنون منها ثمرات تزيد على ما يجتنيه غيرهم من أمثالها. وغالب الظنّ أنَّ الفرنسيين أنفسهم سيسلكون بعد الآن حيال سوريا خطّة ولاء غير مشوبة بمقاصد استعمارية لأنَّ الوقت تغيّر. وقد شاهدوا ما جرى من انقلاب السوريين في لحظة واحدة عن الجفاء إلى الصفاء وأدركوا أنهم كانوا غير مسدّدين في سياستهم الماضية.

وهذه الاحتفالات الباهرة من أجل الوفد الذي أبرم المعاهدة زادتهم يقينًا بأنَّ سياستهم الماضية في سوريا لم تكن رشيدة.

الصورة التي لم يسبق لها مثيل أوعت قلبي سرورًا. ومن نصف ساعة كنت أكتب عن ذلك إلى الأخ إميل الخوري وأشرح له سروري بهذا الاستقبال لأني والحمد لله معافى من داء الحسد وآفة المفاسد. ومَن كان مثل رياض فيجب أن ندفعه بالراح إلى الأمام.

الأمير والحزب السوري القومي

كان بعض المفسدين أشاعوا أنَّ لي علاقة بالحزب القومي السوري وذلك بواسطة يوسف بك الحويّك. وهذا محض كذب لا أصل له وقد شرحت هذه القصّة في المقالة الواصلة بالمقطّم لأنَّ الخبر كان قد نُشر في هذه الجريدة فأرجو أن تقرأوها وأن تُطلِعوا عليها مَن يلزم.

★ البريد، العدد: ١٥٧٧، سنة ١٩٣٦.

المعاهدة مع لبنان

أمّا (لبنان) فستعقد معه معاهدة مماثلة لمعاهدة سوريا وسيأتي يوم تتّحد فيه الحكومتان في الأمور العمومية ويبقى لكلّ بلاد استقلالها في إدارتها الخاصّة.

الوحدة العربية

أمّا الوحدة العربية فهي سائرة إلىالأمام في الطريق. وقد خطت خطوات شاسعة في وقت قصير حتّى فوق ما كنت أتصوّره أنا. أنه لا يوجد بين المؤسّسين لهذا المشروع مَن عملَ في سبيله أكثر منّي والمكاتيب الكثيرة التي عندي من ابن السعود وفيصل والإمام يحيى والتي سابقيها لأجل التاريخ مصونة محفوظة تؤيّد أنني كنت أول مَن أخرج هذه الفكرة من طور التصوّر إلى طور العمل. وعندي كتاب من المرحوم الملك فيصل يقول لي فيه: أشهد أمام الله والناس أنك أول مَن تكلّم معي في "الوحدة العربية".

إنَّ الوحدة العربية في الأمور الخارجية والعسكرية والاقتصادية آتية لا ريب فيها، بل من الآن توجد مكالمات بين مصر والعراق في عقد تحالف عسكري كما جرى بين ابن سعود والعراق.

فالشرق تنبّه وعلم أنه لا يقدر أن يثبت في وجه الغارات الأجنبية إلاّ إذا كان كلّه كتلة واحدة. هنالك تبقى حرّيته ين الأمم محفوظة وإلاّ فهو مأكول لا محالة.



لؤم الصحفي الفرنسي جيروم
يزور سوريا فيشتم عظماءها
لتضع حكومتنا حدًا لهؤلاء الحثالات المبغضين ★

زار سوريا جيروم، صحفي فرنسي لئيم، واجتمع إلى بعض رجالات البلاد أمثال معالي الأستاذ شكري القوتلي، رئيس الوزراء بالوكالة، ومعالي الزعيم الأكبر الدكتور شهبندر وغيرهما. فراح يكتب في جريدة «أيبوك» الاستعمارية مختلقًا أحاديث مكذوبة ومشاهدات مختلفة وأحكامًا مفتراة، مصوّرًا البلاد السورية بأقبح الصور إن في الأخلاق أو في الاجتماع والسياسة موجّهًا عبارات الازدراء إلى رجال حكومتنا وزعمائنا.

وبعد أن عربنا جميع الفِقَر الهامّة من مقاله لم نشأ نشرها في الجهاد، وأحببنا أن نكتب كلمة اليوم حول هذا الضيف اللئيم وأمثاله من الحثالات الذين تقذف بهم إلينا شواطئ البحر فنفتح لهم صدرونا وبيوتنا ومكاتبنا ونكرّمهم ونضيفهم فلا يلبثون أن يهينونا على صفحات جرائدهم فيختلقون عن بلادنا اختلاقات هي صورة طبق الأصل عن أخلاقهم السافلة ونفسيّاتهم المنحطّة.

يقول جيروم تارو أنَّ الزعيم شهبندر قال له عن الأمير شكيب حول خطابه في جامع حلب أنه رجل من بواقي القرون الوسطى وأنه درزي وفي نظر الإسلام ملحد ويظنّ أنه فقد توازنه العقلي!!!

ويقول عن شعبنا السوري أنه كتلة شعب أميّ هو ألعوبة بين أيدي بعض المشاغبين كما يقول عن معالي الأستاذ شكري القوتلي أنه يعرف كيف «يتزوّق» باللباس الأنيق وإن دواخله لا تنطبق على مظاهره (كذا).

لقد كذب ورب الكعبة فإنَّ الزعيم الشهبندر، الرجل العالِم الاجتماعي المصلح، الذي لا يسمح لأحد أن يوجّه أصغر كلمة نحو أيّ كان من الناس في مجلسه هو أعلى وأشرف

★ الجهاد.

من أن يفوّه بشيء أمام أجنبي مجرم مثل "جيروم تارو!" بحقّ الأمير شكيب الذي استقبله على الحدود وعانقه عناقًا طويلاً.

أمّا ما قاله بحقّ معالي الأستاذ شكري القوتلي فليس ذلك بضائره وهو الذي أبرز عصاميّة فائقة بإدارته عدّة وزارات مع الرئاسة شهورًا عديدة مدّة سفرات الوفد دلّت على حزم ونشاط عظيمين.

وأمّا تصويره شعبنا النبيل بأنه كتلة شعب أميّ ألعوبة بين أيدي بعض المشاغبين فليس هو الفرنجي الأول الذي افترى على هذا الشعب أرواء لصدور استعمارية يتأكلها الحقد والبغض لكلّ شرقي وطني يناضل في سبيل الحرّية والاستقلال.

ويكفي الشعب فخرًا بأنَّ هؤلاء المشاغبين هم الذين قادوا حركات الكفاح فيه طيلة سبع عشرة سنة حتّى أوصلوا النهضة الفكرية التحريرية في البلاد إلى ما هي عليه من الوسعة والانتشار والقوّة التي لن تغلب.

بقبولنا أمثال هذا الاستعماري اللئيم وإفساحنا المجال له ولأمثاله من الحثالات لأن يجتمع بحكّامنا وزعمائنا فيختلق عنهم ويفتري على جمهور الشعب!

إنَّنا نطلب من حكومتنا الوطنية في عهد الإنشاء أن تضع حدًّا لأمثال جيروم تارو وإضرابه، وذلك بتوسيع تشكيلات دائرة المطبوعات وأحداث شعبة خاصّة فيها تعني بمراقبة جميع زوّار البلاد الأجانب من صحفيين وسوّاح لتحول دون مقاصدهم السيّئة كما تفعل الدول في جميع العالم.

في كلّ يوم نرى أشكالاً من الصور القبيحة في الصحف الأوربية يصوّرون بها بلادنا وكلّها كذب محض وافتراء بحت يسترعي الاهتمام، وقد كتبنا كثيرًا قبل الآن وكتب غيرنا أيضًا بهذا الموضوع فلم نرَ أثرًا من اهتمام الحكومات السابقة فعسى أن تبادر حكومتنا الوطنية بعد اليوم للقضاء على آمال هذه الفئة الاستعمارية اللئيمة الحقودة صيانة لكرامة الأمّة وسمعتها وسمعة عظمائها في البلاد النائية وليس ذلك على همّة العاملين الغيّورين بعزيز.

حول كتاب غزوات العرب في أوربة ★
إيضاح من أمير البيان شكيب أرسلان

نشرنا في الأسبوع الماضي الكلمة التي كتبها أمير البيان شكيب أرسلان في دفع النقد الموجّه إلى بعض ما جاء في كتابه "غزوات العرب في أوربة" وفي ما يلي إيضاح آخر تتمّة ذلك الردّ:

جنيف، في ٢ ذي القعدة ١٣٥٦

حضرة الأخ الكريم المفضال السيِّد بشير الصقّال:

من يومين أو ثلاثة كتبت إليكم مختصرًا ردّي على مَن انتقد كتابي "غزوات العرب في أوربة" وقلت لكم إنَّكم مختارون في نشر ذلك بالجريدة التي تريدونها وبعد هذا اطّلعت في الجزء الثاني من كتابي "الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية" في صفحة ٢٠٧ على حاشية فيه كنت كتبتها في هذا الموضوع نفسه وكان قد ذهب ذلك من بالي وهذه صورتها بالحرف:

"أخذ علينا بعض المؤلّفين كوننا في كتابنا (غزوات العرب في أوربة) لم نزد على أن نقلنا كلام المستشرق الإفرنسي رينو؟ وعدّوا ذلك قصورًا في التأليف؟ وحقيقة الحال أننا نحن توخّينا عمدًا النقل عن رينو الإفرنسي وكلر الألماني والمحافظة على نصوصهما.

وذكر المنابع التي استقيا منها وذلك حتّى لا يظنّ أننا نحن تصرّفنا بروايات مؤرّخي الإفرنجة وطوّلنا وقصّرنا في الموضوع وما أشبه ذلك ممّا يتعرّض له المؤلّفون الذين يجعلون التاريخ مجرّد استنتاج بقولهم ويخلطون الرواية بالرأي الشخصي. فالموضوع الذي طرقناه لم يسبق أنَّ أحدًا من العرب أفرده بالتأليف وكل ما جاء عنه في كتب العرب بعض جمل في تضاعيف السطور جمعناها من هنا وهناك إلى كتاب واحد واخترنا وضعها في الحواشي تعليقًا على كلام رينو وكلر اللذين رويا ما رويا بناءً على وثائق لا تُحصى من كتب الإفرنج والعرب وممَّن عاصروا تلك الوقائع وقد جاءت هذه الحواشي التي علّقناها مؤيِّدة في الجملة

★ البلاد، ١٩٣٨/٢/٨، ص. ٣.

للمتون التي ترجمناها من الإفرنسية والألمانية والطليانية والتي أحببنا نقلها بالأمانة العلمية اللازمة. والمقصد الحقيقي عندنا هو تمحيص الروايات التي يحصل بها بَرْد اليقين عن تلك الحوادث لا إظهار البراعة الشخصية» أ هـ.

فالمرجو أن تنشروا أيضًا هذه الفقرة ولكم الفضل.

أخوكم

شكيب أرسلان

* * *

تصريحات الأمير شكيب أرسلان
عن قضيّة فلسطين
العرب يَفْدون فلسطين بدمائهم ★

ذكر مراسل جريدة الديلي تلغراف اللندنية في روما، أنَّ الصحف الإيطالية نشرت حديثًا مطوّلاً أدلى به الأمير شكيب أرسلان السوري، وهو من دعاة الوحدة العربية، والذي عاد إلى جنيف بعد إقامة طويلة في سوريا، وقد كان في السابق رئيسًا للجنة العربية.

وقد أُذيع من مصدر موثوق به أنَّ مراسلي الصحف الإيطالية سيبقون في جنيف، رغم انسحاب إيطاليا من العصبة.

وهذا الحديث الذي أدلى به الأمير يُعدّ الأول من نوعه، وقد تكهّن فيه بثورة ٧٠ مليون عربي، إن لم يتمكّن العرب الفلسطينيون من الدفاع عن أنفسهم ضدّ الإنكليز، وأنَّ الدول العربية اليمن والعراق وشرق الأردن ستهبّ للقتال في سبيلهم.

وقال الأمير أيضًا إنَّ الإنكليز أرادوا أن يبقى العرب في سبات عميق، ولكن الأخاديع من إنكلترا قد أيقظت وطنيّتهم وأنَّ إنكلترا قد فقدت كلّ اعتماد في بلادنا. إنَّ العرب لن يتخلّوا عن فلسطين. إنَّهم يقاتلون وسيقاتلون بكلّ وسيلة في حوزتهم، فكلّما ازداد دخول الصهيونيين إلى فلسطين ازداد هول الكارثة القادمة. إنَّ حساب الإنكليز كان مغلوطًا. ففلسطين في نظر العرب هي قضيّة حياة أو موت، وذلك ليس من رأي الساكنين في فلسطين فحسب، بل أيضًا في نظر جميع الساكنين في الدول العربية. لذلك إذا لم يكن العرب الفلسطينيون في حين من الأحيان في مركز يساعدهم على الدفاع عن أنفسهم، فشعوب المملكة العربية السعودية واليمن والعراق ستتدخّل في الأمر.

ولمّا سُئل الأمير عن مصر، صرّح قائلاً إنَّ مصر ليست عديمة المبالاة بالخطر، ولكنّها تهتمّ بعدم النزاع مع إنكلترا، وعندما يصبح لديها أسطولها وجيشها ستفعل ما يفعل العراق، ففي العراق تتطوّر الحركة في سبيل العرب الفلسطينيين بصراحة بمظاهرات ومساعدات بالمال والرجال.

★ الزمان، العدد: ١١٢، ١٠/١/١٩٣٨، ص. ٢.

الأمير شكيب يتكلّم!
مؤتمر بلودان القومي
مصر ستظاهر فلسطين كما يفعل العراق اليوم ★

في الساعة الثامنة من مساء الاثنين الماضي أذاع راديو باري ما نصّه:

نشرت جريدة «المساجيروا» حديثًا دار بين مندوبها والأمير شكيب أرسلان سأله فيه المندوب عن مشاهداته في بلاد العرب وبوجه خاصّ في فلسطين فأجاب الأمير:

إنَّ العرب يرفضون كلّ تجزئة لبلادهم كما يرفضون الهجرة اليهودية إلى هذه البلاد، ولو أنَّ بريطانية قالت للعرب عندما قامت تناضلهم خلال الحرب العالمية أنها تنوي أن تجلب اليهود إلى فلسطين فكانوا رفضوا الاتّفاق معها رفضًا باتًّا ولآثروا الاتّفاق مع الترك إخوانهم في الدين على الانضمام إلى الحلفاء.

ومع هذا فإنَّ العرب في الوقت الحاضر متّحدون متضامنون ضدّ هذه المساعي. ففلسطين ليست للفلسطينيين وحدهم، بل هي كذلك للعرب الذين يرون في تحقيق الهجرة اليهودية أو في تقسيم فلسطين خطرًا شديدًا على كيانهم.

إنَّ مؤتمر بلودان الذي كنت رئيسًا ثانيًا له قد جهر بصورة رائعة بأنه سيقاوم سياسة الاستعمار الإنكليزية ما دامت إنكلترة مثابرة على نشاطها لتهويد فلسطين ومعنى ذلك أنَّ العرب سيتّحدون اتّحادًا متينًا ضدّ الاستعمار.

ومساعي العرب ليست محصورة في منطقة واحدة، بل تشمل سائر الجهات، فقد احتجّت مصر والعراق العربيّتين بواسطة ممثّليها في جنيف على فكرة فلسطين اليهودية إلاّ أنَّ مصر وقفت من هذه القضيّة عند هذا الحدّ لأنها لا تريد أن تتنافر مع إنكلترة صديقتها الجديدة.

ولكن في إمكانهم أن تكونوا على ثقة تامّة بأنه عندما يصبح لمصر أسطول وجيش

★ العقاب (بغداد ـ تونس ـ بحرب الجيوري)، العدد: ٢١٧، ١٩٣٨/١/٦، ص. ١.

يحذوا حذو العراق بمظاهرة فلسطين، فالعراق يقدم في الوقت الحاضر على مظاهرة فلسطين سياسيًّا وبالمال والرجال أيضًا.

ثمَّ لا يغرب عن بالكم أنَّ هناك مساعي أخرى تبذل في سبيل إذلال العرب فالمهاجرون الصهيونيون والعمّال الشيوعية يقومون ببثّ دعاية واسعة النطاق لنشر المبادئ الشيوعية الهدّامة.



محاضرة شكيب أرسلان بالنادي العربي

الوحدة العربية، ضرورة قصوى للعرب *

وفدت جماهير غفيرة من كبار الأدباء ووجوه البلدة وعلمائها إلى دار النادي العربي لاستماع المحاضرة التي يلقيها عطوفة الأمير شكيب أرسلان عن «القضيّة العربية» حتّى ضاقت صالة النادي على سعتها واضطرّ كثيرون للبقاء على سطح النادي حيث وضع مكبّر للصوت لإسماع الجالسين هناك.

وقد كان في مقدّمة الوافدين إلى النادي العربي، رئيس المجلس النيابي الأستاذ فارس الخوري، ووزير المعارف الدكتور عبد الرحمن الكيالي وعدد كبير من وجهاء العراقيين وجبل الدروز وكبار المجاهدين وأساتذة الجامعة السورية وفريق من الوزراء السابقين.

- إلى الصحافيين

وفي الساعة الثامنة والنصف قدم أمين سرّ النادي عطوفة الأمير فطلب عطوفته إلى الصحافيين قبل أن ينشروا ما يأخذون عن المحاضرة أن يعرضوه عليه كي لا يكرّر ما وقع في حلب من سوء فهم ما أشار إليه.

- الوحدة العربية

ثمَّ بدأ أمير البيان في محاضرته فعالج قضيّة الوحدة العربية معالجة دقيقة، وقال عنها إنَّها ضرورة قصوى للعرب، وتكلّم بعد ذلك عن الأخطار التي تهدّد العرب فقال إنَّها آتية من الأتراك في الشمال ومن إيران الشرق ومن أوربا في الغرب إلاّ أنه لم يلبث أن أعرب عن أمله في تحقيق هذه الوحدة، بعد أن عرض المعاهدات والمواثيق التي عقدت بين الدول العربية كالعراق والمملكة العربية السعودية واليمن وأشاد بموقف مصر والبلاد الأخرى الممتدّة من طرابلس الغرب، إلى شمال إفريقيا، والقبائل العربية في أواسط أفريقيا، وقال إنَّ الوحدة يجب أن تتمّ فتبدأ في ديارنا، وبين الدول التي تؤسّس كيانها وتدعمه.

---

* القبس (دمشق)، ١٩٣٧/٩/٢٢، ص. ٣.

ـ أسباب الوحدة

أمّا الأسباب التي تؤدّي إلى هذه الوحدة فقد قسّمها الأمير أرسلان إلى قسمين: داخلية وخارجية. فالداخلية تنحصر في توحيد المناهج العامّة بين البلاد دون الالتفات إلى الإقليمية والطائفية، وحذر بهذه المناسبة ممّا حدث مؤخّرًا في سوريا وبانقلابات العراق. والخارجية تنحصر في توحيد السياسة المتّبعة في الديار الغربية.

لتحقيق المُثُل العليا.

وقد طلب الأمير في نهاية محاضرته أن يعتمد العرب على أنفسهم في تحقيق مُثُلهم العليا وقال إنَّ إرادة العرب هي الحقّ والقانون.

وقد قوبِلَت المحاضرة باستحسان عظيم وصفّق الحاضرون لعطوفة الأمير أرسلان طويلاً ثمَّ انصرفوا وكلّهم إعجاب بهذه المحاضرة القيّمة.



مَن هي الشخصيّة العربية الكبيرة في جنيف تريد بيع فلسطين من اليهود؟

أمَ هي دسيسة جديدة من دسائس مركز التجسّس المعهود... في القدس؟
بيان لصاحبَي العطوفة الأمير شكيب أرسلان وإحسان بك الجابري ★

أطلعونا على قطعة من جريدة "صوت الشعب" الفلسطينية هذا نصّها:

"روت إحدى الصحف اليومية العربية [1] أنَّ وايزمن وشرتوك يتفاوضان مع شخصيّة عربية كبيرة لإدخال أربعمائة ألف يهودي إلى فلسطين وشرقي الأردن في خلال عشر سنوات، وقد بحثنا عن هذه الشخصيّة ففهمنا أنها موجودة الآن في جنيف وقد سبق لها أن طلبت من وايزمن في عام ١٩٣٠ مبلغًا كبيرًا من المال لقاء قيام هذه الشخصيّة المحترمة بتفسير الهجرة والوطن القومي ولكنّه لم يتمّ الاتّفاق، ولا ندري قبل مرور شهر على الأقلّ ما سيكون نصيب المفاوضات الأخيرة من تطوّر على أننا نعِد قرّاءنا الكرام أن نكشف لهم القناع عن هذه المؤامرة الجديدة".

فنحن نسأل هذه الجريدة المحترمة عن هذه الشخصيّة التي أشارت إليها ولم تصرِّح باَسمها. أنه كان يجب أن تصرِّح باَسم هذه الشخصيّة التي يزعمها، تساوم على شيء هو عبارة عن بيع فلسطين من اليهود! وإخراج العرب منها. خيانة فظيعة كهذه، بل أعظم خيانة يمكن أن يتصوّرها العقل. لماذا يُكتم اسم ذلك السافل الدنيء الذي تدخّل فيها، أيًّا كان ومن أيّ جنسٍ كان. فهنا أحد أمرين، إمّا أن يكون الخبر صحيحًا أو له أثر من الصحّة فيجب فضيحة اسم الشخصيّة الذي ارتكب هذه الخيانة. وإمّا أن يكون مخترَعًا مختلَقًا ملفّقًا عمدًا نظير ذلك المكتوب المزوّر المعهود الذي جرى تزويره بتواطؤ بين الإنكليز واليهود وأذناب لهم من العرب، فعند ذلك يكون هذا الخبر من جملة الدسائس لخدمة الاستعمار الإنكليزي والوطن القومي الصهيوني. نحن هنا في جنيف ولا نظنّ أنه يخفى علينا شيء فيها ممّا يتعلّق

★ فتى العرب، العدد: ٤٤١٨، ١٩٣٧/٥/٧، ص ص. ١-٢. كما نُشر تامًّا في جريدة الإنشاء (لطفي الحفّار) العدد: ١٤٠، ١٩٣٧/٥/٨، ص. ٢ تحت عنوان "مَن هو العربي الذي يريد بيع فلسطين لليهود".

(١) العربية أم العبرية؟ وإذا كانت عربية فما هو اسمها؟

بالعرب ولم نسمع قط بأنَّ شخصيّة عربية كبيرة أو صغيرة دخلت في مفاوضة مع وايزمن أو غير وايزمن مآلها التخلّي عن شبر واحد من أرض فلسطين. والذي نعلمه أنه سنة ١٩٣٠ حضر من لندرة بالطيّارة المستر أوليفر، مدير المدرسة الإنكليزية في رأس المتن من لبنان، أراد أن يقابل أحدنا (شكيب أرسلان) في جنيف فلمّا قابلني علمت منه أنه يريد أن أتلاقى مع وايزمن لأجل تبادل الآراء في قضيّة فلسطين علّه يوجِد لها طريقة حلّ ترضي الفريقين. فأجبت أوليفر هذا الذي كنت أعرفه من جبل لبنان بالرفض التامّ وأَبَيْتُ أن أقابل وايزمن ولو دقيقة وألحّ إلحاحًا كثيرًا زائدًا في الموضوع، فأفهمته أنَّ لا سبيل إلى ذلك أصلاً وجئت به إلى زميلي إحسان بك الجابري وتذاكرنا في الموضوع مع أوليفر، وأفهمناه عدم إمكان مقابلتنا لوايزمن لمعرفتنا مطالب وايزمن واستحالة قبول العرب لها، وأنه إن كان يوجد في العرب مَن يقبلها فنحن ضدّه وصادف يومئذٍ وجود عوني بك عبد الهادي في جنيف فقلنا لأوليفر: إنَّ عوني بك عبد الهادي هنا هو فلسطيني فإن شئت فقابله واعرِض عليه فكرتك فإنَّنا نحن لا نقدر أن نتلاقى مع وايزمن. فعوني عبد الهادي استنكف أيضًا من التلاقي مع وايزمن وخاب أوليفر بسعيه وذهب بخفَّي حنين. ولكنّه ذهب غاضبًا حاقدًا علينا لامتناعنا حتّى عن مجرّد التلاقي مع وايزمن على مائدة طعام يعدّها أوليفر، ولم يحصل أدنى مكالمة في وجوه الحلّ التي كان يقول أوليفر إنَّه يرجو البحث فيها لأننا نحن رفضنا المقابلة من أصلها بدون بحث في وجوه الحلّ.

وبعد ذلك بثلاث سنوات جاءنا بن جريون ومعه ترجمان إفرنسي وطلب مواجهتنا نحن الاثنين وأتانا بنغمة عالية بأنه لا بدَّ رضينا أم أبينا من تهويد فلسطين وأنَّ إنكلترة لا تقدر أن تمنع ذلك وإنَّما هم يريدون أن يكون ذلك بالاتّفاق معنا بدلاً من أن يكون بالرغم منّا، فكان نصيب بن جريون الجواب بالتهكّم الذي يستحقّه كلامه، وقلنا له: سترى أنت وقومك والإنكليز أيضًا أنَّ الأمّة العربية لم تمت ولن تموت وأنَّ مشروعكم هذا خيال في خيال.

ومن أيام قلائل جاء ماينس، مدير الجامعة العبرية، فطلب مقابلتنا وأن يأتي لزيارتنا في بيوتنا فاعتذرنا عن قبوله في بيوتنا بمناسبة ضيق الوقت وعيّنا له مقهى نشرب فيه الشاي بعد الظهر واسمه مقهى «هوجنين» وذهبنا إلى المقهى واستصبحنا الأستاذ إميل الخوري، الكاتب المشهور، بحيث كنّا نحن الثلاثة فتكلّم ماينس هذا بكلّ تؤدة وأدب والتمس معرفة رأينا فيما يقال عن تقسيم فلسطين؟ فأجبناه بأننا لا نوافق على ذلك قطعيًّا، فسأل عمّا إذا

كان يمكن عمل هدنة إلى مدّة معيّنة: عشر سنوات؟ فقلنا له: وهل تستمرّ الهجرة؟ فقال: على مقدار زيادة مواليد العرب، فسدّدنا عليه باب الكلام وحولنا الحديث عمدًا حتّى لا نخوض معه في اقتراحات كهذه فانصرف قاطعًا كلّ أمل من فائدة الكلام معنا.

هذا ما جرى أولاً وثانيًا بالحرف.

فإن كان عند اليهود والإنكليز وأذنابهم من العرب الذين يخدمونهم بصورة ظاهرها الوطنية العربية وباطنها خدمة الأجانب، دسيس جديدة يريدون حياكتها فإنَّنا نبشّرهم بأنَّ هذه الدسيسة لن تصيب من النجاح أكثر من مكيدة المكتوب المزوّر... وإنَّنا لا نخشى أحدًا على وجه الأرض ما دام هناك شيء يقال له حقيقة تقصم ظهر كلّ مَن عاندها.

وإن كان ثمّة شخصية عربية لم نعلم بها قد دخلت في مفاوضة مع اليهود بجنيف فعلى راوي هذا الخبر أن يصرّح بأسمها كما قلنا ولكنّنا لا نعتقد بوجود شخصية عربية دخلت بمفاوضة كهذه مع اليهود في جنيف، بل نعتقد وجود جواسيس يستعملهم، رئيس التجسّس المعهود... في القدس الشريف ضدّ الأشخاص الذين قاوموا الاستعمار البريطاني والهجرة الصهيونية أشدّ المقاومة وأحرقوا أكبادهما فلذلك رجال الاستعمار والصهيونية يريدون أن ينتقموا منهم (وقد خاب مَن افترى).

جنيف

شكيب أرسلان
إحسان الجابري

* * *

مع النـاس ★

ـ المراسلة التاريخية الثمينة

قد لا يجهل الكثيرون مدى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط المجاهد محمَّد علي الطاهر، صاحب جريدة ـ الشورى ـ المحتجبة بالمرحوم أمير البيان شكيب أرسلان. وقد استمرّت المراسلة بينهما دون انقطاع مدّة خمسة وعشرين عامًا إذ كان الأمير شكيب يحمل لواء القضيّة العربية متنقّلاً بين مدن أوروبا، وكان الأستاذ الطاهر يلاحق القضايا العربية متنقّلاً هو الىخر بين بلدان الشرق الأوسط.

وقد علمت أنَّ هذه المراسلة بكاملها ـ أي رسائل الطاهر وأجوبة الأمير شكيب عليها ـ هي الآن بحوزة صاحب الشورى وقد استطاع أن يستردّ رسائله من بين مخلّفات الأمير شكيب بمساعدة الأستاذ عارف النكدي وقد اقترح بعضهم على الأستاذ الطاهر نشر هذه المراسلة الثمينة في كتاب خاصّ لأنها تشكّل مجموعة وثائق تاريخية فريدة من نوعها، وهي لا شكّ ستكشف النقاب عن نواحي عديدة مجهولة من حياة الأمير شكيب الحافلة ومدى نشاطه الواسع في أوروبا في سبيل العروبة في وقت كانت الدعوة إلى العروبة ما تزال في بداية عهدها. وإنَّه لمن الخسارة أن تظلّ مثل هذه المراسلة مطويّة مجهولة من الرأي العامّ. فإلى دُور النشر نلفت أنظارها لكي تقنع الأستاذ الطاهر بإصدار هذه المراسلات.

★ الكفاح (بيروت) ١٩٥٨/٨/٢٨.

تتمّة دحض لتتمّة افتراء ★

بقلم صاحب السعادة كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

ثمَّ قال: «والتأليف في العلوم الحديثة لا وجود له، وإنَّما هناك كتب تُترجَم من اللغات الأوروبية إلى درجة أنَّ الشرقي الذي يريد الحصول على ثقافة علمية لا بدَّ له من إتقان لغة أوروبية إتقانًا تامًّا». فالجواب على هذا أنه ليس بصحيح زعم هذا الرجل عدم التأليف في العلوم الحديثة بالعربية فليذهب إلى مصر وسورية فيجد من تآليف العلوم الحديثة ما هو أكثر ممّا في لغات أوروبية من الدرجة الثانية والثالثة. وإن لم يكن ذلك مضاهيًا لِما في اللغات الأوروبية الكبرى فلم يكن من فقر اللغة العربية نفسها، ولكن كما تقدّم لنا الكلام عليه لم ينشط الشرقيون من عقال الانحطاط إلاّ في الحقبة الأخيرة وسِعة التأليف تابعة لدرجة الترقّي كما لا يخفى، وكون التآليف العلمية في العلوم الحديثة لا تزال قليلة عند العرب بالنسبة إلى أهمّية عددهم هو أشبه بما كانت عليه اللغة اليابانية مثلاً من هذه الجهة منذ ستّين أو سبعين عامًا. فكما أنَّ اللغة اليابانية عادت فسدّت عوزها واستدركت فارط أمرها في هذا العصر الأخير من جهة التبسّط والتفنّن في العلوم العصرية كذلك يجوز للغة العربية والثقافة الإسلامية أن تسدّا عوزهما وتتوسّعا في ما هو اليوم لا يزال عندهما غير بالغ الدرجة المناسبة مع أهمّية عدد الأمم التي تنطق باللسان العربي وتعضّ على الثقافة الإسلامية بالنواجد.

إنَّ الشرقي أصبح قادرًا على أن يملك ثقافة عصرية تامّة بدون أن يُتقِن لغة أوروبية، لأنَّ اللغة العربية لا تحتاج إلى شيء ضروري من الكتب المؤلّفة في العلوم العصرية اللازمة. غاية ما هناك هي أنَّ الشرقي يتعمّد تعلّم لغة أوربية راقية ليزداد تعمّقًا في العلوم الحديثة، ولأنَّ مدنيّة أوروبا هي غالبة اليوم على العالم؛ فكلّ أديب شرقي يريد أن يستكمل أدوات أدبه بتعلّم لغة أوروبية مشهورة كالفرنسية أو الألمانية أو الإنجليزية مثلاً. وليس هذا منحصرًا في

★ الأطلس (الرباط)، العدد: ١٧، ١٩٣٧/٦/١٧، ص. ١.

الشرقيين، بل إنَّ كثيرًا من الأوربيين يتعلّمون هذه اللغات لأجل مجرّد الاستزادة من الثقافة، ولأنَّ الأمم التي تتكلّم بهذه اللغات الثلاث على الخصوص هي أمم ذوات أهمّية سياسية في العالم؛ فالناس يريدون تعلّم لغاتها لا لأنهم لا يجدون في لغاتهم الأصلية ما يكفل لهم فهم العلوم العصرية، بل يتعلّمون هذه اللغات من أجل أهمّية الأمم التي تتكلّم بها. فالمسألة هي سياسية أكثر ممّا هي علمية، وكلّ أمّة في الدنيا صارت لها شهرة ومكانة وفتحت فتوحات واستولت على بلدان يرغب الناس بالبداهة في تعلّم لغتها، والاقتداء في الغالب، كما قرّر ابن خلدون، هو من سنن الطبيعة البشرية.

ثمَّ قال بلجران: إنَّ التفكير الإسلامي في أعصره الأخيرة تطوّر ضمن دائرة محصورة، وإنَّ الحكم الأوروبي فاجأه مؤخّرًا فأطلعه على نظريّات جديدة في أصل الديانات وتاريخها وعلى النظريّات الفلسفية المتّصلة في التفكير الغربي؛ ومع أنَّ المسلمين المتعلّمين في جامعات أوروبا يقولون إنَّ ذلك كلّه لا يمسّ الإسلام فلا بدَّ من حدوث مشكلات مهولة في ضمائرهم.

فالجواب على هذا أننا ما أنكرنا قطّ انحطاط المسلمين في الأعصر الأخيرة وكلّ انحطاط يصحبه جمود وقصور في التفكير وخمود في حبّ الاطّلاع، ولكن هذا الانحطاط لم يكن سرمدًا كما أنَّ الترقّي نفسه لا يمكن أن يكون سرمدًا في أمّة من الأمم. وقد بدأ المسلمون ينتهضون في كلّ بقعة من بقاع الأرض ولا بدَّ لهم من أن يبلغوا شأو الرقيّ الذي بلغه غيرهم. فأمّا النظريّات الجديدة «في أصل الديانات» فقد يمسّ هذا الأمر بعض الديانات المشهورة غير الإسلام لأنه لا يوجد بين التواريخ تاريخ أوضح وأثبت من تاريخ ظهور الإسلام وكيفيّة انتشاره وبعثة محمَّد (ﷺ) وأحواله الخصوصية ونشأته في مكّة وهجرته إلى المدينة وكلّ ما يتعلّق به. فالغموض يحيط بجميع سِيَر الأنبياء وأصحاب الشرائع، حاشا محمَّدًا الذي سيرته واضحة صريحة مسلسلة بالأشهر والأيام فضلاً عن السنين. وقد ضبط المسلمون جميع ما قيل فيه حتّى أنهم ضبطوا الطعن والقذف والأفك ولم يخفوا شيئًا ودرّسوا ذلك في مساجدهم ولم يطمسوا ممّا رُوِيَ عن محمَّد رواية واحدة حقًّا كانت أو باطلاً، بل نشروا كلّ شيء بحسب ما كانت عليه طبيعة العرب من الحرّية التامّة والانطلاق المدهش في التفكير. ولنا على هذا شواهد ودلائل لا يسعها هذا المقال. وقد اعترف الأوربيون المنصفون بأنَّ حياة محمَّد سواء اعتقد المعتقد برسالته أم لا حياةٌ معروفة واضحة

لم تكن فيها نقطة واحدة غامضة. وقد بالغ المسلمون في إحصاء حركاته وسكناته ولم يكتموا منها لا قليلاً ولا كثيرًا ونقلوا هجو مَن هجاه وأوردوا كلّ الشبهات التي أوردها المشركون والنصارى واليهود على نبوّته ولم يخشوا نشر ذلك وتدريسه لأنهم كانوا على بيّنةٍ من أمرهم[1].

(1) لم نعثر على باقي المقالة [المحقّق].

المجتنيات من الجرائد والمجلاّت

إنكلترة وإيطالية والإسلام

لعطوفة أمير البيان وكاتب العصر الأمير شكيب أرسلان ★

عندما وصل موسوليني إلى بنغازي خطر في بال والي ليبيا الماريشال بالبو أن يلقّبه بـ"حامي الإسلام" في الخطبة التي رحّب به فيها.

فموسوليني صحّح هذه الجملة ببيان صريح قال فيه: إنَّ لفظة "حامي الإسلام" ليس معناها الإسلام على إطلاقه وإنَّما هو الإسلام الذي في البلاد التابعة لإيطالية مثل طرابلس وبرقة والحبشة والصومال التي فيها كلّها خمسة ملايين نسمة مسلمة قال (وإنِّي أتوخّى المحافظة على المسلمين الساكنين في هذه الأقطار ومنع التبشير بالمسيحية فيما بينهم)(1) هذا الذي قاله رئيس الحكومة الإيطالية بالصراحة تصحيحًا لغلطة القائد العسكري بالبو. ولقد قرأنا هذا التصحيح في الجرائد.

فالذي لا نستطيع أن نفهمه هو إصرار بعض الجرائد في البلاد الشرقية والغربية على إعلان أنَّ موسوليني زعم أنه "حامي الإسلام" وإصرارها على تهييج المسلمين لأجل الاعتراض على هذه الجملة. والمسلمون محقّون في ردّها ومصيبون في الاعتراض عليها لو كان موسوليني قالها حقًّا عن نفسه ولو لم يكن صحّح ذلك في بيان كانت جريدة الطان الإفرنسية ـ التي ليست من عواشق موسوليني ـ قد نشرته هي أيضًا فضلاً عن الجرائد الطليانية.

فالإصرار على نسبة هذه اللفظة لموسوليني بالرغم من تصحيحه إيّاها دليل على أنَّ هناك دعاية مقصودة مبثوثة مخدومة معزّزة بكلّ الوسائل اللازمة ترمي إلى تغيير الحقائق وإلى تهييج المسلمين بأيّ وجهٍ كان على موسوليني بحقّ أو بباطل.

★ الشباب (الجزائر)، عدد ربيع الأول، ص. ١٢٩ ـ ١٣٣.

(1) ش: فهل لحكومة الجزائر أن تلتزم مثل هذا المسلمين؟ كلا، بل هي تؤيّد المبشّرين ماديًّا وأدبيًّا وتفسح لهم المجال في جميع القطر. ثمَّ هي تضيق الخناق على المسلمين في تعلّم دينهم فتتشدّد في إعطاء رخص التعليم لطلاّبها وتغلق مكاتب القرآن ثمَّ تعرض عن مطالب معلّميها وتمنع العلماء من المساجد وتضيق على وعاظهم في النواحي. كلّ هذا واقع ويخفّ ويثقل ويقلّ ويكثر باعتبار اختلاف الجهات فمتى تلتفت الحكومة الشعبية إلى هذه الناحية الحسّاسة عند المسلمين أم ترضى أن يسقبها إليها موسوليني؟...

والحال أنَّ المسلمين لا يهمّهم إلاّ معرفة الحقائق ولا يلزمهم أن يهيجوا إلاّ لِما يكون حقًا من الأمور الماسّة بهم. وهم يعلمون أنَّ جميع أوربا بدون استثناء اعتدت عليهم وغصبت من ممالكهم وأذاقتهم العذاب أشكالاً وألوانًا. لا يُستثنى من ذلك إيطالية ولا فرنسا ولا الروسية ولا هولندة ولا إسبانية ولا إنكلترة بخاصّة، لأنها شيخة الاستعمار على الإطلاق، وهي التي فتحت باب الاعتداء على ممالك الإسلام واستعبدت ١٥٠ مليون مسلم إلى هذه الساعة. وهي التي تحاول القضاء على الأمّة العربية بإخراج فلسطين من دائرة العروبة وتحويلها إلى مملكة يهودية إنكليزية تقعد على قلب العرب في الشرق. الأمر الذي لم يسبق له مثيل إلاّ ما كان بالأندلس.

وما إيطالية فيما اعتدت به على الإسلام إلاّ تلميذة من تلميذات إنكلترة، فهي التي أباحت لها بموجب معاهدة سرّية شنّ الغارة على طرابلس الغرب وهي التي من قبل ذلك أقطعتها بلاد الأريترة التي كانت تابعة للحكومة المصرية وأخرجت المصريين منها. وهي التي أباحت لها الاستيلاء على بلاد الصومال التي كلّها بلاد إسلام. وهي التي مكّنتها من أخذ واحة الجغبوب التي كانت مصر احتجّت على احتلال إيطالية لها. وهي هي أيضًا التي اتّفقت مع إيطالية وفرنسة على تقسيم الحبشة إلى مناطق نفوذ. ومعاهدة التقسيم هذه موجودة فلا تستطيع إنكلترة أن تنكرها. وهلمّ جرّا.

ولمّا كان الطليان يرتكبون تلك الفظائع المعلومة في طرابلس كانت بعض البلاد التي يسود فيها نفوذ إنكلترة تمتنع عن استنكار عمل الطليان هذا وقلّما كانت تتجرّأ على الاحتجاج عليه. وإذا جرأت جريدة على مهاجمة إيطالية أوقفوها أو أنذروها.

لماذا؟ الجواب: لأنَّ إيطالية لم تكن يومئذٍ مزاحمة لإنكلترة. فكانت كلّ ذنوبها مغفورة وكانت كلّ من الدولتين مكافلة للأخرى ولا سيّما في إعنات المسلمين.

فلمّا وقع ما وقع من تزاحم هاتين الدولتين على الحبشة وانقلبت بينهما الحال إلى العداوة صارت الدعاية الإنكليزية تعمل عملها لإظهار عيوب إيطاليا وتذكير المسلمين بأذى هذه الدولة لهم وكَثُرَ الكلام فيما فعلته معهم في الماضي.

قد كان الكلام المسيء لإيطالية في الماضي مكروهًا مع أنه كان أو إنئذٍ في إبّان لزومه. فلمّا اعتدلت إيطالية مع المسلمين وعدلت عن خطّتها الماضية بإزائهم وصار موسوليني يضمّد جراحهم ويتزلّف إليهم صارت الحملات تزداد شدّة على إيطالية وصاروا يذكرون

موبقاتها السابقة كأنها جارية اليوم! وما قال أحد إنَّ مسلمي طرابلس نالوا كلّ ما تمنّوه. ولكن لا نزاع في أنه بين ماضيهم وحاضرهم برق بعيد.

فنحن نرى من هنا أنَّ ليست مصلحة الإسلام هي العامل الذي يدير هذه الحركات، بل المدبّر الحقيقي هو المصلحة البريطانية ليس إلاّ، وإنَّما هي مرتدية اليوم رداء آخر وهو مصلحة الإسلام!

ولو كان الحاملون على إيطالية أبرياء من دماء المسلمين لهان الأمر. ولكن هذه الأيدي التي تبثّ هذه الدعاية على إيطالية هي التي لا تزال تعمل عملها في عرب فلسطين أليس كذلك؟

إيطالية مستعبدة خمسة ملايين مسلم. ولكن إنكلترة مقيّد بسلسلة استعبادها ١٥٠ مليون مسلم. فليس لدولة كهذه حقّ في أن تعيب إيطالية بمثل ما هي تفعله وتفعل أضعافه.

إيطالية دولة مستعمرة كسائر الدول الاستعمارية داخلة من أرهاق المسلمين فيما دخل فيه غيرها ولكنَّها من سنتين قضت عليها سياستها بأن تتودّد إلى المسلمين، ومن بعد حرب الحبشة قضت عليها سياستها بأن تزداد تودّدًا إليهم. فهذا التودّد لا يضرّ المسلمين في شيء ولو كان مصانعة، ولو قيل إنَّه ما جرى إلاّ تحت ضغط السياسة فالسياسة هي بالنتائج لا بالأسباب الباعثة.

أفلا تودّدت إنكلترة هي إلى المسلمين كما تتودّد إيطالية؟ أفلا تحولّت إنكلترة عن سياستها اليهودية في فلسطين؟ لتُعِد إنكلترة فلسطين إلى أصحابها العرب ونحن نكون حينئذٍ بأجمعنا يدًا واحدة على إيطالية ونذكر من جناياتها على الإسلام ما نشاء.

أمّا أن نقبل نحن الدعاية الإنكليزية بحقّ إيطالية، ونروّجها لها، بينما الأيدي الإنكليزية لا تزال ضاغطة على العرب، ولا سيّما العرب الفلسطينيين، فهذا ما لا يكون وممّا لا يجوز لنا أن نجهله هو أنَّ المنافسة بين إيطالية وإنكلترة هي من أسباب الخير للمسلمين، بخلاف ما يزعم بعضهم، قال موسوليني: أنا حامي الإسلام في البلدان التابعة لإيطالية.

أفيا ترى لو قام موسوليني وقال: نحن معاشر الأوربيين وإن كنّا على غير وفاق فيما بيننا فإنَّه يجب علينا أن نؤلّف جبهة واحدة بإزاء الإسلام؟ أفكان ذلك يكون أحسن؟ أفكانت تغضب عليه إنكلترة من أجل قوله هذا؟

موسوليني قال إنَّه يحمي العقيدة الإسلامية من الدعاية المسيحية. وقد أثبت إلى حدّ الآن كلامه هذا بالفعل خلافًا لِما يفعل الإنكليز في السودان والأوغاندة من حماية «المبشّرين» علنًا ودعايتهم التبشيرية هناك معلومة عند كلّ أهل مصر. أفلو كان موسوليني بثّ القسوس والمبشّرين في طرابلس والحبشة والصومال وفتح الملاجئ والمدارس ومعاهد التنصير الأخرى كما يفعل غيره أفكان عاجزًا عن ذلك أفكان الأحسن أن يفعل ذلك؟

أفكان موسوليني قد أعلن أنه يحمي الدين الإسلامي في مستعمرات إيطاليا من تجاوُز الدعاية المسيحية عليه أفيكون قد كفر من أجل قوله هذا! سبحان الله ما أسهل المراء على ذوي الغرض.

يقولون: ألا إنَّ كلامه هذا إنَّما هو من باب السياسة وليس فيه إخلاص.

والجواب: ومتى كانت السياسة فيها إخلاص؟

وهل إنكلترة في معاهدتها الأخيرة مع مصر رضيت بما رضيت عن حبّ لأهل العراق ولأهل مصر وعن إخلاص؟ أفرفض المصريون والعراقيون هاتين المعاهدتين برغم ما فيهما من أجل أنهما لم تكونا عن إخلاص.

وهل نحن المسلمين يتظاهر لنا بالودّ أحيانًا فريق من الأوربيين عن إخلاص؟

إنَّ كلّ ما يفعلونه هو سياسة في سياسة تحت القواسر الخارجية. فعلينا نحن أن نستفيد من النتائج ولا نسأل عن الأسباب كيفما كانت. ولقد كنت في مقدِّمة مَن نصحوا لمصر بقبول المعاهدة الأخيرة مع معرفتي بالأسباب التي لولاها لم تكن.

وإلاّ فمجنون مَن يعتقد أنَّ السياسة فيها إخلاص!

جريدة (الشباب)

شكيب أرسلان

* * *

رسالة حماه من الأمير شكيب
إلى الدكتور شيشكلي ★

من جنيف إلى حماه

منذ خمسة أيام تلقّى الدكتور شيشكلي من صديقه العلاّمة الأمير شكيب أرسلان بجنيف كتابًا جوابيًا رأينا أن نثبته بفتى العرب الغرّاء لِما فيه من حقائق يحبّ قرّاء الصحف الاطّلاع عليها لعلاقتها بمجرى بعض الشؤون العالمية وخاصّةً الصِّلات بين الشرق والغرب!

قال الأمير:

«أخذت جوابك العزيز وفهمته وشكرت لطفك وحسن ظنّك وأجيبك أني في حياتي والله عليَّ شهيد لم أرتكب أقلّ خيانة في فعل أو في قول أو في فكر وذلك للإسلام وللعروبة، وأني ما سرت في خطّة من الخطط إلاّ لخدمة الإسلام وللعروبة. وإنَّ ما يتشدّق به بعض الحسّاد من جهة تفاهمي مع زعيم إيطاليا الذي كان صديقي من قبل أن يتولّى زعامتها هو فخر لي لا سُبّة عليَّ لأنه بينما لا يوجد حكومة إسلامية ولا غير إسلامية على وجه الأرض تجرأ أن تسأل موسوليني عمّا يفعل بطرابلس.

كنت أنا الرجل الذي يقترح إعادة الستّين ألف عربي المتشرّدين في الفيافي وقد أُعيدوا إلى وطنهم الجبل الأخضر، والذي يطلب العفو عن ٤٠٠ زعيم طرابلسي محكوم على كلّ واحد منهم بالحبس ٢٠ سنة و٣٠ سنة وقد أُطلِق سبيلهم، وكنت السبب في رجوع الأوقاف الإسلامية إلى المسلمين بعد أن كانت ضبطتها إيطالية، وفي جعل التعليم الإسلامي العربي في جميع المكاتب التي للحكومة، وفي بناء مدرسة عالية محضة، وفي إرجاع كثير من الأراضي إلى أصحابها وفي تغيير سياسة إيطاليا في طرابلس بالمرّة، وهذه أمور كنت نشرتها في جرائد مصر وجرائد الشام وجرائد فلسطين وجرائد العرق في عرض دَفْعِ الافتراء الذي وقع عليّ، ولولا الانتصار لنفسي من الظلم ما كنت ذكرت من هذا شيئًا لأنَّ التبجّح والتمدّح ليسا من أخلاقي، ولكن صدق مَن قال:

★ فتى العرب، حماه في ١٥ أيّار.

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة

طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسود

ولقد نشرت هذا في جميع هذه الصحف ولم يقدر أحد أن يكذّب من ذلك حرفًا كما قال في هذا الشأن السيِّد رشيد رضا، فقيد الإسلام رحمه الله، ولو لم يكن كلّ ما ذكرته صحيحًا لكذّبته نفس إيطاليا أو لأعلنت أنَّ هذه الأمور جرت لا بطلب شكيب أرسلان. ولكنّها كلّها إنَّما جرت بناءً على مسعاي فلم يقدر أحد أن يكذّب كلامي. ونشرت ذلك أيضًا في مجلّتنا «لاناسيون أرب» وكرّرته وفي هذا العدد الذي صدر بهذين اليومين مقال طويل تحت عنوان: Le Problème Éthiopie فيه أسباب عدم هجومي على موسوليني فيمَن هجم بكلّ صراحة وكلّه عائد إلى مصلحة الإسلام، فأنا لا أنكر اعتداء إيطاليا على الحبشة لكنّي لا أقدر أن أحبّ الزنوج أكثر من نفسي ولا أن أؤيّد إنكلترا المستعبدة لمائة وعشرين مليون مسلم وهي هي التي لا تزال مانعة لاستقلال مصر وعاملة على تهويد فلسطين وهلمَّ جرّا. فإن كانت إنكلترة تقدّس استقلال الأمم إلى هذا الحدّ فلتبدأ بالخروج من مصر ولترضى من مصر بالمحالفة ولتمنع المهاجرة الصهيونية إلى فلسطين، أنا أعلن أني أكون في مقدّمة مَن احتجَّ على عمل إيطاليا في الحبشة لو كان احتجاج جمعيّة الأمم عامًّا لكلّ المعتدين مثل إنكلترة وفرانسة والروسية هولاندة...إلخ.

لماذا عندما اعتدت إيطاليا على طرابلس لم يحتجّ أحد في أوربة، بل كانوا جميعًا بين ساكت أو متهيّج؟ فهل هذا إلاّ لكون طرابلس أمّة مسلمة؟ أينبغي أن نحبّ الجيش أكثر من أنفسنا؟ وهم قد فعلوا بمسلمي الحبشة والصومال من الفظايع من قرون فوق كلّ ما تتصوّره العقول؟ اطلبوا من مصر تاريخ الإسلام في الحبشة للأستاذ المؤرّخ الآثاري يوسف أحمد أصدره بهذه المدّة الأخيرة وكشف النقاب عن جميع الحقائق فمن هذا الكتاب تعلمون أنَّ مسلمي الحبشة ليسوا أحرارًا ـ ولا في نسائهم ـ أمام رؤوس أحباش النصارى... يغضب المسلمون من أجل اعتداء إيطاليا على الحبشة وينسون محو الحبشة لسبع ممالك إسلامية من جملتها مملكة هرو التي محتها من ٥٠ سنة ومملكة جمة التي محتها من سنة واحدة وسمّاها النجاشي ظفري ـ الذي فرّ أمس ـ «جنّة التالوت الأقدس».

إنّي من ١٢ سنة أدافع عن مسلمي الحبش وأتلقّى منهم معلومات فأنا أعرف ما أقول، ما سلكت في حياتي طريقًا إلاّ الطريق المؤدّي إلى خير الإسلام والعرب، وكم من مرّة قام

أناس وشمتوني وكبروا سياستي ثمَّ رجعوا إلى استحسان سياستي وقالوا والله لقد عرف الصواب من قبل غيره.

ثمَّ قال الأمير: فوز حزب الشمال العظيم في فرنسا من ٥٠ إل ٦٠ نائب شيوعي و١٣٠ اشتراكي عدا الراديكالي يساعد جدًّا على حلّ القضيّة السورية، فإنَّ ١٨٠ نائبًا في البرلمان الجديد لا يقبلون تقرير اعتمادات مالية عسكرية لسورية، وهؤلاء لا يقدر الراديكال أن يتولّوا الحكم بدونهم، وعلى الله الاتّكال.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم
شكيب أرسلان

* * *

اتّفاق إيطاليا وإنكلترا الأخير هل يكون فيه درس للعرب مفيد؟

ماذا يقول الإنكليز بعد هدرهم استقلال الحبشة؟ *

جرى التفاهم الآن بين إنكلترا وإيطاليا كما لا يخفى، وإذا سئل الإنكليز: لماذا نقضتم مبادئكم الأولى التي حشدتم لها الأساطيل وطبّلتم وزمّرتم من أجلها وحملتهم جمعيّة الأمم على عقوبة إيطاليا... إلخ فماذا غدا ممّا بدا وأين ذهبتم بعيدًا باستقلال الأمم، وكيف نسيتم الحبشة التي زعمتم أنكم تريدون أن تحفظوا استقلالها؟ أجابوك: نحن نريد قبل كلّ شيء أن نحافظ على مصالحنا فالمبادئ يجب أن يحافظ عليها إلاّ إنَّها إذا تعارضت مع المصالح فهذه يكون لها التقديم... فمصالحنا قضت علينا بأن نهدر كيان الحبشة ونسالم إيطاليا وذلك من باب اختيار أهون الشرّين!!!

هذا لسان حال إنكلترا التي هي أقوى دولة على وجه الأرض فأمّا نحن العرب الذين ليس في أيدينا شيء من قوّة إنكلترا والذين نحن أَولى منها بمداراة مصالحنا، فقد نسينا أنفسنا وجعلنا ننتصر لمجرّد المبادئ، وكان إذا قام منّا قائم أو قال قائل: أيّها العرب على رسلكم يكفيكم أن تعلنوا أنكم لا ترضون بمحو استقلال أمّة أيّة كانت، فأمّا أن تنغمسوا في هذه المسألة هذا الانغماس كلّه فليس بضروري لكم. وهؤلاء الذين جعلوا أنفسهم اليوم حماة للحبشة يحشدون ما يحشدون لأجاها بينهم وبين الطليان معاهدات سابقة خفية على تقسيمها إلى مناطق، فرويدكم أيّها العرب فلا تغترّوا في موضوع ستريكم أعجازه غير ما في صدروه.

نعم، لو قال لنا قائل كلمة كهذه قمنا نشتمه ونقول له: أنت إنَّما مقصدك خدمة إيطاليا وتمكينها من الاستيلاء على الحبشة، والحال إنَّما مقصد هذا الناصح لا يكون سوى اختيار أهون الشرّين كما يفعل كلّ عاقل إذا وقع بينهما.

وإنَّ مقصد هذا الناصح لا يكون سوى نهي العرب عن أن يظنّوا الورم سمنًا وعن أن

* الجامعة الإسلامية (يافا)، العدد: ٥٤، ١٩٣٧/١/٢٠، ج٥، ص. ٢.

يأخذوا بظواهر الأمور وعن أن يتهوّروا في مسائل يوجد لديهم ما هو أمسّ بهم منها وأهمّ وأولى بأن يندفعوا فيه...

لعلّ الاتّفاق الإنكليزي الإيطالي الذي انعقد منذ بضعة أيام يكون لهم درسًا مفيدًا.

شكيب أرسلان

***

الأمير شكيب يردّ للمرّة الثالثة ★

فمن أغرب الغرائب بعد ذلك أن يزعم زاعِم كوننا في خطاب اقترحه بعضهم علينا في جامع حلب قلنا إنّه لا يكون وطنيًا إلاّ مَن كان مسلمًا صحيح العقيدة، هو في الحقيقة قول مُحال لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن رجل عرف حقائق الأحوال وعلِمَ أنه يوجد في العالم ستّمئة مليون مسيحي كلهم وطنيون وكلّ أمّة منهم تمنع خضوع أبنائها لأيّة أمّة أخرى بحيث إنّ الدول التي هي من الدرجة الثالثة والرابعة في أوربا وأميركا وربّما لا تكون الواحدة منها حاكمة على أكثر من مليون نسمة تعاقب بالقتل أيًا كان من رعاياها متواطئًا مع دولة أجنبية عنها فكلامنا في جامع حلب بأنه لا يجوز للمسلم أن يخضع للأجنبي ليس فيه شيء غير معروف في قوانين أوربا التي فيها كلّها الإجماع على عدّ كلّ أوربي يخضع لدولة أجنبية خائنًا لوطنه مستحقًّا جزاء الخائن.

وعندما قلنا في جامع حلب إنّنا لا نعتقد بوطنية صحيحة لمسلم غير معتقد بدينه لم يكن كلامنا خارجًا عن المسلمين، بل كان المراد به أنّ بعض الملحدين أو اللادينيين من المسلمين يزعمون كونهم أصحّ وطنية من المسلمين المعتقدين وأنّ هذه الدعاوى باطلة من وجوه وأنّ الملحد الذي يعرف من الدنيا غير المادّة التي بين يديه لا يمكن أن يكون كامل العاطفة الوطنية.

هذا الذي قلناه أمام عشرة آلاف شخص في جامع حلب يشهدون بصحّة كلامنا هذا فليس هذا الكلام ممّا ينتقض بقول جريدة أو مخبر جريدة يفتري علينا لغرض في نفسه أو مرض في قلبه بأننا حضرنا لوطنية في المسلمين لا غير على حين أنّ جميع كلامنا كان في ترجيح كفّة المسلم المعتقد على المسلم الملحد في صحّة الوطنية.

لقد كذّبنا تلك الفريّة الشنيعة في جرائد حلب والشام أولاً وثانيًا وأنا الآن أكذّبها في جرائد بيروت تكذيبًا ثالثًا حتّى يطّلع على الحقيقة مَن لم يكن طالَع جرائد دمشق وحلب. فإمّا المتعنّت الذي لا يهمّه إلاّ التشفّي فليس لنا معه كلام، بل هو مصرّ على باطله لمجرّد العداوة لنا والأمل بأن يشوّه سمعتنا، فليعلم هؤلاء أنّ سهمهم طائش وأنّ سعيهم خائب

★ النداء، ١٧ حزيران.

وأنهم لن ينالوا منّا غرضًا، لا، ما دام في الدنيا شيء اسمه الحقّ، فإنّنا الغالبون وإنَّ كلّ مَن صارع الحقّ صَرَعَهُ الحقّ وكبّه على أمّ رأسه[1].

١٧ حزيران

شكيب أرسلان

(١) هذا المنشور له بقيّة بحسب الجريدة، اقتضى التوضيح [المحقّق].

العفو عن الأمير شكيب أرسلان *

صدر عفو الحكومة السورية عن الزعماء المبعَدين عنها سياسيًّا، وشملَ هذا العفو الأمير شكيب أرسلان وإحسان بك الجابري وقد مرّا في الأسبوع الأسبق بالأراضي المصرية في طريقهما إلى موطنهما فاستقبلهما على ميناء الإسكندرية وفي ساعة متقدّمة من الصباح الباكر لفيف كبير من أصدقائهما وعارفي فضلهما ومقدِّري أعمالهما ومن بينهم مندوب أميرنا الجليل سموّ الأمير عمر طوسون، وكتبت عنهما صحفنا اليومية والأسبوعية الشيء الكثير، ولكنّنا لاحظنا أنَّ إحدى الصحف الإسلامية التي ساعدها الأمير شكيب ما وسعته المساعدة في كثير من النواحي لم تُشِر بحرف واحد إلى الأمير وإلى مروره ولا إلى استقباله، الأمر الذي جعلنا في حيرة من أمرنا لا ندري الأسباب التي حملت هذه الصحيفة على هذا الإهمال الذي لا يُغتفَر.

إنَّ للأمير الجليل شكيب أرسلان أكثر من يد واحدة على هذه الصحيفة وهذا هو الذي يدعو للاستغراب وللقال والقيل. صحيح أنَّ الأمير الجليل ترك الكتابة في الصحيفة التي نحن بصددها أخيرًا ووالى الكتابة في صحيفة أخرى، ولكن هل يدعو هذا لإغضاء هذه الجريدة كلّ هذا الإغضاء، وعدم التنويه حتّى بمروره من الأراضي المصرية؟ لا وأظنّ هذا كثير جدًّا ولا يمكن أن نهضمه أو نستسيغه أو نقرّ الصحيفة المذكورة عليه.

نون

* النادي (أبو تيج)، ج ٨، العدد: ٤، ١٩٣٧/٦/١٧.

الأمير شكيب
وحديثه للسيّد الخردجي *

كان الأستاذ الخردجي سأل الأمير شكيب بعض الأسئلة بما يتعلّق بفلسطين وفيما يتعلّق بغبطة بطريرك الموارنة فأجابه عن ذلك بأجوبة نشرها الأديب الخردجي في هذه الجريدة، فلمّا اطّلع الأمير على الحديث وجد فيه بعض التغيير لا عن عمد، بل عن سهو فقد ورد أنه عندما كان في لندرة مؤخّرًا قال ما هو كذا وكذا للإنكليز والحال أنه لم يكن في لندرة، وإنَّما صرّح لبعض ساسة الإنكليز بالكلام المذكور في جنيف وكذلك وجد الأمير بعض ألفاظ لم يقلها فيما يتعلّق ببطريرك الموارنة، بل كان كلّ ما قاله عندما سأله الخردجي عن زعامة بطريرك الموارنة في لبنان أنه أجاب بأنَّ البطريرك الماروني ليس بزعيم لبنان وإنَّما زعيم الطائفة المارونية لا ينازعه أحد منها في هذه الزعامة. والأمير يرجو من الصحف أن لا تنشر أيّ حديث كان لم يوقّع بإمضائه.

---

* لم ندرِ مصدر هذا الخبر إنَّما تمَّ نقله بحرفيّته [المحقّق].

من شعر الأمير شكيب

«بيني وبينك صحبة» ★

كان المغفور له الأمير شكيب أرسلان مشهورًا بحبّه لمعارفه، ووفائه لأصدقائه، وتمجيده لإخوانه، وطالما قال فيهم الشعر أحياء وأمواتًا. وفيما يلي أبيات صاغها شكيب بعنوان: «بيني وبينك صحبة» وقد أهداها إلى «الأخ الأفضل السري الوفي الحاج شافع عبد الهادي، أطال الله بقاءه» وهذه الأبيات ليست في ديوان الأمير، وقد نشرتها جريدة «الشباب» بتاريخ ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٧، وقد صاغها شكيب كما جاء في ذيلها في (صوفر) بتاريخ ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ. ونحن ننشرها توطئة لجمع المتفرّق من شعر شكيب ممّا لم ينشر في ديوانه.

أحمد الشرباصي

قال شكيب، رحمه الله:

يـا شـافعًـا، ومـشـفـعًـا ... وسمّى سيِّدنا محمَّد
من آل عبد الهادي مجد ... همو على الأحقاب سرمد
كـم هـمّـة علـيـاء قـد ... نهضوا بجملتها، وكم يد
قـوم نـمـاهـم كـلّ أشـوَ ... س في الرجال، وكلّ أصيَد
لـو لـم يكـن فيـهـم سـوا ... ك كفاهمو شرفًا وسؤدد
أهـديـتـنـي غـرر الـثـنـا ... ء ففزت بالشرف المؤبّد
حسبي شهـادتـك التي ... أزهو بها في كلّ مشهد
درر بـهـا جـيـدي غـدا ... متـقـلّدًا عـقـدًا مـنـضّـد
أحسست فيهـا الفرق مـا ... بيـن المعطّـل والمقـلّـد
بيـنـي وبيـنـك صحـبـةٌ ... أقوى من البرج المشيّـد

★ الشباب، ١٩٣٧/٦/٣٠.

هي قد أرتك محاسني	لا شكّ طرف الحبّ أرمد
إنِّـي أرى باهـي وجـو	دك نعمـة ليسـت تُحدّد
أبـقــاك ربّــي ممتعًــا	بسعـادة لـيسـت تُنَكّد
لـو كـان يخلـد بـالوفـا	ء فتى إذن كنت المخلّد

شكيب أرسلان

* * *

خطبة الأمير شكيب أرسلان يوم استقباله في دمشق عائدًا من أوربا *

أيّها الإخوان

من هذه العاصمة، عاصمة بني أميّة، كانت تسري الجيوش العربية إلى المشرق والمغرب. من هذه العاصمة كانت تسري الجيوش العربية فتحاصر القسطنطينية بدل المرّة مرّات وبدل السنة عدّة سنوات.

من هذه العاصمة كانت تسري الجيوش العربية إلى أقاصي ما وراء النهر وإلى بلاد الصين، وكان القائد العربي "قُتيبة الباهلي" يوالي الهزائم بعشرين ألف جندي على مئات الألوف من الترك الأشدّاء.

من هذه العاصمة نفسها كانت تسري الجيوش العربية إلى أفريقيا فتقاتل البربر وتدخلهم في الإسلام والهِداية، ومن هناك تدخل إلى أوربا وتجتاز جبال الألب وتصل إلى بواتيه، وترفع العلم العربي، وتخضع لها شمّ الأمم.

من هذه العاصمة كانت تسري الجيوش العربية فتبلغ حدود الهند ويوالي "القاسم محمَّد" الهزائم المشهورة على مئات الألوف من أهالي الهند.

من هذه العاصمة اتّسع أكبر مُلك عرفه التاريخ وكان لهم تلك السلطة التي لم تزل مضرب الأمثال.

لا أريد يا أيّها الإخوان، لا أريد بتذكيركم هذه التواريخ أن أقول إنَّنا مستعدّون لإعادة تلك الفتوحات وتلك الغزوات. نحن قوم محافظون على بلادنا لكنّنا لا نريد أن يُستباح حمانا ولا نسلّم بشرٍ من أرضنا. وإذا اعتدى معتدٍ علينا قلنا له إنَّ الدماء التي كانت تجري في عروق تلك الفتوحات التي تمتدّ من جبال الصين إلى بحر الظلمات إنَّ هي إلاّ دماء عربية لا تزال تجري في أحفادهم وإنَّنا ولله الحمد عرب ولا نزال عربًا.

---

* الجهاد، ١٩٣٧/٦/١٠.

أيّها الإخوان

نحن محافظون على كلّ شبر أرض أهله ينطقون بالضادّ، ولا بدَّ للأمّة العربية أن ترفع كلّ استبداد أجنبي عن أبنائها، إن لم يتمّ ذلك في الحاضر فسيتمّ في المستقبل، لأنَّ هذا العصر عصر القوميات وعصر الحرّيات للأمم الصغيرة فضلاً عن الكبيرة وعددنا يبلغ ٧٠ مليونًا من البشر.

ولكن لا ينبغي أن يكون هذا مجرّد كلام ولا تكفى فيه الخطب. يجب علينا العمل وليكن كلامنا قليلاً وفعلنا كثيرًا.

قبل كلّ شيء ينبغي أن نكون متّحدين، لا تكن بيننا نزعات الطائفية ولا نزعات الحزبية ولا سيّما في وجه الأجانب. الاتّحاد هو أساس النجاح. الاتّحاد هو رمز النجاح، الاتّحاد هو عنوان الشرف، هو عنوان القوّة، بدون اتّحاد يعرف الأجنبي أننا نتكلّم ولا نفعل ولا يهابنا بعد ذلك.

الاتّحاد فرض على العرب في كلّ وقت، ولا سيّما في ايام عصبية كهذه، لأننا لا نفضح لكم سرًّا إذا قلنا إنَّ الحالة العمومية وإن لم تكن حالة توجب القلق الشديد فهي توجب الحيطة والحذر.

الاتّحاد ينبغي في كلّ زمان، ولا سيّما في هذا الدور العصيب، إنَّنا أيّها الإخوان، أبناء دولة جديدة، والدولة الجديدة لا بدَّ لها أن تقف على ما يجري في الأمور الدولية.

لننبذ الأحقاد، ولنفضح المكائد ونحن نعرف هذا نظرًا لوجودنا في أوربا، نعرف الشيء الكثير لا سيّما بعد أن شاع وذاع وملأ الأسماع أنَّ العرب هم في طريق الاتّحاد ويريدون استئناف الدولة العربية السابقة.

يا إخواني

إنَّنا الآن محوّطون بخطرين ظاهرين أحدهما من الجنوب والآخر من الشمال فلا يجوز لنا أن نغفل طرفة عين، بل يستلزم أن تضاعَف الجهود وأن يأخذ بعضنا بأيدي البعض.

وإذا كان بين الواحد والآخر عداء يجب أن يتناساه. نحن كلّنا إخوان كلّنا أبناء وطن

واحد، كلّنا نتكلّم بلسان عربي واحد. وإذا ذلَّ الواحد ذلَّ الجميع وإذا عزَّ الواحد عزَّ الجميع. فلتكن هذه الأغراض ملء أسماعنا وقلوبنا.

أنا أعلم أننا اليوم في أشبه شيء بالمأتم من أجل الإسكندرونة. ولكن الأمّة التي هي منها أمثالكم لا ينبغي أن يفت في عضدها خطب نزل، أننا يمكننا أن نستمرّ على سيرنا في التقدّم وأن نضمّ شعثنا وإن كان اقتطع منّا جزء فإنّنا لا نرضى بهذا الاقتطاع ولا نعترف به.

أمّة من أعظم الأمم نراها تصاب بخطب وتذهب بعض حقوقها، وهي تصبر على الآلام لأجل اغتنام فرصة أخرى، نحن نفكّر في إسكندرونة ونفكّر في حقوق العرب ولكنّنا نتّخذ الحقّ والصبر والله مع الصابرين. هذه آية كريمة ولكنّها تتحقّق دائمًا والتاريخ دائمًا يشهد بها.

الأمم التي تريد أن تحيا والتي وطّدت نفسها للحياة لا تجزع لأجل خطب من الخطوب ولكن تتذرّع بالصبر وتتّخذ التدبير، فكم من حادثة أولها مؤسفة وعاقبتها خير. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

لا أريد بكلامي هذا أن أسلّيكم عن خطبٍ أنا فيه مجروح الفؤاد، ولكن في الوقت نفسه يجب أن نتّخذ الصبر واغتنام الفرص حتّى نستردّ حقوقنا ولا ينبغي أن يظهر علينا أيّ جزع ونقول إنَّ الدهر أطول من أهله وإنَّه سيأتي وقت يعرف المعتدي أنه أخفق وهو الذي يطلب ردّ الحقّ.

هذا ما أقوله من جهة الحالة السياسية التي هي على وجه الإجمال تدلّ على النجاح والفتح القريب لأنَّ الأمّة العربية أمّة كبيرة شاغلة أهمّ أماكن العالم وفي نقط تاريخية ليس بها ما لسواها وربّما كانت أهمّية هذه المواقع هي ما جلبت لنا المصائب وهذه سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

يا إخواني

إنّني أرى كثيرًا من المكاره تحيط بالأمّة العربية من بين أيديها ومن خلفها وعن يمينها وشمالها.

ومن أجل هذا احرصوا على الاتّحاد فيما بينهم وأنكم تعلمون والأجانب يعلمون أنَّ دمشق هي الدماغ المفكّر للعرب فهم يحيون كلّ المبادئ التي تصدر عن دمشق، وأن نقرن

القول بالفعل وأن يكون عملنا هذا رائدنا وأن نعتمد على الأعمال وأن نسوس السياسة التي تقضي بها الحكمة وأن لا نرفض مَن نحن باحتياج لهم ومَن هم باحتياج إلينا، ينبغي أن يكون الرأي قبل شجاعة الشجعان ونحن شجعان وفينا حماسة.

هذا ما أقوله لأجل هذه العاصمة الجليلة التي تفتخر بها العروبة والإسلام والإنسانية التي أنصفت، فإذا لم تكن دمشق هي مصدر الكرائم والفضائل فأيّ بلدة تكون في العالم؟ إنّي أرفع يدي وأدعو الله بأن يحقّق آمالنا جميعًا.

لنهتف بالجملة المقدّسة التي نحيا ونموت عليها «لتحيا الأمّة العربية».

* * *

القنابل بالمعنى الذي تستعملها به الجرائد غلط فظيع *

لا يخفى أنَّ الجرائد العربية أخذت من زمن طويل تترجم لفظة "بومبا" هذه الكرة المحشوّة بالديناميت التي يتقاذفون بها في الحروب بلفظة "قنبلة" باللام ويجمعونها على "قنابل" وعمَّ هذا الاستعمال وشاع وهو خطأ لا موجب له ولا عذر فيه، فإنَّ "القنابل" في العربية هي جماعة الرجال وجماعة الخيل وليس بين هذا المعنى وبين الكرات المحشوّة المقذوف بها أدنى مناسبة وإنَّما كانت المناسبة بين الكرات الديناميتية المحشوّة وبين هذا الطائر المسمّى بالقنبرة (بالراء) إذ كان حجم وشكل هذا الطائر مثل حجم وشكل هذه الكرة وكان للكرة رأس أشبه بالريشة التي في رأس القنبرة، وبناءً على هذه المشابهة بين كُري المدافع وبين الطيور المذكورة سمّوها بالقنابر (بالراء) لا بالقنابل باللام إذ ليس بين القنابل باللام وبين الكُري المقذوف بها أيّة مشابهة.

ولا نعلم متى بدأ كتّاب العرب يسمّون الكرة التي يقول لها الإفرنج (بومبا) بالقنبرة بضمّ القاف وسكون النون وضمّ الباء قبل الراء المهملة، وإنَّما رأيناها في أقوال أدباء من أهل القرن الماضي، قال الشيخ أمين الجندي الحمصي يصف حصار ابراهيم باشا، ابن محمَّد علي، لمدينة عكّا سنة ١٨٣١.

قامي قيامة عكّة من بأسه
وأحاط من كلّ الجهات بها البلا
بمدافع ما إن لها من دافع
وقنابر تحكي القضاء المنزلا

ورأيتها هكذا بالراء في كتابات أخرى من ذلك العهد ولكن صحّفها بعضهم فجعلها باللام بدل الراء ومن ثمَّ غلب استعمالها باللام في الجرائد من دون تحقيق وسبقت لي مقالة في "المقطّم" للتنبيه على هذا الخطأ وما تنبّه أحد، ولكنّي أبَيْتُ إلاّ أن أكتبها بالراء كما يجب

* الحرّية (تطوان)، العدد: ٤٩٠، ١٠/٣/١٩٤١، ص. ١.

أن تُكتَب وهكذا أوردتها في جريدة (الحرّية) في مقالتي الأخيرة التي عنوانها «الحقّ فوق كلّ شيء» ويظهر أنَّ منضّد الحروف حسِبَني غلِطتُ فأراد إصلاحها فجعلها «قنابل» أي صحّح الصواب بالخطأ فوجب التنبيه على ذلك.

شكيب أرسلان

جنيف، ٣ مارس

* * *

حديث للأمير شكيب أرسلان *

I

نعود إلى مجرى الحوادث في سوريا أيام الحرب:

كتب جمال باشا من مقرّه بالقدس إلى رضا باشا، قائد موقع لبنان الذي كان مقرّه عاليه، يأمره بتأليف آلاي من المتطوّعين من أهالي جبل لبنان لا يقلّ عدده عن ألف وخمسمائة.

فأخذ رضا باشا يستدعي هذا وذاك ويتكلّم مع معارفه وأصحابه ويبذل جميع مجهوده لأجل إنفاذ أمر القائد الكبير فلم يظفر بإقناع رجل واحد يريد أن يقيّد نفسه متطوّعًا. وذهب إلى المختارة وأمر بجمع وجهاء تلك الناحية بدون أن يخبرهم بسبب هذه الدعوة حتّى إذا اجتمع منهم جمٌّ غفير في دار سراي آل جنبلاط في المختارة خطب فيهم يحثّهم على تقديم عدد من شبّانهم متطوّعين لخدمة الدولة في وطنهم، فما كاد يكمل خطابه حتّى نظر من حوله فلم يجد إلاّ عددًا يسيرًا بقي من ذلك الجمهور المحتشد وانفضَّ أكثرهم بمجرّد أن عرفوا ما وراء تلك الخطبة. فانصرف رضا باشا إلى عاليه غضبان آسفًا. وبلغني أنه استدعى المرحوم الشيخ حسين محمود تلحوق كبير التلاحقة «والد الدكتور جميل بك، أحد أعضاء المجلس النيابي اللبناني الحالي» واستنهض همّته في حمل الأهالي على التطوّع فأجابه ـ يمكنك أن تقيّد اسمي وأسماء أولادي وأمّا من الأهالي فلا أقدر أن أستجلب أحدًا.

وسبب هذا الإجفال كلّه من المتطوّع ليس مجرّد الخوف من غشيان الكريهة، بل الخوف من أنهم إذا رضوا بتقييد أسمائهم متطوّعين لم تلبث السلطة العسكرية أن تسوقهم إلى ميادين القتال البعيدة وأن تغرّبهم عن عائلاتهم ومنازلهم في تلك الآونة الحرجة. وكان رضا باشا يجتهد في إقناعهم بأنَّ الدولة لن تستخدمهم إلاّ في لبنان ولن تستفزّهم للقتال في مكانٍ بعيد فلم يكونوا يثقون في كلامه كما هي عادة العامّة في إساءة الظنّ بكلّ ما تقوله السلطة.

---

* مرآة الغرب اليومية، ١٩٢٧/٤/٢٧.

وأمسك جمال باشا في بادئ الأمر عن الاستعانة بي في هذا المشروع تجنّبًا لِما يظنّه من أنَّ إتمام هذه الأعمال عن يدي يكسبني نفوذ كلمة بين الأهالي وهذا يثقل كثيرًا على الحكومة. وربّما تكون كبرياؤه أبت به أن يحتاج إلى مراجعة ضعيف مثلي على حين هو صاحب الحول والطول والذي بيده إذ ذاك مقاليد الأمور كلّها.

ولكن رضا باشا أخفق إخفاقًا ظاهرًا لم يبقَ بعده إلاّ حمل الأهالي على التجنيد بالقوّة. وعند ذلك يكونون طائعين لا متطوّعين ومكرهين لا مختارين. وجمال لم يكن يريد فتح مسألة الخدمة العسكرية الإجبارية في ذلك الوقت تفاديًا من إثارة خواطر اللبنانيين والوصول إلى درجة استعمال السلاح في تنفيذ الأمر بما يشغل الدولة عن الخارج بالداخل وكان ذلك منافيًا للحكمة.

فبينما أنا في بيتي بالشويفات إذ جاءني تلغراف من جمال عن القدس يعهد إليَّ فيه بتأليف كتيبة متطوّعين ١٥٠٠ رجل من دروز لبنان على أن يكونوا حاضرين للعمل عند الحاجة وأن لا يتجاوز ميدان عملهم حدود جبل لبنان. ولمّا كان يعلم أنَّ أميرلاي علي فؤاد بك، رئيس أركان حرب الفليق الرابع، "هو اليوم علي فؤاد باشا، قائد موقع إزمير، وقد ورد ذكره سابقًا" صديق لي أشار إليه بأن يكتب إليَّ هو أيضًا من عنده ويحثّني على إتمام هذه الخدمة.

فنهضت من فوري وباشرت العمل، والحقّ يُقال إنَّه لم يكن سهلاً لا سيّما في البداية. فاضطررت أن أطوف على القرى المحمَّدية واحدة واحدة وأن أوضح لهم حقيقة هذه الخدمة وأن أعطيهم التأكيدات اللازمة بأنهم لا يساقون إلى الحرب خارج لبنان ولا يستخدمون للحرب إلاّ في حال مهاجمة عدوّ لجبل لبنان، وأنه لا يكون قائدًا عليهم سوى هذا العاجز. وبهذه التأكيدات وباطّلاع الأهالي على صوَر الأوامر الواردة إليَّ من القائد الكبير وبثقتهم التامّة بي وبحسب كون الناس لا ينقادون إلاّ إلى رسول من أنفسهم، لم يمضِ شهر من الزمن حتّى تيسّر لي تشكيل أربعة آلايات بدل من ألاي واحد. وبقي عليَّ ناحيتانِ لم أكن طفت فيهما إحداهما المناصف والثانية إقليم الخرّوب التي أكثر أهلها مسلمون سنّيون هذا في قضاء الشوف عدا الأهالي المحمَّدية الذين في الأقضية الأخرى. وبلغ عدد مَن قيّدوا أسماءهم في سلك التطوّع تحت إمرتي تسعة آلاف رجل. فعرضت ما جرى لجمال باشا وأخبرته أنه باقٍ عليَّ قيد أسماء الشبّان في ناحيتَي المناصف والإقليم... إلخ فجاءني منه الجواب بأنه اكتفى بما عملته وبأنه لا يكلّفني أن أكمل العمل في المناصف وإقليم الخرّوب.

ولحظت من ذلك أنّ جلّ قصده كان سبر غور نيّة الأهالي في الجبل هل يلبّون دعوة الدولة إلى القتال في الذبّ عن وطنهم أم لا؟ فلمّا رآني نجحت في إنفاذ الأمر وقيّدت أسماء تسعة آلاف متطوّع في مدّة شهر وإنّي لا أزال ماضيًا في عملي علم أنّ الأمّة المحمّدية في جبل لبنان لا تناوئ الدولة ولا تخالف أوامرها في حربٍ كهذه.

وكان بعض أعيان المسيحيين قد عراهم القلق من قيدي أسماء المتطوّعين من الدروز ومن السنّة والشيعة بدون سؤال أحد من إخواننا المسيحيين فجاءوا إليّ وقالوا لي: «إنّنا نحن حاضرون للتطوّع في خدمة الدولة على الوجه الذي تطوّع به إخواننا المحمّديون وتحت قيادتك أنت» وكلّفوني أن أكاتب جمال باشا بما عرضوه من هذه الجهة وأن أبلغهم مآل جوابه. فأبرقت إلى جمال بما قالوه لي وشفعته بكلام من عندي يفيد إخلاص نصارى لبنان للدولة وتمام استعدادهم لخدمتها فجاءني الجواب بأنه لا يوجد الآن حرب في لبنان فإن قُدّر حصولها على حدود الجبل فكما أنّ الدولة جنّدت المسلمين تجنّد المسيحيين وأشار جمال إليّ بأن أشكر بالنيابة عنه المسيحيين على صداقتهم هذه.

بقي عليّ أن أذكر لماذا اجتهدت في إتمام مَهمّة التطوّع هذه وما الذي حداني على هذا العمل الذي يتوهّم بعض الغافلين الذين لا ينظرون أبعد من أنوفهم أنه مخلّ بامتيازات لبنان. وعليه أجاوب أنّ الحامل لي على إنفاذ ذلك الأمر كان أمرين: أحدهما ما كنت ذكرته من أني كنت مقاومًا لسياسة دول الحلفاء كارهًا لطائلتهم وامتداد نفوذهم وسلطانهم عالِمًا أنّ فوزهم على أعدائهم سَيُفضي إلى استيلائهم علينا وتقسيمهم لبلداننا ووقوعنا في المصائب التي نحن واقعون فيها اليوم... فكنت على عجزي وضعفي قائمًا بما أعتقده واجبًا عليّ من قتالهم ومقاومة احتلالهم.

الثاني إنّي كنت أعلم أنّ جمالاً لو قصد أخذ عسكر من جبل لبنان لم يكن في وسع أهله أن يدافعوه عن إنفاذ إرادته هذه إذ لا سلاح ولا قوت ولا خطّة حربية ولا شيء يمكنهم أن يقفوا به في وجه الدولة، وكان قصاراهم أن يفرّوا ويتخبّأوا في الكهوف والغابات والأوعار وهذا ليس بمزحزح القضاء عنهم إذ في قانون أخذ العسكر ما يبيح للدولة في حال الفرار أن تأخذ الأب والأمّ وتضيّق عليهما أشد التضييق إلى أن يحضر الابن فكانت حينئذٍ مصيبة لا تطاق على اللبنانيين الذين لم يعتادوا الخدمة العسكرية الإجبارية من قديم الزمان. فرأيت أنّ إنفاذ أمر الدولة من جهة تشكيل آلايات المتطوّعين والإسراع في هذا المشروع جهد الطاقة لمّا يصرف نظرها عن تطبيق قانون الجندية الإجبارية في جبل لبنان ويفلّ من غرب

غيرتها عند رؤية اللبنانيين حاصلين على الاستثناء من الخدمة العسكرية دون سواهم من جيرانهم. يدلّك ذلك أني لمّا وقفت إلى قيد تسعة آلاف متطوّع من قضاء الشوف وبعض قضاء المتن في مدّة شهر من الزمن وأبرقت إلى جمال باشا أنه باقٍ عليَّ إقليم الخرّوب والمناصف ثمَّ الأقضية الأخرى وإنّي ماضٍ في إكمال العمل، ثمَّ أبرقت إليه أنَّ بعض زعماء المسيحيين عرضوا أنفسهم للتطوّع أُسوةً بأبناء وطنهم المحمَّديين أجابني بأنه قد تحقّق إخلاص اللبنانيين وأنه لا لزوم لإكمال قيد المتطوّعين، وشعرت أنه قد سكنَ جأشه وعَدَلَ عن تلك الحدّة التي لحظتها منه في أول الأمر بعد أن أخبره رضا باشا أنه ما من لبناني رضي بأن يقيّد نفسه متطوّعًا.

وكان من فوائد هذا التطوّع أنَّ أفراد الآلايات المتطوّعة كان يحقّ لهم حمل السلاح بدون معارضة في أثناء أسفارهم خارجًا عن الجبل. وكانت المجاعة في ذلك الوقت قد بدأت تكشّر أنيابها، والناس أجمع في شغلٍ شاغل بإعاشة عيالهم يضطرّون إلى السفر كلّ يوم تقريبًا قاصدين حوران وأطراف سوريا ولا يأمنون على أنفسهم بدون سلاح. فكانوا يأتون إليَّ ويأخذون شهادات تحت إمضائي وختمي بكونهم من متطوّعي لبنان الذين تحت قيادتي فكانت المخافر العسكرية في البقاع وحوران والشام بمجرّد اطّلاعها على الشهادات تسمح لهم بحفظ أسلحتهم معهم، وكان في ذلك لهم فرج كبير وأمن غير يسير. هذا ولم تحتج الدولة إلى استنفار هؤلاء المتطوّعين إلى الحرب إذ لم تقع حرب في حدود الجبل. ولمّا وصلت جيوش الحلفاء إلى لبنان كان انهزم الجيش التركي في فلسطين وأسرعت فلوله تحت قيادة الجنرال ليمان فون سندرس الألماني ومصطفى كمال باشا وجمال باشا الثاني باللحاق بكيليكيا.

وهكذا دفعنا عن لبنان بلاء الجندية الإجبارية بإنفاذ الأمر المتعلّق بتشكيل آلايات المتطوّعين وكأننا دفعنا المرض بالتلقيح. وكنّا ولا نزال نعتقد أنه لم يكن من مصلحة لبنان في كثير ولا قليل ولا من وسائل بقاء امتيازاته الأساسية مجافاة الدولة العثمانية في الماضي ولا مجافاة أيّ دولة حاكمة في سوريا لأنَّ سوريا تقدر أن تعيش بدون لبنان، وأمّا لبنان فلا يقدر أن يعيش بدون سوريا. وكلّ مَن يدّعي الوطنية اللبنانية عليه أن يحاسن جيران لبنان من أهالي الداخل ولا يوغر صدورهم حتّى لا يكيدوا للبنان ويسعوا في الخلل بامتيازاته. ومَن ظنَّ أنَّ التمسّك بامتيازات لبنان يكون بالقذف والطعن وإيغار الصدور يكون صديقًا جاهلاً للبنان والصداقة الجاهلة أضرّ من الخيانة.

حديث للأمير شكيب أرسلان *

II

وكانت الدولة قد شرعت بمدّ خطّ حديدي إلى بئر سبع لأجل تسهيل النقليات العسكرية إلى جهة العريش فترعة السويس وقد حاذرت أن تمدّ هذه السكّة على ساحل البحر من جهة يافا ابتعادًا عن مرمى البوارج الحربية من البحر. فشعّبت الخطّ الجديد من خطّ يافا إلى الجنوب لكن في سفح جبل القدس. وتولّى إتمام هذا العمل مايسنر باشا الألماني الذي كان في زمن السلطان عبد الحميد رئيسًا لمهندسي السكّة الحجازية.

ولمّا انتهى خطّ بئر سبع هذا احتفل جمال باشا بتدشينه في مركز قضاء بئر سبع. وكنت أنا من المدعوّين لحضور حفلة التدشين. أتاني من جمال باشا برقيّة مستعجلة يدعوني فيها لسرعة الحضور فلبّيت الدعوة وأخذت معي المرحوم قاسم بك النعمان حماده الذي كنت جعلته معاونًا لي في مشروع قيد المتطوّعين. وكنت مسرورًا بمدّ هذا الخطّ من أجل المصلحة العامّة ومن أجل مصلحتي الخاصّة لأنَّ بئر سبع قصبة جديدة كانت ألبستها الدولة على الطراز الحديث وجعلت فيها شوارع في غاية الاستواء والاتّساع فاشتريت فيها قبل الحرب بسنتين بضعة عشر ألف ذراع مربّع متّصلة بأحسن شوارعها. ولمّا وصلنا إلى إحدى محاط السكّة الجديدة على مقربة من بير سبع وجدنا جمال باشا يشارف بعض الأعمال فركبنا بجانبه إلى أن بلغنا المكان المقصود.

وبينما نحن في الطريق أخبرني أنهم وجدوا على شفيق بك المؤيّد أوراقًا في قنصلية فرنسا تثبت خيانته. وكان كلامه هذا لي اعتباطًا بدون سبق مناسبة. فقلت له: وما هذه الأوراق التي وجدت عليه؟ فقال: كتب سفير فرنسا في الآستانة إلى معتمد فرنسا بمصر يقول له: إنّه قد حضر إليَّ شفيق بك المؤيّد الذي كان مبعوث سوريا في مجلس المبعوثين والتمس منّي أن أطالب من حكومتي إنزال عساكر في إسكندرونة تكون حاجزًا بين العرب والترك بحجّة أنَّ العرب يريدون الانتقاض على الدولة لكنّهم يخشون زحف الجيوش التركية عليهم فيريدون من فرنسا أن تمنع الترك من الانتقاض على العرب.

* مرآة الغرب اليومية، ١٩٢٧/٥/٢.

وكان جمال يظنّ عندما قال لي هذا الكلام إنّي أكون مسرورًا بالخبر أو مظهرًا تصديقه إذ ربّما يكون قد سمع شيئًا من شفيق بك وعن لسان شفيق بك يستدلّ منه على كوننا غير متلائمين. [...] إلاّ إنّي قلت له: يا مولانا هل وجدت ورقة من شفيق بك بخطّه وإمضائه يطلب فيها من فرنسا إرسال عساكر إلى إسكندرونة؟ فقال: لا، ولكن السفير الإفرنسي بالآستانة لا يكذب على معتمد فرنسا بمصر إذ هذه مراسلات بينهما سرّية رسمية لا مجال للشكّ فيها. فقلت له: نعم، هذا محلّ للتهمة لا أجادل فيه إلاّ إنّه لأجل ثبوت الخيانة والحكم بالجزاء الذي تقضيه يجب أن توجد وثائق بخطّ المتّهم نفسه. ومَن يأتمر بنا فلعلّ شفيق بك أراد بهذا الحديث الذي ألقاه إلى سفير فرنسا (أظنّه المسيو دومبار) أن يستدرجه ويطّلع على سرّه من جهة سوريا... فكلّ أحد يعلم أنه عندما انهزم الترك في حرب البلقان شاع أنّ فرنسا تريد احتلال تلك الغرّة لاحتلال سوريا، وشاع أيضًا الاتّفاق الذي انعقد بين فرنسا وإنكلترا على تقاسم سوريا وفلسطين (اتّفاق سنة ١٩١٣ الذي تحقّق خبره فيما بعد) فربّما تكون هذه الأخبار قد بلغت خاطر شفيق بك فذهب إلى سفير فرنسا يتظاهر له بالصداقة والثقة في فرنسا حتّى يتمكّن من استدراج الفرخ المستكنّ في وكر احتياطه. فإذا علم منه أنّ فرنسا ناوية عملاً كهذا علم هو ماذا يصنع لتلافي هذا الخطر. ثمّ قلت له: يا مولانا وماذا يقول السفير إنّه جاوبه؟ قال: جاوبه بالحذر الشديد بحسب قوله وصرّح له بأنّ فرنسا لا تنوي عملاً كهذا وألحّ عليه شفيق بك بوجوب العمل فبقي يدافعه قائلاً: لا سبيل إلى إنفاذ هذا المشروع. ثمّ إنّه في كتابه إلى المعتمد الفرنسوي بمصر يقول له: وحيث إنّ شفيق بك سافر إلى مصر فأرجو منك أن تفحص لي عن حقيقة سياسته وتأخذ لي مآل مجالسه إلى خواص أصحابه لأعلم أهو مخلص لفرنسا كما يقول ومعتمد على عضدها للسوريين أم هي خدعة عملها ليطّلع على ما ننويه من جهة سوريا؟

فقلت لجمال باشا: فأنت ترى يا مولانا أنّ سفير فرنسا نفسه لا ثقة له بشفيق بك. فقال: أنا مقتنع بأنه ذهب إلى سفير فرنسا ذهاب مستطلع أسرار، بل ذهب مخلصًا في سعيه لإلقاء سوريا تحت حماية فرنسا. ثمّ مَن أَذِنَ له بالدخول في موضوع كهذا هو من إختصاص مأموري الخارجية؟ فقلت له: هو سوري وقد سمع بتلك الإشاعات فحاول أن يعرف درجتها من الصحّة هذا وإن لم أجزم به أقول إنّه ممكن جدًّا. قال: كلا، لا يحقّ له في هذه المداخلات إلاّ بإذن نظارة الخارجية. فقلت له: في أثناء حرب البلقان كنت في الآستانة فلمّا سمعت هذه الإشاعات عن تقسيم سوريا بين فرنسا وإنكلترا بموجب معاهدة سرّية ذهبت

إلى سفارة إنكلترا وقابلت ڤيس موريس مستشارها وكان كلّ شيء هناك بيده فسألته عن ذلك الخبر وأنا لا أملك نفسي من الغضب فقال لي: سكّن روعك هذا كلام جرائد. فقلت له: أنتم دائمًا الإنكليز تقولون كلام جرائد ثمَّ ظهر فيما بعد أنَّ كلام الجرائد هذا اقترن بالفعل، وهكذا حصل في المعاهدات التقسيمية التي عملتموها مع فرنسا في شأن مصر ومراكش وممالك أُخر من أفريقية (وهذه المعاهدات التي فرحت بها فرنسا وإنكلترا حينئذٍ كانت من أعظم أسباب المجزرة العامّة ...) فاستمرّ ڤيس موريس ينكر الخبر. فذهبت من هنالك إلى سفارة ألمانيا وتكلّمت مع الجماعة في الموضوع فكتبوا إلى برلين وهناك جرى سؤال في الريشستاغ عن قضيّة سوريا. فأجابت الحكومة بأنها لا تعرف قضيّة سورية وأنَّ أملاك الدولة العثمانية في آسيا ليست موضوع بحث ولا لها علاقة بالروملي. ثمَّ ذهبت مرّة أخرى إلى سفارة ألمانيا وسألتهم عمّا إذا كانوا يعلمون شيئًا جديدًا فقالوا لي: لا بدَّ أن تكون اطّلعت في الجرائد عمّا دار في الراشستاغ بشأن سوريا. قلت: نعم. قالوا: هذا جوابنا في هذه المسئلة.

سردت هذه القصّة لجمال باشا وقلت له: إنِّي فعلت ما فعلته من تلقاء نفسي خوفًا على وطني ولم أستأذن لا صدرًا أعظم ولا ناظر خارجية، وأردت بهذا أن أمهّد عذر شفيق بك فيما أقدم عليه من مفاوضته سفير فرنسا فوجدت جمالاً قد تبرّم بكثرة أخذي وردّي وقال لي باشمئزاز: أنت مخلص وإن عملت هذا لا غبار عليك ولكن هؤلاء هم في وادٍ والإخلاص في وادٍ. ثمَّ أخذ في حديث ما عدت أتذكّره بالتمام لطول العهد لكنّي أذكر منه قوله إنَّه سيلجأ إلى التهجير. والتهجير في العربي السير في المهاجرة أي الظهيرة. ولكن الأتراك يستعملونه بمعنى الحمل على الهجرة والقياس لا يأباه لو كانت اللغة تؤخذ بالقياس. وقد فهمت منه ما يشير إلى أنه يبغي إرسال هذه الفئة «المفسدة» في سوريا إلى الأناضول. وهذا معنى قوله «التهجير» وكنت في الواقع راضيًا من سماع هذه الكلمة وقلت في نفسي: إذا نفوهم إلى الأناضول لا بدَّ أن يُعفى عنهم ويعودوا إلى أوطانهم وليفعل ما شاء بشرط أن لا يقتل كما فعل بالثلّة الأولى. وكلّ شيء دون المنية سهل.

وذهبنا إلى بئر سبع وحضرنا حفلة افتتاح الخطّ ورجعت إلى دمشق ثمَّ جاء جمال باشا إلى الحاضرة وعلمت أنه لمّا اطّلع على تلك الأوراق التي ذكرها لي استدعى شفيق بك المؤيّد وقال له: أنت أكّدت لي أنك صديق للدولة والملّة فما هذا الذي يكتبه سفير فرنسا عنك؟ فجلس شفيق عنده نحو ساعتين يشرح له كيف جرى ذلك ويؤكّد له أنه ما قصد

بمفاتحة السفير في هذا الموضوع إلاّ استطلاع دخيلة فرنسا بشأن سوريا. فأجابه جمال باشا: هل استأذنت على ذلك الصدر الأعظم أو ناظر الخارجية؟ فقال له: لا. قال له جمال: لا حقّ لك في ذلك. هذا ما بلغني بالتواتر لا من فم جمال باشا. ثمَّ علمت أنَّ السلطة اعتقلت شفيق بك وأشخاصًا آخرين وأحالتهم إلى الديوان العرفي في عاليه. وكانوا هم الثلّة الكبرى.

ولو سألني سائل عن اعتقادي الخاصّ في هذه المسئلة وعمّا إذا كان شفيق بك المؤيّد مخلصًا فيما قاله لسفير فرنسا أم مداجيًا يبغي الاستطلاع لجاوبته أني لمعرفتي التامّة بشفيق بك من ثلاثين سنة أعتقد أنه يكره الترك وأنه كان يسعى في فصل الشام عن تركيا إلاّ إنَّه لم يكن يريد احتلال فرنسا. وإنَّ حديثه هذا مع سفير فرنسا ليس إلاّ مجرّد استكشاف ليعلم ما هي حقيقة نيّة هذه الدولة ويبني على الشيء مقتضاه. وقد ظهر أنَّ السفير يأبى أن يبوح له بذات صدره خوفًا من أنَّ شفيقًا يخبر السوريين بنيّة فرنسا والحال أنَّ فرنسا وإنكلترا كانتا تكتمان دسيستهما السورية لا عن الأتراك فقط، بل عن السوريين أنفسهم. إذ هما تعلمان أنَّ اعتداءهما وقع على السوريين أكثر ممّا وقع على الأتراك فكان احتياطهما من جهة السوريين أشدّ.

وفي تلك النوبة قبضت السلطة على نحو سبعين شخصًا أذكر منهم المرحومين الأمير عمر الجزائري وشكري بك العسلي ورشدي بك الشمعة الجزائري وعبد الغني العريسي والشيخ أحمد طبّاره وتوفيق البساط وعمر حمد والأمير عارف الشهابي وجرجي الحدّاد والأستاذ سلّوم وابن سليم أفندي البخاري. وهؤلاء ممَّن أعدموا الحياة. والدكتور حسين حيدر ورضا بك الصلح (الذي جيء به إلى عاليه من المنفى) وولده رياض بك وفائز الخوري، أخو فارس بك الخوري، ونجيب شقير وسليم أفندي البخاري ومفتي نابلس الشيخ نمر الداري وجماعة آخرون لا أتذكّرهم الآن ممَّن أرسلوا إلى النفي أو ممَّن حكم الديوان ببراءتهم.

وسأذكر ما سمعته من أسباب اتّهامهم وإن كنت لم أقف على شيء مكتوب. وكان ممَّن سيق إلى الديوان العرفي بعاليه المرحوم شكري بك الحسيني، رئيس محاسبة نظارة المعارف سابقًا ومن آل الحسيني أعيان القدس، كان مقيمًا بالآستانة فطلب جمال إرساله مخفورًا منها إلى عاليه أرسلوه إلى هناك قيل لي إنَّه مات في القطار الحديدي عند حماه لأنه كان مريضًا بعلّة القلب فأثر فيه الرعب فتوفّي في الطريق.

حديث للأمير شكيب أرسلان *

III

قلت إنّي لم أطّلع على الوثائق التي من أجلها حكم الديوان العرفي في عاليه على شفيق بك المؤيّد ورشدي بك الشمعة والزهراوي ورفاقهم، وقصارى ما فهمت من جمال نفسه لمّا دعاني إلى حفلة بير سبع هو أنّ سفير فرنسا في الآستانة كتب إلى معتمد فرنسا بمصر أنّ شفيق بك جاءه مرّة وطلب منه حمل حكومته على احتلال إسكندرونة في أثناء اشتغال الدولة بحرب البلقان سنة ١٩١٢ حتّى إذا ثار العرب في وجه الترك كانت العساكر الفرنسوية فاصلة بين الفريقين. وذكرت أنّ جمال باشا كان مقتنعًا تمام الاقتناع بأنّ مسعى شفيق بك هذا كان عن نيّة خالصة في الانفصال عن تركيا وقبول حماية فرنسا. أمّا أنا فلمعرفتي التامّة بشفيق بك وما كان ينطوي عليه من كراهية الأجانب ومن الاعتزاز بالإسلام أميَل إلى الظنّ بأنّ شفيق بك سمع كما سمعت أنا أنّ فرنسا وإنكلترة اتّفقتا يومئذٍ على تقسيم سوريا بينهما. وكان يعلم أنه لم يكن للدولة قِبَل بهما فيما لو أرادتا إنفاذ برنامج التقسيم. فأراد بهذه المداخلة مع سفير فرنسا استلال ذات صدره واستخراج مكنون سرّه ليعلم كيف يتصرّف في قضيّة سوريا هو ورفاقه الذين كانوا يشتغلون بها. وقد حاولت حمل جمال باشا على قبول نظريّتي هذه في الحديث الذي فاتحني به في بئر سبع فلم أفلح.

وأزيد على ذلك إني تباحثت في هذا الموضوع مع علي فؤاد بك الذي كان رئيس أركان حرب جمال باشا فوجدته يميل إلى فكرة جمال باشا لا إلى فكرتي من كون هذه المساعي كانت صنعة محضة. فقلت لعلي فؤاد عند ذلك: مهما كان من رجحان القرينة فإنّه لا يجوز أن يحكم على إنسان بإعدام الحياة بمجرّد كتابة شخص آخر وإنّما لاستحقاق هذه الدرجة من الجزاء أن توجد أوراق بخطّ المتّهم وإمضائه. فأجابني: أمّا هكذا فأنا معك. ولفظ تلك الجملة بالإفرنسية.

ولا بأس من أن أوردِ الآن خلاصة ما أعرفه من ترجمة المرحوم شفيق بك المؤيّد

---

* مرآة الغرب اليومية، ١٩٢٧/٥/٥، ص. ٤.

وتراجم رفاقه لمكانتهم العالية في سوريا ولارتباط هذه التراجم في القضيّة العربية والمسئلة السورية اللتين هما مدار هذا الحديث.

شفيق بك هو ابن مؤيّد باشا، ابن نصّوح باشا العظم، الذي سمعت أنه كان واليًا على مصر من قِبَل الدولة قبل محمَّد علي. وهذا البيت يقال له بيت سعد الدين باشا في آل العظم كما أنَّ البيت الآخر ذا الشأن في هذه الأسرة هو بيت أسعد باشا. وممّا لا مشاحة فيه أنَّ هذه الأسرة بني العظم هي من الطراز الأول في بيوتات سوريا إن لم تكن هي العائلة الأولى.

وكان شفيق بك يقول لي إنَّ ثمّة رواية أنهم من بقايا بني أميّة. ولكن أكثر أهل الشام يروون أنَّ أصلهم أتراك من قونية. وقيل، بل هم من شمالي سوريا وأنَّ جدّهم جاء إلى دمشق ضامنًا لقافلة الحجّ وبعد هذا نال شهرة ومكانة وما زال يعلو أمره حتّى جعلته الدولة واليًا على الشام. ثمَّ تناسل أولاد هذا الوالي على سراوة وثروة وجاه عظيم. فأخذت الدولة تعهد إليهم بولاية الشام ومناصب أخرى، فكان منهم ثلاثة ولاة على الشام وعدد من الوزراء والقوّاد. فتاريخ سوريا في القرنين الأخيرين ذو صلة عظيمة بتاريخ بني العظم.

وأمّا مؤيّد باشا ، والد شفيق بك، فلم يكن ممَّن أحرز المناصب العليا وإنّما كان سريًّا وجيهًا ذا ثروة طائلة وعمّر طويلاً. وكان مهيبًا جدًّا طويل القامة إذا أقبل ماشيًا حسبته راكبًا. وكان جميع ذرّية مؤيّد باشا منظرانيين وأذكياء أوتوا بسطة في العلم والجسم. ومنهم محمَّد بك وهاشم بك ومختار بك وعبد الله وعبد القادر بك وعلي بك وصالح أزدشير بك وشفيق بك وناصح بك. وربّما كان آخرون لا أعرفهم.

وقد عرفت من فروع هذه الشجرة الباسقة عدّة رجال كان أحبّهم إليَّ المرحومين شفيق بك وصادق بك، ابن صالح أزدشير بك، عرفتهما في الآستانة سنة ١٨٩٠ إذ كنت في شرخ الشباب وكان كلّ منهما من نوابغ الأمّة العربية في كلّ معنى. فشفيق بك كان مترجمًا في دائرة الجيب الخاصّ عند السلطان عبد الحميد. وكان رفيقه في الدائرة حقّي باشا الذي صار فيما بعد صدرًا أعظم ومات في أثناء الحرب الكبرى وهو سفير تركيا في برلين.

وكان شفيق بك غاية الغايات في حدّة الذكاء وقوّة الذاكرة وسرعة الخاطر وعلوّ النفس وشمم الأنف مع رقّة الطبع وصباحة الوجه، وكان يجيد الفرنسوية والإنكليزية ويملك التركية كأحسن أدبائها ويعرف العربية تمام المعرفة ويقرض أشعر. وخاطبني مرّة بقصيدة طويلة على رويّ "كفى بكَ داءً أن ترى الموت شافيًا".

وكان كأهل الشام شديد العصوبة لبني أميّة. وبالإجمال شديد العصوبة للعرب والعربية وطالما تشاحن مع رفاقه الترك من أجل ذلك. وكان لا يهاب منهم أحدًا. وكان السلطان عبد الحميد يثق به ولم يكن يغضب أن يرى العربي منتصرًا لقومه. وحدّثني رضا بك الصلح وهو من أقطاب الحزب العربي المناوئ للترك ومن أصدقاء شفيق بك المؤيّد أنَّ شفيق بك كتب إليه مرّة يقول إنَّه يتمنّى أن يموت في سبيل الأمّة العربية فكأنه استشعر منيّته على يد جمال باشا. وهذا من باب الحسّ قبل الوقوع.

ولمّا أعلن الدستور العثماني كان شفيق بك مسيّرًا للدولة في إدارة الديون العمومية فأسفرت الحرّية التي نالتها الأمّة يومئذٍ عن ظهور القوميّات المختلفة بمظهرها الحقيقي وبرز حزب تركيا الفتاة في ثوب قشيب من التركية المحضة التي يقال لها التورانية وقابلهم العرب بجمعيّة الإخاء العربي وبدأت المنافسة فالعداوة بين الفريقين وما زالت تنمو إلى أن تمزّق شمل الدولة العثمانية وتمَّ الانفصال بين هاتين الأمّتين. وسواء كان هذا الانشقاق خطأً أو صوابًا نقول إنَّ لشفيق بك فيه اليد الطولى. لهذا كان الاتّحاديون يمقتونه أشدّ المقت وأرادوا إفساد مضبطة انتخابه مبعوثًا عن الشام في مجلس الأمّة فلم يفلحوا لأنَّ الاتّحاديين لم يكونوا كلّ شيء، بل نهض لمقاومتهم حزب آخر يسمّى «حزب الائتلاف والحرّية» انتظم فيه جمّ غفير من الأتراك المناوئين لـ «حزب الاتّحاد والترقّي» ومن العرب ومن الأرناؤوط ومن الأروام ومن الأرمن. ولمّا اشتدّت العداوة بين الحزبين انتقلت المسئلة من دور المناقشة إلى دور المهارشة واغتيل بعض أدباء من الأتراك كانوا يحملون على الاتّحاد والترقّي حملات عنيفة فاتُّهم الاتّحاديون بأنهم هم الذين أرسلوا مَن فتكَ بهم.

وثاني يوم مصرع واحد من هؤلاء تلاقى شفيق بك مع طلعت بك الذي كان من أقطاب الاتّحاديين فمدَّ طلعت يده لمصافحة شفيق. فقال له: أنا لا أصافح يدًا مخضبة بدم الأبرياء. فوقع بينهما شجار وذلك على درج المجلس. وكان شفيق نازلاً وطلعت صاعدًا فدفع شفيق في صدر طلعت فهبط هذا درجة إلى الوراء بدون أن يقع إلى الأرض. ودخل الحاضرون بينهما ومنعوا الشرّ. إلاّ إنَّ هذه الدفعة في صدر طلعت فعلت مفعولها عند الاتّحاديين وتأجّج في قلوبهم حبّ الانتقام من شفيق ولهذا يقال إنَّها كانت الأصل في شنقه. وقد أحصى أحد الأذكياء الكفوف التي كانت لها نتائج تاريخية خطيرة، فقال: ضربة والي الجزائر لقنصل فرنسا بالمروحة التي استولت بها فرنسا على شمالي أفريقية. ولطمة أحد مبعوثي الأتراك لعلي كمال بك، زعيم مبعوثي ألبانيا، في بهرة المجلس وهي التي آلت إلى

انفصال ألبانيا عن تركيا. ودفعت شفيق المؤيّد لطلعت على درج المجلس التي آلت إلى انفصال العرب عن الترك. والحقيقة أنَّ هذه اللطمات لم تكن هي أسباب تلك الحوادث، بل كانت كحلقة بارزة من سلسلة طويلة أو هي أشبه بجمام الكيل. ولا أظنّ أنَّ قتل شفيق كان بإغراء طلعت، بل هو من جمال باشا انتقامًا عن حركة شفيق العربية وقد وجد الفرصة سانحة له فيما عثر عليه من أوراق قنصلية فرنسا في بيروت. وكان المرحوم محمَّد باشا العظم قد تكلّم مع طلعت بعد القبض على شفيق بك في عاليه والتمس منه أن يتوسّط لدى جمال في أمر ابن عمّه. فأجابه طلعت: أنا لا أدّخر جهدًا في تخليص شفيق بك خصوصًا من أجل أنه سبق له معي حادثة. وكلّمته بالتركي «شفيق بكك بنمله ماجداسي واردر» أي لشفيق بك معي «ما جرى» وهي جملة عربية كما لا يخفى مركّبة من اسم موصول وفعل يجريها الأتراك مجرى الاسم ويصرفونها تصريف الأسماء.

فكان يليق بطلعت أن لفظ هذه الجملة أن يلحق قوله ويبذل كلّ ما في وسعه لإنقاذ شفيق بك من القتل على الأقلّ. ولكنّهم تركوا جمالاً يفعل ما يشاء على مسؤوليّته وربّما كانوا أرخوا له العنان عمدًا حتّى يتهوّر في البطش بالعرب وتقوم القيامة عليه بعد الحرب فيكون طلعت وأنور قد تخلّصا من مزاحمته.

***

والحاصل أنَّ ما كان يتمنّاه شفيق بك المؤيّد من الموت فداءً عن الأمّة العربية قد تمّ له على يد أحمد جمال برغم كلّ ما حاولناه لأجل تخليصه مع رفاقه. ولا أعلم هل كان شفيق بك يعتقد أني كنت ممَّن يحاول تخليصه أم لا. فإنَّ المودّة القديمة التي كانت بيننا كانت قد فترت منذ إعلان الدستور العثماني وصرت عند الملاقاة أقرأ على وجهه الاغبرار وربّما سمعت عن لسانه بعض القوارص من أجل تمسّكي بالدولة. فأصبحت تلك المحبّة القديمة تذكارًا من التذكارات أو شلّوا معلّقًا لا حياة فيه إلى أن نشبت الحرب الكبرى. فتحادثت معه الحديث الذي أشرت إليه سابقًا وذلك عند منصرفنا من عند محمَّد باشا العظم ولحظت أنه كان يشعر بما كنّا نشعر به ويدرك خطر انتصار الحلفاء على البلاد العربية. ولهذا ولخوفي من استحكام الأحنة بين العرب والترك عملت كلّ ما قدرت عليه لإقناع جمال باشا بالعفو عن شفيق بك وسائر المعتقلين كما سترى في المقالات الآتية.

ولقد تلقّى المرحوم شفيق بك نكبته بالصبر والثبات والمتانة. وبلغني أنه لمّا كان معتقلاً في عاليه أرسل لحيته البيضاء فكانت في وجهه الوضّاح نورًا على نور وقرنت الجمال بالجلال فكان مَن يراه خال أنه شيخ الملائكة.



حديث للأمير شكيب أرسلان ★

IV

أمّا المرحوم رشدي بك الشمعة فهو كبير أنجال المرحوم أحمد باشا الشمعة، من عيون أعيان القطر الشامي في وقته ومن أنبه مَن أنجبتهم الأمّة العربية. ولا يمكن سرد تاريخ الشام في الأربعين سنة الأخيرة بدون ذكر أحمد باشا الشمعة، أحد أركان ولاية سوريا المشار إليهم بالبنان. كان يجمع رجاحة العقل وسعة الفكر وحدّة الذهن إلى جرأة القلب ومضاء العزم وعلوّ الهمّة وكان في أنفه شمم نادر المثال فلا يغضي على أقلّ غضاضة من أيّ جهة جاءت ولذلك حفلت حياته بمخاصمة الولاة ومعاندة أولياء الأمور. وكانوا مع ذلك لا يقدرون على فل غربه ولا خفض منزلته من قلوب الأهالي ولا على حرمانه الأكثريّة في الانتخابات الإدارية، بل كان الولاة في حال مخاصمة لهم كثيرًا ما يحتاجون إليه في المشكلات التي تقع في الولاية وينتدبونه لها لِما كان عليه من الحزم والمضاء والخبرة بأحوال البلاد والمكانة عند الأهلين. ولمّا كان القلم جناحًا للنجاح في المراكز السياسية ينهض بصاحبه في جوّ المعالي ما لا ينهض سبب آخر كانت الأداة التي أتمَّ الله بها نعمته على هذا العصامي الكبير قلم سيّال مجيب لخاطره السريع مع الخطّ المؤنق والنسق البديع الذي لا تنقض كثرة الكتابة شيئًا من حسنه. وكان أحمد باشا ساهرًا على مجده ونفوذ كلمته فلم يكن يخاطبه أحد بكتاب إلاّ أجابه بخطّه وإمضائه. وكانت ملكته في التركية كما هي في العربية وربّما أقوى. وكان يتأنّق في معيشته ويقيم جميع رسوم التعيّن من حسن الوفادة وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف وكان ينفق على ضيوفه وقصّاده ويبذل في إتقان منزله بمثل مَن لا يخشى الإملاق ولا يطيب له إلاّ الإنفاق. فكان أكثر الأحايين مديونًا بمبالغ وافرة وهو لعلوّ همّته غير مبالٍ.

في مهد هذه السراوة والوجاهة وُلِدَ لأحمد باشا الشمعة أولاد أكبرهم رشدي بك الذي ظهرت فيه خِلال أبيه. ولئن قصَّر عنه في علوّ الهمّة ومضاء العزيمة فقد كانت له على أبيه ميزة الوداعة وطول الأناة. فكان أهل الشام يحبّونه أكثرّ ممّا يحبّون والده وقلّما عرفنا في الشام أحدًا لا يحبّ رشدي بك الشمعة حتّى من [أخصام] أبيه ومذ أُعلن الدستور

★ مرآة الغرب اليومية، ١٩٢٧/٥/٢٦.

وأُجرِيَ الانتخاب لتأليف مجلس الأمّة في الآستانة كان رشدي بك في طليعة الذين أرسلتهم الأمّة السورية مبعوثين إلى المجلس.

ولمّا جرى ما جرى من النزاع بين العرب والترك على أثر إعلان الحرّية كان رشدي بك في صفّ مبعوثي العرب وفارق حزب الاتّحاد والترقّي، إلاّ إنَّه كان أكثر خصوم الاتّحاديين اعتدالاً ولم يأتِ بعملٍ يوغر الصدور ولا مسعى في إرهاقِ حدّ الخصام.

وممّا لا شكّ فيه أنَّ سياسة رشدي بك كانت فرعًا عن سياسة أبيه وأنَّ أحمد باشا الشمعة كان عربيًّا صميمًا إلاّ إنَّه كان مسلمًا قبل كلّ شيء فكان يتجانف عن كلّ ما يزعزع بنيان الدولة خشية أن يجرّ ذلك إلى استيلاء الأجانب.

ماذا ظهر على رشدي بك الشمعة حتّى أدمجه جمال باشا في عداد مَن خنقهم؟ ذكرت سابقًا أني لم أطّلع على أوراق محاكمة هؤلاء في ديوان الحرب بعاليه حتّى يصحّ لي الحكم. ولكنّي اطّلعت على الكتاب الذي أذاعه جمال بالتركي والعربي في أيام الحرب تبريرًا لعمله في سوريا وكذلك على المذاكرات التي نشرها بعد الحرب بالتركية وترجمت إلى العربية والإنكليزية والألمانية فلم أجد شيئًا يثبت لرشدي الشمعة جريمة ولا سيّما جريمة تستحقّ إعدامه الحياة مصلوبًا في مرجة الشام!

غاية ما سمعت بالتواتر أنهم وجدوا في أوراق رشدي بك كتابًا من والده يوصيه بصديق التمس منه الوصاة إليه ويقول له فيه: هذا الرجل من أعضاء الجمعيّة.

أصحيح خبر هذا المكتوب؟ فما هذه الجمعيّة؟ لأنَّ الجمعيّات كثيرة. وإن كانت الجمعيّة التي يعنيها أحمد باشا ضدّ الحكومة فما درجة مضادتها أهي تعمل لقلب السلطنة العثمانية أم لقلب الاتّحاد والترقّي؟ فإنَّ بين الأمرين بونًا بعيدًا.

هذا كلّه ممّا لا أقدر أن أجاوب عليه لأني غير واقف على أصل الدعوى وقوفًا رسميًّا حتّى أنظر في وجوه الدفاع التي يمكن أن يستظهر بها مريد الدفاع عن رشدي بك. لكنّي أقول لو كان ثمّة تهمة جدّ بحقّ رشدي بك لكان جمال باشا أوضحها في كتابيه الأول والثاني. وأقول إنَّ قتل رشدي بك أوغر من صدور أهل دمشق ووسّع من الشقّ بين العرب والترك بما لم يحدثه قتل آخر لأنَّ جميع الناس كانوا يعلمون اعتداله ويعتقدون إخلاصه للدولة والوطن معًا.

وكانت بين المرحوم عمّنا الأمير مصطفى والمرحوم أحمد باشا الشمعة صداقة متينة العرى وكانت الصداقة أكيدة أيضًا بيني وبين المرحوم رشدي بك ولكن كتابتي هذه أملاها واجب المؤرّخ لا قلب الصديق.

عن الأوقيانوس الأطلنتيكي، في ٩ أيّار

شكيب أرسلان

***

الثورة السورية ثورة وطنية لا دينية

حديث للأمير شكيب أرسلان لمندوب المرآة الأديب رشيد عيده *

س ـ سمعت منك أنّ الثورة السورية ثورة وطنية محضة لا صبغة للدين فيها. ولمّا كان بعض أبناء الوطن لا يزالون يستعلمون عن هذه النقطة فأريد أن أطّلع على البراهين التي عندك على كونها ثورة وطنية لا دينية.

ج ـ أول دليل على كون هذه الثورة هي ثورة وطنية أنّ الرؤوس القائمة بها هي رؤوس مفكّرة ممتلئة عقلاً وعلمًا وأننا لا نبالغ إذا قلنا بأنّ نخبة رجال سوريا هم الذين على رأس الحركة الوطنية الآن. فرجال كهؤلاء لا يخفى عليهم أنّ ثورة دينية في سوريا تؤدّي إلى المذابح وأنّ المذابح تكون أعظم شهادة بعدم أهلية سوريا للاستقلال. ومعلوم أنّ فرنسا لأجل توسيع استيلائها على سوريا لا تزال تتكلّم في الخطر الذي يقع على المسيحيين فيما لو جلت هي عن سوريا. فإذا ثارت في سوريا ثورة استرسل فيها المسلمون والدروز إلى النزعات الطائفية فكأنهم أيّدوا بعملهم حجّة فرنسا وأثبطوا بأيديهم مشروع الاستقلال المحبوب الذي ينشدونه.

الدليل الثاني: لو كان عند المسلمين والدروز منازع إلى حرب دينية لكانت ظهرت منهم في أثناء الحرب العامّة حينما كانت الفرصة لائحة وكانت تركيا في إبّان قوّتها وكانت ألمانيا محتلّة فرنسا. والحال أنه لم يظهر منهم في تلك الكائنة الكبرى إلاّ حسن النيّة بحقّ إخوانهم المسيحيين ممّا لا يقدر أن ينكره أحد لا في الشرق ولا في الغرب. فالشيء الذي تجنّبه المسلمون والدروز في أيام الحرب الكبرى لا بل أتوا بأدلّة على عكسه كيف يعقل أنهم يأتونه بعد أن انكسرت تركيا وألمانيا واحتلّت فرنسا وإنكلترا قسمًا كبيرًا من بلاد العرب!

لا جرم أنّ العمل الذي لا يأتيه الإنسان في وقت القوّة أجدر بأن لا يأتيه في حال الضعف. وليست الطوائف الإسلامية في سوريا من الغفلة بحيث تذهب عنها قضيّة كهذه...

* مرآة الغرب اليومية، ١٩٢٧/٣/٨.

الدليل الثالث: إنَّ هذه الثورة بدأت في جبل الدروز وأنه لو كانت ثورة دينية لكان الدروز هنالك اعتدوا على المسيحيين الساكنين بذلك الجبل وليس عددهم بقليل، بل يوجد ثلاثة آلاف مسيحي في وسط جبل الدروز ونحو عشرة آلاف من المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك في حوران. فما أحرى الثائرين لو كان ثمّة نعرة دينية بأن ينقضّوا على مسيحيي حوران والحال أنَّ المسيحيين المذكورين لم يمسّهم أدنى سوء وأنَّ عددًا منهم يحارب في صفوف الثوّار.

الدليل الرابع: إنَّ أحسن مفكّري السوريين في دمشق وسوريا هم من رؤوس الحركة الوطنية وسواء لدى جوفنيل أو لدى بونسو قد قدّموا المطالب الوطنية التي قدّمها المسلمون. فلو كانوا يشعرون أنَّ الحركة دينية لَما كانوا اشتركوا بالإمضاء على المطالب الوطنية مهما بلغ من تساهلهم مع المسلمين ولكنّهم أدرى بما في البيت فيعلمون أنَّ الثورة وطنية محضة وأن لا خطر عليهم منها البتّة.

الدليل الخامس: عندما صار ضرب دمشق أخلى الفرنسيس حارة النصارى كما يعلم كلّ أحد فجاء أعيان المسلمين ومعهم جمّ غفير بالسلاح ووقفوا عند أبواب حارة النصارى خفراء وكان في مقدّمتهم الإمام الشيخ بدر الدين الحسيني وهو رجل في سنّ الخامسة والثمانين وما زالوا يحافظون على حارة المسيحيين حتّى انتهى ضرب فقُتل من المسلمين نحو ألف وخمسمائة تحت الردم بين رجل وامرأة وطفل ولم يصب مسيحي واحد بخدش. وقد اعترف قناصل الدول الأجنبية بمذكّرة أرسلوها إلى دولهم بأنَّ أعيان المسلمين هم الذين قاموا بوظيفة الشرطة في حارة المسيحيين وحقنوا الدماء. ومؤخّرًا أرسل قداسة البابا القاصد الرسولي يبدي تشكّره لسماحة الشيخ بدر الدين.

الدليل السادس: عندما جاء الثوّار إلى وادي التيم كان قائدهم المرحوم فؤاد بك سليم، وهو خرّيج الجامعة الأميركية ومن أنبه شبّان سوريا فنشر منشورًا على المسيحيين يدعوهم فيه إلى عدم الانقياد لوساوس الأجانب. ويؤكّد لهم أنَّ الثورة وطنية قومية لا دخل للدين فيها. وقد نشرت جرائد زحلة يومئذٍ أنَّ الثورة ليست دينية. فإن كانت وقعت حوادث مؤسفة بعد ذلك في راشيا وقتل بعض أشخاص من المسيحيين. فالجواب عليه أنَّ المسيحيين لم يمكنهم أن يتخلّصوا من الانقياد للسلطة الفرنسوية فجروا معها وقاوموا الثورة. منهم مَن قاومها بالسنان ومنهم مَن قاومها اللسان فجرى ما جرى. ولا ننكر أنَّ

الملتحقين بالثورة ليسوا بأجمعهم من نمط فؤاد بك [الهُمام]، لا بل منهم أناس لا يقدر الإنسان أن يضمنهم. وأيّة ثورة خلت من هذه الحوادث وسارت على الخطّة التي يرسمها قوّادها بدون أن تنحرف يمنة ويسرة؟ ثمَّ إنَّ المسيحيين الذين لم يعارضوا الثورة لم يصبهم أدنى أذى وكانوا موفوري الكرامة.

وكلٌّ يعلم أنَّ مسيحيي حاصبيا هم مسيحيون نظير مسيحيي راشيا فلماذا لا يلحق بهم أدنى أذيّة، بل جعل الثوّار قائم مقام حاصبيا من المسيحيين. والجواب أنَّ مسيحيي حاصبيا تركوا الأمور تجري مجراها فلا قاوموا الثائرين ولا قاوموا الفرنسيس. وكان الثوّار يكتفون من المسيحيين بالحياد على الأقلّ.

ومن الأمور التي تخفى عن بعض إخواننا المسيحيين أنَّ للأحقاد الشخصية والثارات المحلّية شأنًا كبيرًا في الثورات. فقبل أن جاء الثوّار إلى راشيا كان قُتِل بعض أشخاص من الدروز بين كفرمشكي وبكّيفا واتّهم بقتلهم أناس من المسيحيين ولم تكترث الحكومة بالحادث وذهب دمهم هدرًا. وعزي إلى بعض ذوي النفوذ من نصارى راشيا أنهم كانوا ذوي يد في طمس القضيّة. فلا شكّ أنَّ الانتقام مألوف مع الأسف في بلادنا. ولهذا بعد قتل غنطوس من وجوه المسيحيين في راشيا أغرى المسيحيون الفرنسيس بقتل الشيخ نعمان زاكي وهو في سنّ الثمانين وهو أيضًا شيخ العقل وقتلوا معه امرأته وخمسة من أولاد عمّه صرعوهم جميعًا بالمسدّسات في وسط بيت الشيخ نعمان مع أنهم لم يشتركوا في الثورة، بل كانوا قدمّوا كثيرًا من الخدمات للفرنسيين ولولا ما علموه من حسن ظنّ الفرنسيين بهم لكانوا فرّوا مع سائر دروز راشيا عندما دخلها العسكر الفرنسوي.

الدليل الثامن: ممّا يثبت أنَّ العداوة لم تقع بين مسيحي ومحمَّدي، بل بين وطني وغير وطني هو شدّة العداوة بين الثائرين وبين الشركس الذين هم مسلمون. وبين الثائرين وبين بعض المغاربة الذين هم مسلمون أيضًا. وبين الثائرين وبين بعض السوريين الذين هم مستأجَرين عند الفرنسيس لا بل بين الثائرين من الدروز وبين المأجورين منهم الذين يقاتلون في صفوف فرنسا. ومنهم أناس من الطرشان أنفسهم. فإذا نظرنا بعين الإنصاف والتروّي وجدنا أنَّ الثائرين لم ينتقموا على مسيحي كونه مسيحيًا، بل نقموا عليه كونه متعصّبًا لفرنسا كما نقموا أكثر من ذلك على مئات من المسلمين والدروز.

وأمّا الفظائع فلعمري مهما رُوي منها عن الثوّار فلا تبلغ عشر معشار ما ارتكبه

الجيش الفرنسوي من فرنسويين ومغاربة وسنغاليين سواء من القتل أو من الفحش بالنساء أمام رجالهنَّ أو من النهب أو من تدمير القرى بالمدافع والطيّارات أو من نسف العمران أو من حرق الزروع أو من القتل والتعذيب في السجون ممّا هو مقيّد عندنا بأجمعه وقد قدّمنا منه جانبًا إلى جمعيّة الأمم مع ذكر أسماء الأشخاص الذين قُتلوا ظلمًا وعدوانًا بدون أن يكون بأيديهم سلاح وذكر أعمارهم والرجال والنساء والأطفال منهم ومع ذكر البيوت ومواقعها وتقويم أثمانها. وقد اشمأزّ كلّ مَن اطّلع على ذلك من أعضاء جمعيّة الأمم وتأسّفوا جدًّا من وصول فظائع الحرب في سوريا إلى هذا الحدّ.

فنأمل من الذين يتكلّمون عن فظائع الثوّار أن يمسكوا عن إثارة هذا الموضوع فإنّه يكون للثوّار لا عليهم. ويا ليت شعري إذا كان للثوّار وهم فئات غير منظّمة بعض العذر في إتيان أعمال خشنة فما عذر تلك الدولة المتمدّنة فرنسا وذلك الجيش الذي ينبغي أن يكون مثالاً في الضبط والربط. وإنّنا نسأل مسيحيي راشيا عمّا يعلمونه من سيرة العسكر الإفرنسي معهم.

ويسيئنا أن نذكر أنَّ الفرنسيس قبل حادثة كوكبا وراشيا كانوا جنّدوا قسمًا من نصارى لبنان ودفعوهم لمقاتلة الدروز[1].

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ ما وصلنا من هذا المقال هو إلى هذا الحدّ [المحقّق].

خطبة الأستاذ النشاشيبي
على اللغة العربية

قرأت هذه الخطبة أولاً في الجرائد وفُتنت بها وأُعجبت بما حوته من جزالة لفظ وبلاغة معنى وسداد حجّة. ثمَّ أُهديت إليَّ في كتاب نفيس الطبع أسيل الورق بهج المنظر، لم أرَ أليَق منه قالبًا لتلك الروح العالية ولا أبدع صدَفة لهاتيك الدرّة الغالية. وقد طرّزت تلك الخطبة من دقائق لغة العرب بأحسن من وشي العجم. وإنّي وإن كنت سأبدي وأعيد مع أخي الأستاذ في بعض المواضِيع التي تضمّنها كتابه متى انتدح عندي الوقت، فمذ الآن أقول إنَّه كتاب مع وجازته قد زَخَر عبابه، ومع قلّة قراطيسه قد قرطس نشّابه... ولتهنأ العربية بهذا النصير قليل النظير، والعاشق الساهر الليالي في رعي نجوم التحقيق والتنقير. ومع أني هجرت الشعر فلم أملك نفسي أن قلت:

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها ... قد أحسن الله إسعافي بإسعافي
هو المجيب لمَن قد بات ينشده ... انصر أخاك لدى ظلم وأُسْ عافي

لوزان، ٢١ مارس

شكيب أرسلان

* * *

محراب أثريٌّ في بغداد

كُتبَ من بغداد إلى المستشرق الأستاذ «هرزفلد» أنَّ المحراب الأثري العربي الذي يرجع عهده إلى تاريخ تأسيس مدينة المنصور ـ عاصمة العباسيين ـ فُقِد من موضعه. فاهتمَّ المستشرقون لذلك، وكتب أحدهم إلى صديقه علاّمتنا الأمير شكيب أرسلان يلفت نظره إلى هذه الكارثة. وما كاد الأمير يرفع صوته متسائلاً عن ذلك في افتتاحية نشرتها رصيفتنا «الشورى» الغرّاء حتّى اهتمّ العراقيون للأمر. ومن مظاهر اهتمامهم ما قرأناه في جريدة «العالم العربي» البغدادية من أنَّ صاحبها الفاضل زار معالي وزير الأوقاف العراقية وسأله عن حقيقة ما قيل عن المحراب فعلم منه أنَّ جامع الخاصكي تداعى للسقوط واحتاج الأمر إلى بنائه من جديد، فجيء بهذا المحراب الذي كان فيه إلى بناية وزارة الأوقاف محفوظًا في صندوق كبير، وفي النيّة نقله إلى البناية الجديدة التي يُعدّونها الآن للمتحف العراقي.

وهذا المحراب ـ كما قال الأمير في مقاله عنه ـ قطعة عظيمة من الرخام يبلغ طولها مترًا وستّين سنتيمترًا وعرضها أكثر من متر. وهو أثر من أبدع آثار الفنّ الإسلامي أقدمها وأعظمها قيمة، ويغلب على الظنّ أنه كان محراب الجامع الكبير الذي بناه الخليفة المنصور. وقد جاء وصفه في مؤلّفات علمية عديدة منها المذكّرة التي قدّمها كثيرون من العلماء إلى أكاديمية الفنون، ودوّنها الأستاذ «فيوله» في الباب الحادي عشر من كتابه المطبوع في مارس سنة ١٩٠٩ ومنها ما كتبه الأستاذ هرزفلد في جريدة «الإسلام» الألمانية سنة ١٩١٠ وما ذكره في كتابه عن «آثار الفرات».

***

المدنيّات الثلاث

خطب الفاضل الشهير المسيو توسين في حفلة كبرى أقيمت في باريس ـ احتفالاً بشاعرية شوقي ـ فقال:

«إنَّ الحرب العامّة أثبتت فساد نظريات الغرب، وأوضحت كون المدنيّة المبنيّة على المادّة وحدها قاصرة عن الوفاء بحاجة الإنسانية».

ثمَّ قال: «إنَّ أمراض المدنيّة الغربية الحادثة قد بدأت تسري إلى الشرق». وأورد مثلاً على ذلك صنيع أنقرة التي نقضت التقاليد، ومرقت من الديانة، مع أنَّ هاتين هما البنيان في عظمة تركيا السابقة».

فأجابه كاتبنا الأكبر الأمير شكيب أرسلان بقوله:

«لستُ متّفقًا مع المسيو توسين في كلّ ما ذكره عن مدنيّة الغرب، فالشرق مديون للغرب بكثير من أسباب المدنيّة، لا سيّما فيما يتعلّق بالرفَهِ وتدبير المنزل ونظام الاجتماع وفنون الصناعة وجرّ الأثقال. كما أنَّ الغرب مديون للشرق بمبادئ الإنسانية العليا.

«وبالإجمال المدنيّات ثلاث:

إحداها تكاد تكون روحية صرفة، وهي (مدنيّة الصين والهند).

والثانية تغلب عليها المادّية الصرفة، وهي (مدنيّة أوروبا وأمريكا).

والثالثة وسط بين الاثنتين، وهي (المدنيّة الإسلامية). فالواجب أن يُستفاد من المدنيّات الثلاث ليؤخذ من ذلك مجموع لا شكّ أنه يكون في تحقيقه سعادة المجتمع البشري».

فكان لكلام الأمير تأثير عميق في نفوس عُلية الفرنسيين، ووافقوا جميعًا على أنه الحقّ.

❋ ❋ ❋

ابن عمّنا سادول

لمّا دعي كاتبنا الأكبر الأمير شكيب أرسلان إلى موسكو في الشهر الماضي لمشاهدة حفلات مرور عشر سنين على جمهورية السوفيت اجتمع بالمسيو سادول، الشيوعي الفرنسي، ودارت بينهما أحاديث، قال الأمير:

ثمَّ قلت له: إنَّ اسمك يا أخي لا يظهر لي أنه إفرنسي، فهل تدري ما أصله؟

فقال: قيل لي في أنقرة إنَّه اسم تركي.

فقلت له: هو في الحقيقة اسم عربي أصله «سعد الله»، والأتراك يلفظون هذا المركّب بحالة الرفع أي هكذا «سعدو الله» ثمَّ يحذفون نصف الاسم للتخفيف فيصير «سعدول»، وعندهم من هذا القبيل أسماء أخرى يختصرونها مثال ذلك «ويسل» منحوتة من «أويس القرني» و«زينل» منحوتة من «زين العابدين». فأنت اسمك منحوت بدون شكّ من سعد الله.

فقال لي: ولعلَّ اسمي عربي من أجل أني من بلاد كانت عربية.

فقلت له: ما بلادك من فرنسة؟

فقال: ولاية تولوز في الجنوب.

فقلت : هي طُلوزَتُنا أصلحك الله، وقد اقمنا هناك.

فقال: عدّة قرون، ولكم آثار باقية، وكثير من أسماء أماكننا لا يزال عربيًّا، وكثير من وجوه سكّان بلادنا عليه سيماء العرب: كاللون، والعيون.

وهناك دخلنا في التاريخ مع ابن عمّنا سعدول أو سعد الله ولم نخرج منه إلاّ بعد ساعة.

* * *

استدراك على مقالة
«سكّان البلاد العربية»

ورد في مقالة «سكّان البلاد العربية» من الجزء الأول من الزهراء بعض كلمات عربية متشابهة لكلمات أخرى بمعناها من بعض اللغات السامية وأحيانًا كلمات مشتركة بعينها بين العربية وبعض شقائقها الساميّات.

وقد جرى الاستشهاد بلفظة «خنع» بمعنى خضع وذلّ وأنه يقابلها عند الكلدانيين «كنع» بمعنى خزي. والصحيح أنّ «كنع» هي أيضًا في العربية بمعنى خضع وذلّ يقال كنع ثلاثيًا وأكنع مزيدًا وكلاهما بمعنى خضع وذلّ.

ثمّ وردت لفظة «أرام» بمعنى البلاد العالية في الآرامية ويشابهها بالعربية «ارم» بمعنى الحجارة تنصب علمًا في المفازة وهي أخت «ورم» العربية بمعنى انتفخ يقابلها بالفينيقية والعبرية «روم» بمعنى ارتفع. فأضمّ إلى ذلك «رَيم» بفتح الراء بمعنى الجبل الصغير في العربية.

لوزان، في ٢٩ يناير

شكيب أرسلان

***

جهد المقلّ

-١-

أنا ما حييتُ فقد وقفتُ لأمتي		نفسي ومالي في سبيل بلادي
فإذا قُتلت ـ وتلك أقصى غاية		لي ـ فالوصيّة عندها أولادي:
بنتٌ لتضميد الجراح، ويافعٌ		يُعنى بتثقيف القنا الميّاد
حتّى إذا بلغ الأشُدَّ رأتْ به		ذُخرًا ليوم كريهةٍ وجِلاد

خليل مردم بك

-٢-

قل للخليل مفدّيًا أوطانَه		وموصّيًا إن راح بالأولاد
هذا لتثقيف القناة، وهذه		وقفٌ لأسوِ جراحةٍ وضماد:
في مثل هذا يا ابن مَرْدَمَ يلتقي		عِظَمُ الجدود وسؤدُد الأجداد
إن كان في الشبّان مثلك جملةٌ		فلنا الرجاء بأمّة وبلاد
أفديك بالروح العزيزة، إنَّها		لِفداء مثلك من عزيز فاد

الأمير شكيب أرسلان

* * *

كلمة عن قصيدة شوقي الدمشقية

ماذا يقول الإنسان عن شعر شوقي بأجمعه، فحسْب الإنسان أن يقول إنَّه شعر شوقي أو أن ينشد قول شوقي نفسه:

ما كلام الأنام في الشمس إلاّ أنها الشمس ليس فيها كلامُ

وقصيدته التي قالها مؤخّرًا في دمشق لا أتوخّى وصفها من حيث أنها شعر لأنها من النسج نفسه ومن القريحة بعينها التي لا تسيل إلاّ بالبدائع والتي هي كالغيث لا يُدرى أأوله خيرٌ أم آخره. ولكنّي معجب بما فيها من المرامي القومية والمنازع الوطنية التي أثبتت لنا ما كنّا نأمله من مبادئ شاعرنا الأكبر التي تزيده حبًّا ومكانة لدى الأمّة العربية، وتبيّن به عن غيره من المصريين الذين لمّا دعاهم الفرنسيس في الصيف الماضي إلى اجتماع عقدوه في لبنان تقارضوا وإيّاهم الثناء وتكلّموا عن سورية في كلّ شيء إلاّ عن استقلال سورية...

أمّا شوقي فحُقّق أنه كما ضارع أبا تمّام والمتنبّي في الشعر فقد ضارعهما في الحميّة على قومه، وأنه بالفعل شاعر أمّة.

انظر إلى قوله:

حتّى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارفةٍ فيها الندى وبها طيٌّ وشيبانُ
نزلت فيها بفتيانٍ جحاجحةٍ آباؤهم في شباب الدهر غسانُ
بيض الأسرّة باقٍ فيهم صَيَدٌ من عبد شمسٍ وإن لم تبقَ تيجانُ

فهل تجري هذه الألفاظ على لسان لم يكن وراءه قلب مفعم بالعربية؟

ثمَّ انظر كيف يثير همم الشاميين إلى تحرير وطنهم، ونفض غبار السيطرة الأجنبية عن أنفسهم، وهم أهل السماحة والسجاحة، فهو يقول:

ما فوق راحاتكم يوم السماح يدٌ ولا كأوطانكم في البشر أوطان
خميلة اللّه وشّتها يداه لكم فهل لها قيّم منكم وجنّان

نعم، إنَّ شوقي يقول: إنَّ الشام هي جنّة الله في أرضه، لكنّه يريد أن يكون جنانها منها لا غريبًا عنها. ثمَّ إنَّه يقول ولا يتلجلج:

شيِّدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها فالملك غرس وتجديد وبنيان

نعم والله ما الملك إلاّ الغرس والتجديد، وإدارة الحائط حول ما غرست وجدّدت. ثمَّ إنَّه يعرّف الملك بقوله:

الملك أن تعملوا ما اسطعتمُ عملاً وأن يبينَ على الأعمال إتقان

أي أن تصلوا في العمل إلى الدرجة القصوى فلا تدّخروا مجهودًا ولا تحجموا عن مستطاع فإنَّ الممالك أعمال لا آمال ولا بدَّ لكم من أن تجوّدوا الأعمال حتّى يظهر عليها أثر الكمال.

ثمَّ كأنه لحظ ما في برّ الشام من خلق الكرم وفرط السخاء منحصرًا ذلك في الولائم والمآدب، والمطاعم والمشارب، حتّى إذا جيء إلى مصلحة وطنية ومشروع عامّ كزّت الأيدي وجمدت النفوس واثّاقل مَن عهدتَه أسرع الناس مهزّة، فقال:

الملك أن تخرج الأموال ناشطة لمطلب فيه إصلاح وعمران

فعساك تُسمع الصمّ يا شوقي، ويكون كلامك صور إسرافيل!

ثمَّ حثَّ الناس على العلم والأدب لأنهما من لوازم الملك وأبنية الدول، فقال:

الملك تحت لسانٍ حوله أدبٌ وتحت عقلٍ على جنبيه عرفان

لغة ذات آداب، وعلمان مطبوع ومسموع، ثمَّ قال:

الملك أن تتلاقوا في هوى وطنٍ تفرّقت فيه أجناس وأديان

وهي النصيحة الكبرى والعروة الوُثقى التي لا بدَّ منها لإحراز الملك وتأسيس الاستقلال، لا سيّما في قطر كثرت أجناسه وتعدّدت أديان أهله. ثمَّ قال:

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً وحكمةً فهو تقطيعٌ وأوزان

أبى شوقي بحميّة نفسه وجائشةَ صدره أن يجعل قصيدته عن دمشق أوصاف جنان، وذكرى رَوح ورَيحان، والترنّم بأفواف نبات هي أصباغ وألوان، دون أن يذكّر قومه بمجدهم السالف، ويعطف عليهم في بؤسهم الحاضر، ويبدي لهم رأيه فيما يجب أن يعملوه

ليلمّوا شعثهم. وبمثل هذا تتفاضل الرجال، وتتفاوت الآماد في الاخلاق. ثمَّ صرّح بالتضامن، الذي كنّا نحبّ أن نسمعه من كثير من المصريين، ونادى بالأخوّة بين الناطقين بالضادّ والمتجاورين في الشرق نداءً أغلى قيمته عندنا أنه صُداح بلبل وادي النيل والطائر المحكي في الشرق كلّه. وأشار إلى انه لم يكن لنا جامعة سوى تشابه الحالات وكون السلسلة واحدة لكفي، فقال:

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم   ونحن في الجرح والآلام إخوان

كانت هذه القصيدة برهانًا لشوقي على أنه في الحميّة القومية والنُّعرة العربية كما هو في الملكة الشعرية والعبقرية البيانية ندٌّ لأبي تمّام في قصائده على غزوات المعتصم، وللمتنبّي في وصفه غارات سيف الدولة، وأنه لا يكتفي بأن يكون عربي اللسان حتّى يكون عربي الجنان. ولله ما أشجى قوله في هذه القصيدة:

بنو أميّة للأنباء ما فتحوا   وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
بالأمس قمتُ على الزهراء أندبهم   واليوم دمعي على الفيحاء هتّان
لولا دمشق لَما كانت طليطلةٌ   ولا زهت ببني العباس بغدان

هنا مجرى السوابق ومجرُّ حديث الغابر، ومفاض العبرات من المحاجر، ومجلى روح شوقي بتمامها بين ذلك الأول وهذا الآخر.

ثمَّ يقول:

تغيّر المسجد المحزون واختلفت   على المنابر أحرار وعبدان
فلا الآذان آذان في منارته   إذا تعالى ولا الآذان آذان

كنت أحبّ أن يقول هنا:

إذا الآذان أذانٌ في منارته   وقد تعالى فما الآذان آذان

لأنَّ الآذان باقٍ كما هو في الواقع ولكن السامعين اليوم غير السامعين بالأمس. والخلاصة أننا نسأل الله أن لا يسكت «هذا الطائر الغرِد» والشاعر الفرد الذي يسلي العرب عن مصائبهم وينهض بهم إلى استئناف معاليهم واسترداد ماضيهم.

جنيف، في ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٥   شكيب أرسلان

ملحق: في المقالة المنقولة عنّي في العدد الأخير من الزهراء تحت عنوان «الإسلام والحضارة العصرية» هذه الجملة: «وينبغي أن يُبقي أشدّ الأنظمة على الفجور والبغاء ومنع التهتّك والاستهتار وتقييد الحرّية بقيود الآداب» والصحيح هي «وينبغي أن يُبقي أشدّ الأنظمة على الفجور والبغاء والتهتّك والاستهتار وفي تقييد الحرّية بقيود الآداب».

شكيب

***

آخر بني سراج وخلاصة تاريخ الأندلس ★

آخر بني سراج قصّة من بدائع البيان الفرنسوي، ألّفها فيكونت شاتوبريان Chateaubriand ، الأديب الشهير (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) و«أدارها على سياحة شابّ تامّ الرجولية من بقايا آل سراج الغرناطيين: هبَّ من تونس ـ حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم ـ سائحًا إلى وطنه القديم، هائمًا على وجهه في تلك الأرض التي عمّرها آباؤه مئين من السنين. وبينما هو يجول في شوارع غرناطة ـ مسكن أهله قبل الجلاء الأخير ـ كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الإسبانيول فعلقت بقلبه، ووقع نظره منها على مثله فتعاشقا. وتوزّعت القصّة بين حبّها وحبّه، وحالَ دون اقترانهما أعجاب كلّ بدينه، ثمَّ ما تبيّن لابن سراج بعد طول العِشرة من كون معشوقته سلالة من آل بيفار الفاتكين لدن الجلاء بآبائه، فرأى اختلاط دم القاتل بدم المقتول غير خليق بإبائه».

ومن حسن حظّ شاتوبريان في قصّته هذه أنها نُقلت إلى لغة آخر أمراء بني سراج بقلم أمير البيان العربي الكاتب الأكبر الأمير شكيب أرسلان، ونُشرت في جريدة الأهرام سنة ١٨٩٧ وطُبعت في مطبعتها بكتاب مستقلّ في تلك السنة مذيّلة بخلاصة عظيمة الأهمّية لخاتمة تاريخ العرب في الأندلس إلى سقوط غرناطة. ولهذا الكتاب فضل على عدد كبير من ناشئة العرب ببيانه ومعارفه ومراميه، فقد كنت على عهد الدراسة في القسطنطينية عام ١٩٠٦ أقرؤه أنا وأخي الشهيد السعيد الأمير عارف الشهابي على عدد كبير من إخواننا طلبة المدارس العليا. فكان أحد العوامل التي أيقظت فينا عاطفة الإعجاب بسلفنا، والحرمة لماضينا، وكوّنت في أنفسنا عقيدة قومية قائمة على أساس الاتّصال بين الحاضر والماضي والمستقبل.

وقد أعيد الآن طبع هذا الكتاب البليغ وأضيف فيه إلى رواية شاتوبريان، وتاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان، كتاب ثالث لمؤرّخ عربي شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه سمّاه (أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر). وبعد ذلك إثارة تاريخية في أربعة

★ مطبعة المنار، المكتبة السلفية، من ٤٢٠ صفحة.

مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر إلى بعض فرسان الإسبانيول وزعمائهم بين سنتَي ٨٧٥ و ٨٨٠ هـ.

وبعد فإنَّ مجموعة (آخر بني سراج) هي مرجع قرّاء العربية الوحيد لمعرفة تاريخ خروج أجدادنا من الأندلس، وهي من الكتب التي لا يليق بأديب أن تخلو خزانته منها.

* * *

كلمة عظيمة لفولتير
عن محمّد (ﷺ)

لا يخفى أنَّ بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشيء، ولا يحفلون بأمر، ما لم ترو لهم فيه كلامًا عن فيلسوف أوروبي عظيم لا سيّما إذا كان من كبار الملاحدة.

ولهذا نريد أن ننقل لهم حكم رأس الملاحدة في كلّ أوروبة، والعامل الأعظم في أحداث الثورة الفرنسوية سنة ١٧٨٩، على محمَّد بن عبد الله (ﷺ).

نشر أحد مراسلي جريدة الطان وهو المسيو لڤال Leval كتابًا في العدد المؤرّخ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ من هذه الجريدة يذكر فيه أنه اطّلع في ڤينا على مذكّرات غير مطبوعة للكونت شارل زينزندورف Zinzendorf محفوظة في دار الآثار الوطنية بالنمسا فيها قصّة زيارات هذا الكونت لكلّ من جان جاك روسو وڤولتير في شهرَي سبتمبر وأكتوبر من أشهُر سنة ١٧٦٤، وكان الكونت زينزندورف ـ وبالألماني تُلفَظ تسينسندورف ـ يومئذٍ في سنّ الخامسة والعشرين يطوف باحثًا منقّبًا في الأقطار، وهو الذي صار فيما بعد من كبار ساسة النمسا، وله كلام في مذكّراته على نابليون بوناپارت أثناء غارته على النمسا سنة ١٨٠٥ و١٨٠٩.

وقد اختصر «لڤال» ـ مراسل الطان ـ هذه المذكّرات وأخذ أهمّ ما فيها ونشره في الطان. وأنا آخذ أهمّ ما في الأهمّ وأختصر المختصر:

في ٧ سبتمبر، سافرت من نيوشاتل (سويسرة) في عربة على طريق معبّد محاذٍ لبحيرة نيوشاتل ومررت بكروم وحراج ومناظر جميلة ودخلت في مضيق منحوت في الصخر عن جانبه من الجهة الأخرى هاوية عميقة يمرّ بها نهر الروس Reuss [1].

(١) في اللغة العربية لا يوجد إشارات للفرق بين حروف u,eu,ou,o من الأحرف الإفرنجية وكلّها نضع له حرف الواو لا غير مع أنَّ اللفظ بين الكلمات التي فيها كلّ من هذه الحروف مختلف عن الآخر فالكلمة التي نحن بصددها هي Reuss نضطرّ أن نكتبها كما نكتب «الروس» أي المسكوب وهي Russe أو كلمة شقراء مؤنّث أشقر وهي Rousse أو كلمة كيش وهي Rosse فعندنا لفظ كلّ هذه الكلمات واحد وهو «روس» بالواو مع أنَّ اسم هذا النهر Reuss هو بالواو مائلة إلى الألف وهو ما يلفظ بحرفَي eu ولفظة شقراء Rousse هي بالواو العربية المضيّقة كما تلفظ عود وغول وهو ما يلفظ بحرفَي ou ولفظة Russe أي روسي مسكوبي هي بالحرف u الذي لا يوجد عندنا ما يقابله وهو أشبه بواو مشرّبة بياء. ولفظة Rosse أي كيش هي بالواو=

وصلت إلى قرية موتيه Motiers فلقيت المسيو روُسو Rousseau فيها ومعه الآنسة لو ڤاسور Le Vasseur، فاعتذر بمقابلتي بالقفطان، وسألني هل أريد أن أبقى هناك بعض ساعات، ودعاني للغداء، وصبَّ لي الشلي بيده، واستعلم منّي عن رجل اسمه سوترن Sauttern وسألني عمّا إذا كنت من أنسباء الكونت تسينسندورف المشهور[1] فأجبته نعم وحكيت له عن المورافيين بصورة مجملة سرَّ منها واعترف بأنه مخطئ في ظنّه أنهم كانوا مجانين. وتكلّمنا عن "هيولييز الجديدة Nouvelle Héloïse "[2] فقال لي: إنَّها تاريخه، ثمَّ عن البرنس لويس أوجين دو ڤورتنبرغ Vourtemperg الذي كانت بينه وبين روسو مراسلات، ثمَّ عن رجال آخرين من جملتهم ڤولتير، وشكا منه كثيرًا كثيرًا وقال إنَّه كان السبب في نفيه وصرّح لي بأنه يكرهه. وحكيت له قصّتي فوافق على كون الديانة الكاثوليكية أشدّ مطابقة لنفسها[3] وممّا قاله لي إنَّه يشعر بحاجة إلى الحبّ، ويظنّ أنَّ هذه الحاجة ناشئة عن تركيب الحواس، وأنه بسبب كونه يدعو الناس أن يعيشوا سعداء بقدر ما يمكنهم أن يكونوا سعداء، صاروا يبغضونه ويقابلونه على حبّه لإخوته في الإنسانية بهذا الشنآن. وتكلّمنا على الحالة المالية بفرانسة فقال لي إنَّ هذه الحالة السيّئة ستبقى كما هي وستؤول إلى سقوط الحكومة (بعد ٢٥ سنة من هذا التاريخ كانت الثورة الفرنسوية وسقطت الحكومة الملكية) وقال إنَّ الأغنياء لا يريدون قسمة المشاعات.

= المجرّدة مع التفخيم وفتح الحلق وهو ما يلفظ بحرف o لهذا رأيت تلافيًا لهذا الشكل المهمّ أن أضع محل حرف o الواو المجرّدة فإذا قلنا Octobre كتبناها بالعربي أوكطوبر بواو بسيطة ليس عليها إشارة وإذا جاءتنا كلمة إفرنجية فيها حرفا ou مثل Louvre أي قصر اللوفر بباريز أو Rouble روبل هذا النقد المعروف كتبناها بالواو ولكن وضعنا فوق الواو واوًا صغيرة لتشعر بالفرق بينها وبين واو أوكطوبر أو واو Orléan ورليان مثلاً. وإذا أردنا أن نعرّب كلمة Russe مسكوبي وضعنا فوق الواو

ي

ياء صغيرة هكذا روسي وذلك لأنَّ واوها هنا مختلفة في اللفظ عن واو أوكطوبر وأورليان وكذلك عن واو لوفر وروبل ومثل كلمة Russe اسم جول Jules فهذه

ي

يجب أن نكتبها هكذا "جول" لأنها واو مشوبة بياء وهلمّ جرًا. وإذا أردنا تعريب Reuss أو Meuse كتبنا هكذا "رواس" و"موز" بألف صغيرة فوق الواو لأنها واو مائلة إلى الألف وبدون هذه الإشارات يبقى التعريب ناقصًا جدًّا وهو شَيْنٌ لاحق بالعربية. وسأكتب مقالة في تعريب هذه الحروف.

(ش)

(١) هو الكونت نيقولا لويس تسينسندورف ولد سنة ١٧٠٠ ومات سنة ١٧٦٠ وكان مجدّد كنيسة الإخوان الموارفيين وهو عمّ صاحب المذكّرات.

(٢) كتاب من القصص الموضوع لروسو هو من أشهر كتبه.

(٣) كان الكونت شارل تسينسندورف تحوّل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية في ١٤ مارس سنة ١٧٦٤.

وبينما أنا عنده قدّم إليه ضابط إفرنسي من «بزانسون» وبجّله وقرظه كثيرًا قائلاً له إنَّ أخلاقه صلحت بمطالعة كتبه. فأجابه روسو بأنَّ القراءة لا تنفع كثيرًا إلاّ على شرط الاعتدال وحسن الاختيار. وترجّاني كثيرًا أن لا أخوض معه في حديث ڤولتير وقال لي إنَّ ڤولتير يتحمّل كلّ شيء إلاّ أمرًا واحدًا وهو الاعتقاد بالله (جلَّ شأنه).

في ٨ سبتمبر، دخلت إلى بيت المسيو «مونسمولين»، قسّيس القرية، فقصَّ لي كثيرًا عن روسو وقال لي إنَّ الملك لويس الخامس عشر أحبّ يراه وأنه هو أبى أن يذهب إليه وأنه لمّا كان «ميلور ماريشال»، حاكم لوزان، قد آوى روسو في بلده وكان هذا الحاكم كتب إلى الملك يستأذنه في هذا الأمر ورد إليه الجواب من الملك قائلاً إنَّه يجب أن يجري عليه الرزق الذي يريده وأن يبني له صومعة للاعتزال في أيّ مكان أراد من البرّية، وإن شاء الذهاب إلى برلين فليس عليه أدنى حرَج. وممّا أخبرني به أنَّ كلّ دخل روسو السنوي لا يزيد على بعض مئات من الجنيهات (واليوم مَن ليسوا أهلاً أن يكونوا تلامذة في الإنشاء لروسو يدخل للواحد منهم من شقِّ قلمه كلّ سنة عشرات ألوف من الجنيهات) وأنَّ «موتييه» قد صارت ذات اسم بسكنى روسو بها منذ سنتين.

وممّا أتذكّره من كلمات روسو أنه وصف بطرس الأكبر قيصر الروسية فقال: إنَّه لمَّع قليلاً ببربرية شعبه، وأنه مقلّد عظيم. ولمّا جاء ذكر كاترينا قال كان يجب أن يربّي الغراندوق (ابنها) عند التتار، ثمَّ يأتي فيفتح أوربة ويضرب عليها الذلّة، لأنها لا تنتظر فاتحًا إلاّ من تلك الناحية. وقال روسو: إنَّه يوقر كثيرًا الملك ستانيسلاس[1]. وجرى بينهما مناقشة أدبية مرّة اعترف الملك فيها أنه كان مخطئًا. وذكر لي روسو الفرق بين الحكم الأريستوقراطي والدولة الأريستوقراطية، فقال لي: إنَّ الحكم الأريستوقراطي جارٍ في جنيف حيث الشعب ليس له سلطان لكنّه ينتخب السلطان، أمّا الدولة الأريستوقراطية فإنَّ الشعب ليس له فيها سلطان ولا ينتخب السلطان.

في ٣ أكتوبر، فرناي Ferncy (مقرّ ڤولتير). أرسلت بالمكتوب الذي معي من البرنس لويس، فإذا بالمسيو ڤولتير دخل إلى قاعة الاستقبال في الحال وسألني: مَن هو أمير ورتنبرغ؟ وبعد أن شرحت له شيئًا عن نسبتي سألني عمّا إذا كنت من ذوي قربى خليفة المسيح (يشير على وجه المزاح إلى عمّ تسينسندورف السابق الذكر). ثمَّ شدّد الوقيعة فيما هي عليه

(١) ستانيسلاس ليكزنسكي، ملك بولونيا.

حكومة ڤينّا من التضييق في أمر الكتب ومطالعتها. وأطال الكلام على قيصرة الروسية زاعمًا أنَّ هذه الأميرة مضطرّة أن تكون مذنبة... ولمّا عرف ما هي ديانتي قال لي متهكّمًا: إنَّ شهود القدّاس فيه لذّة عظيمة وإنَّني لا أقدر أن أحضر قداسات جميلة في إيطالية. وتنزّهت وإيّاه قليلاً في حديقته ونظرنا منها مناسف الثلج الممتدّة طويلاً. ومحلّه جميل في البرّية تحفّ به أشجار كثيرة ومياه جارية. وبعد أن تحدّث معي ساعة دخل إلى غرفته وترك عندي ابنة أخيه العقيلة دنيس

ي

Mme Denis والعقيلة دوپوي Dupuits، ابنة أخي كورنايل، (الشاعر المشهور، وكان ڤولتير ربّى هذه الفتاة عنده) فقالت لي مادام دنيس: إنَّ روسو آثم في ظنّه أنَّ ڤولتير عدوّه. ثمَّ حضر ڤولتير وتكلّم عن ماري تيريز (امرأة لويس الرابع عشر) وزعم أنه بكى من أجلها مرّتين مظهرًا أنه رقيق القلب. وقال لي إنَّه معجب بي كيف عملت حتّى صرت أتكلّم بالفرنساوي أحسن ممّا يتكلّمون في ڤرساي بينما هو يمثّل باللغة الألمانية تمثيلاً. ثمَّ تكلّم عن ليوتارد (صاحب سويسري لڤولتير) وقال إنَّ امرأة ليوتارد تتقاضاه قصّ لحيته إذ تجدها

ي

طويلة. ثمَّ ذكر لي كيف جرى زواج مادام دوپوي. وأجرى ذكر لوثير وكلڤين فقال لي: إنَّهما لا يستحقّان أن يكونا صانعي أحذية عند محمَّد». انتهى.

وقصَّ كلمات أخرى. والشاهد هو في هذه الجملة: إنّ الأوربيين يقولون لا سيّما أهل شمالي أوربة أنَّ سبب رقيّ هذه القارّة وانبثاق فجر الحرّية عليها كان ظهور ذينك المصلحين الأعظمين في الدين لوثير وكلڤين. وإنَّ ڤولتير هذا الفيلسوف الكاتب الأعظم ـ ملحدًا كان في نفسه أم غير ملحد ـ لا يرى ذينك الرجلين شيئًا بالقياس إلى محمَّد (ﷺ) وعمله في الدنيا.

مرسين، ١٦ أغسطس ١٩٢٥

شكيب أرسلان

***

نظريّتان متضادّتان في تركيا

نشرت جريدة الديبا في عددها المؤرّخ ٢١ الجاري مقالةً على خلاف علميّ واقع في تركيا ثار بين أستاذين من أساتيذ دار الفنون (الجامعة التركية) بالآستانة أحدهما يوسف ضيا بك والآخر كوپربلي زادة محمَّد فؤاد بك. وقد اتّسع هذا الخلاف إلى حدّ أنَّ حكومة أنقرة أصدرت أمرًا بفحصه بمعرفة لجنة مؤلّفة من سبعة مدرّسين في الجامعة التركية. وتحرير الخبر أنَّ يوسف ضيا بك زعم أنَّ اللغة التركية هي أمّ اللغات العلمية القديمة! وإنَّ أشهر مدنيّات العهد القديم تظهر عليها علامات أكيدة أنها من أصل توراني [1]! فالكلمة اليونانية "نوموس Nomos" التي معناها "القانون" ليست في الحقيقة غير تحريف كلمة "ناموس" التركية التي معناها الشرف. كذلك لدى التدقيق في قانون حمورابي الذي وجد في بابل يظهر أنَّ كثيرًا من الأنظمة المنسوبة إلى ذلك المشرّع هي مأخوذة من القبائل التركية التي كانت عائشة في تلك الأزمنة القديمة. أمّا كوپربلي زادة محمَّد فؤاد فقد نشر في مجلّة اسمها "الحياة" مقالة معناها أنَّ هذا الزعم هو جرأة سخيفة غير لائقة بأستاذ في جامعة. ووافقه على ذلك نجيب عاصم بك. وقد قبّحت جريدة "جمهوريت" عمل الأستاذين كليهما، أمّا الأول فلأنه أسقط مكانة العلم التركي بافتراضات سخيفة، وأمّا الثاني فلأنه بنغمته الاستهزائية برأي خصمه قد ثبّط عزائم الباحثين عن أصل المدنيّة التركية.

هذا مجمل كلام الديبا التي وصل عجاج هذه المناقشة إليها. ولا بأس بأن نعلّق على هذه الجملة شيئًا:

أمّا كلمة "ناموس" التي يزعم يوسف ضيا أنها تركية وأنَّ "نوموس" اليونانية مأخوذة عنها فإنَّها ذات معنيين: أحدهما القانون أو النظام، وهي في هذا المعنى كلمة أعجمية معرّبة، وقد جرت على ألسنة المتأخرين من الكتّاب فيقولون "ناموس النشوء والارتقاء" و"النواميس الطبيعية" وما أشبه ذلك، وليست الكلمة بعربية أصلية، بل هي يونانية كما ورد في مناقشة يوسف ضيا بك مع محمَّد فؤاد، ومنها في الإنجيل "ما جئت لأنقض الناموس،

---

(١) ﴿الزهراء﴾، وهذه سخافة شبيهة بتخريف اسماعيل حقّي بك الذي زعم أنَّ ابراهيم، عليه السلام، تركي. وقد عرضنا هذه الفكاهة على أنظار قرّاء الزهراء في سنتها الأولى ص. ١١٤. مساكين هؤلاء الكماليون! كان الترك يفتخرون بالحضارة الإسلامية فلمّا انسلخ منها هؤلاء أخذوا يبحثون عمّا يفتخرون به فألجأهم الأمر إلى دخول مثل هذه المضايق الموحشة.

بل لأكمل». وأمّا استعمالها بمعنى الشرف كقولهم «فلان عنده ناموس» أي رجل يحافظ على شرفه فهو من مواضعات العامّة، قد استعمله العرب في الأعصر الأخيرة ودخل إلى اللغة التركية مع الألفاظ العربية التي دخلت إليها. فأنت ترى أنَّ أصل الكلمة يوناني وأنَّ المتأخّرين من العرب قد عرّبوها بمعنى قانون ثمَّ حرّفوا معناها واستعملوها بمعنى «شرف» ثمَّ أخذها الأتراك فيما أخذوا من الألفاظ العربية والمستعربة. فالأولى أن يكون الترك هم الذين أخذوها عن العرب عن اليونان لا أن يكون اليونان أخذوها عن الترك. وعلى فرض أنَّ اليونان هم الآخذون فيكونون أخذوها علن العرب لا عن الترك. وكون لفظة «ناموس» بمعنى «شرف» هي من الألفاظ القديمة التي تدلّ على قِدم المدنيّة التركية لا يقول به إلاّ سخيف قليل المادّة، إذ إنَّ هذه اللفظة بهذا المعنى غير معروفة إلاّ عند عوامّ العرب، أي بعد أن استعجمت اللغة العربية وتحرّف كثير من كلامها الأصلي عن معناه اللغوي، فيوسف ضيا يأخذ من لفظة عامّية حديثة دليلاً تاريخيًّا على شيء وقع بزعمه منذ آلاف من السنين. فيا للعجب!

ثمَّ إنَّ الناموس في العربي الفصيح يأتي بمعنى «قُتْرة الصائد» أي خدمة الصائد التي يتخبّأ وراءها ليختل صيده، ويأتي بمعنى «خيمة الناسك أو الراهب» التي ينقطع فيها للعبادة، وهي هنا عربية عريقة ليست بتركية كما يظهر من معاجم اللغة. فلينظر القارئ إلى هذه الخيالات التي يجعلها بعض علماء أنقرة حقائق علمية ويكون مبلغ علمهم من اللغة ما تراه. وقد سمعت من فم ثقة أنَّ يوسف ضيا هذا الأستاذ المحقّق... البحّاثة عن قِدم مدنيّة التورانيين. يزعم أنَّ الأتراك هم أول مَن عمّروا سورية وذلك أنَّ الحثيين الذين كانوا في سوريا هم من أصل توراني! ودليله على ذلك أنَّ اسم جزيرة «أرواد» التي على مقربة من ميناء طرابلس الشام محرّف عن كلمة «عورت» التي معناها بالتركي امرأة، وذلك لاحتمال أنَّ تلك الجزيرة كانت تخصّ امرأة. فلينظر القارئ أيضًا إلى هذا الدليل المجذوب بالحبال والسلاسل كيف أنَّ جزيرة أرواد يجوز أن تكون خاصّة بامرأة وأنَّ امرأة يقال لها «عورت» في التركية ونسي يوسف ضيا بك أنَّ «العورة» لفظة عربية وأنَّ استعمالها بمعنى المرأة هو من باب تسمية الشيء بجزءٍ منه. وبالاختصار يجب أن نرثي للعلم التاريخي واللغوي المبني على سخافات كهذه...

لوزان، ٢٢ سبتمبر

شكيب أرسلان

حركة النشر والتأليف
(أناتول فرانس في مباذله) ★

أناتول فرانس هو ـ كما قال عنه أديب العرب الأكبر الأمير شكيب أرسلان[1] ـ «صدرُ كتّاب الفرنسيس الذي انعقد على تفضيله الإجماع، وعلت رئاسته عن النزاع. لا سيّما في الأسلوب السهل الممتنع الذي جمع فيه نقاء اللغة وتعديل الإقسام وطلاوة النسج وتوزيع القسط بين المعاني والمباني. وكان أشدّ المحافظين على الأسلوب الأصولي التدريسي، حتّى أقرَّ له الفرنسيس بأنه الذي حفظ اللغة الفرنسية، وحرس بستانها. وأنه لولاه لتنكّرت معالمها وتكدّرت مناهلها. ومع شدّة محافظته على القديم من جهة اللغة كان مفرطًا في مخالفة القديم من جهة الفكر. وكان رجلاً متشكّكًا في أمر الكائنات معذَّبًا بما يخالج ضميره من حسّ الخلاء وما يهفو به من قلّة الإيمان بالغيب، وأنه أميل إلى مذهب الأبيقوريين الذين لا يرون إلاّ اللذّة سواء البدنية أو العقلية. وكان سيّء الرأي في المدنية الأوربية الحاضرة، عظيم السخط على غشم الاستعمار واستثمار القوي للضعيف وابتلاع الكبير للصغير وتكالب أوربة على المال دون غيره، وما أشبه ذلك، ممّا كان الباعث الأهمّ له على دخوله في الاشتراكية ومسايرته للشيوعية. وكان مولعًا بالمناقضة، نزّاعًا إلى القول بما لا يقول به الجمهور ولو لم يكن في نفسه جازمًا بما يدافع عنه. وإنَّه كسائر الأدباء تغلب عليه النكتة وتستهويه النادرة فكثير من كلماته هو من هذه الطائفة».

ولأناتول فرانس كاتب سرّ اسمه (جان جاك بروسون) كان يلزم مجالسه ويلتقط من أستاذه أحاديث وكلمات «كان يرميها على عواهنها لا لتنتشر وتؤثّر، بل ليسرّي بها عن نفسه». وروى (بروسون) في شبه مقدّمة وضعها لهذه الملتقطات التي سمّاها «أناتول فرانس في مباذله» أنَّ أستاذه انتبه مرّة إلى ما يهتمّ به من جمع هذه الكلمات فقال له «أي لذّة تجدها في التقاط أحاديث ملقاة على رُسَيلاتها، سائلة على طول لحيتي البيضاء؟ ولا جرم أنَّ هناك زيغًا كثيرًا. على أنه إن كان هذا يلذُّ لك! ثمَّ مَن يقدر أن يمنعك؟ وغاية ما أتقدّم به إليك يا

★ المطبعة العصرية، المكتبة السلفية، من ٣١٣ صفحة.

(1) في ص.٨٧ من هذا الكتاب النفيس الذي سنأتي على وصفه.

ولدي هو أن لا تنشر شيئًا من كلّ هذا ما دمت أنا حيًّا. لا سيّما أنه ليس عليك أن تنتظر طويلاً. فإنّك إن فعلت أوقعتها بيني وبين كثير من الناس فمتى صرتُ مضطّجعًا تحت البلاطة فاجعلني أقول كلّ ما تشاء».

وما كاد أناتول فرانس يغمض عينيه حتّى دفع بروسون هذا الكتاب للنشر «فكشف به عورات أستاذه، وأُطلع الخلق على عُجَره وبجره».

وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية سيِّد كتّابها في هذا العصر الأمير شكيب أرسلان، وضمّ إليه كتّاب نيقولا سيغور في وصف أناتول فرانس وما عرفه من حقيقة أمره وما سمعه من آرائه في الحياة والخلق والعلم والسعادة والشقاء. وسمّاه «محادثات مع أناتول فرانس» أو هواجس العقل inquiétudes de l'intelligence».

وقد طوى الأمير ـ أحسن الله إليه ـ فصولاً من كتاب بروسون على الخصوص وكذلك من كتاب سيغور لأنّ بعضها لغويّ لا حاجة للقارئ العربي به، وبعضها ممّا لم يجد فيه طائلاً، وبعضها لِما فيه من عبارات تأباها الفضيلة والعفّة أو قصص لا تروى ولا بالمعاريض وقد يعجز التلميح والتلويح عن ستر ما فيها من هجنة. وقدّم الأمير بين يدي الكتابين زبدة ما كتبه الكاتبون وخطب به الخطباء عن أناتول فرانس يوم وفاته. وصدّر ذلك كلّه بمقدّمة جليلة عن علاقة الشرقيين بالغربيين وخلطة الغربيين بالشرقيين، وعن مكانة الأدب الفرنسوي في الغرب والشرق، واستطرد إلى عقوق طائفة من ناشئة المصريين والسوريين لأدب لغتهم، مذكّرًا بما يجب عليهم لها ولكرامتهم بها. وفيه كلام نفيس سننقله في جزء آخر من الزهراء.

وقد ذكر الأمير (المقاصد) التي توخّاها من نشر هذا المجموع، فقال:

«**الأول:** لمّا كان قد استفاض البحث في القديم والجديد، ورأينا أعناق بعض المحدَثين ـ عمدًا أو غفلةً ـ تشرئبّ إلى إحداث بِدَع سيّئة في اللغة العربية، وتطمع أن تعمل بها عملاً يأتي عليها من القواعد، وذلك بحجّة وجوب التغيير والتبديل، وبأنّ الارتقاء يقتضي التجدّد وبأنّ التجدّد لا يجب أن ينحصر في الأفكار، بل يجب أن يتعدّى إلى القوالب، وكان مذهبنا أخذُ الأحسن من كلّ شيء وأنّ مَثل الفصاحة الأعلى لهذه اللغة هو دور السلف من الجاهلية إلى صدر الإسلام إلى الدولة الأموية إلى أوائل الدولة العباسية، ولم يكن أحد ليطمع في طرز أبدع من طرز القوم في هذه الأدوار ولا في لغة أنقى من لغتهم

ولا في ديباجة أنفس من ديباجتهم، وكان ما بعد ذلك كلّه تدنيًا، وكان العدول عن الفصيح إلى الركيك وعن الأصيل إلى الدخيل ـ لمجرّد حبّ التجديد ـ هبوطًا وتردّيًا، وجب أن ننسج في بياننا على منوال السلف كما نسج أناتول فرانس ـ وهو عصري الأفكار ـ على منوال الأعصر السالفة وعدَّ له الفرنسيس ذلك أعظم فضيلة».

«**الثاني**: أنه يتحتّم على الناشئة العربية السير مع العصر الحالي في كلّ ما يتمحّص من الحقائق الكونية وتتقرّر فائدته من المناحي الاجتماعية، على شريطة أن لا يخلَّ ذلك بوحدة اللغة وصفائها ونصابها الذي حفظه لها القرآن الكريم وأن لا يمسّ ذلك روح العروبية، التي ينبغي أن تكون هي الغاية القصوى ويكون ابتداع الطريف خادمًا لها لا عابثًا بها. وقد رأينا أنَّ أناتول فرانس وغيره قد عرفوا أن يجمعوا الطريف إلى الشريف، ويودعوا الحديث في القديم».

«**الثالث**: رأينا الذين لهم في الشرق نصيب من الأدب الأوربي هم الذين يحسنون اللغات الأوربية ـ لا سيّما الفرنسية ـ ويطالعون مؤلّفاتها القديمة والحديثة وينقلون إلى العربية كثيرًا ممّا يستعذبونه منها، مع أنَّ الذين لم يساعدهم الوقت على درس هذه اللغة يكادون لا يفقهون منها حديثًا ولا يذوقون شيئًا ممّا ينقله لهم أولئك المترجمون، لخلوّ أذهانهم من المعارف الضرورية لفهم تلك النكات. فقصدت نشر هذه الخلاصة عن أكبر أديب إفرنسي أو أوربي في هذا العصر أن أقوم ببعض الخدمة للمتأدّبين الشرقيين الذين لم يحسنوا اللغة الفرنسية أو لم يتضلّعوا في آدابها مع اختلاطها بالآداب الشرقية وكثرة العلاقات العلمية والاجتماعية بين الشرقيين والغربيين».

ومن أفضل ما زيّنت به هذه المجموعة الأنيقة حواشيها التي استغنى بها الكتاب عن غيره من كتب التاريخ والأدب والفلسفة، وأكثرها تراجم لأعيان الأدب الفرنسوي والتاريخ الأوربي الذين ورد ذكرهم في متن الكتاب فأتى الأمير ـ حفظه الله ـ على تراجمهم، وعُنِيَ ناشر الكتاب رصيفنا الغيور على هذه الصناعة الأستاذ الياس أفندي أنطون الياس بنشر صورهم أيضًا إلى جانب تراجمهم بحجم يناسب تلك الحواشي. وحبّذا لو كان أفرد لهذه التراجم فهرسًا هجائيًا في آخر الكتاب لأنها تعدل كتابًا قيّمًا من حقّه أن يكون له فهرس.

هذا وليس بين قرّاء العربية مَن لا ينظر بعين الإجلال للعلاّمة المجاهد الأمير شكيب أرسلان، مع أنَّ العالِمين منهم بمجموع حسناته نفر قليل. ولا غرو فحسنات الأمير أوسع

نطاقًا من أن يلمّ الجمهور بأكثرها فضلاً عن مجموعها. ولست أعرف فيمَن عرفتهم من رجال العمل وأعلام الإصلاح مَن يدانيه في علوّ الهمّة وخصب المدارك وكثرة الإنتاج، مع التجويد البالغ غاية الغايات. وأظنّ أنَّ رسائله ذات الخطّ الأنيق التي يكتب بها إلى أصدقائه في المشرقين والمغربين تكفي للدلالة على نشاط الرجل العامل، فما بالك بهذه المؤلّفات الممتعة، وهذه الفصول التي سارت بها الصحف والمجلاّت حافلة بالعلم والتحقيق وحسن الاحتجاج للتاريخ الإسلامي والبيان العربي وحقّ هذا الشرق في الحياة. فضلاً عن التقارير والمذكّرات والأحاديث والمفاوضات التي يقوم بها في أوربا دفاعًا عن البيضة وذبًا عن الحقيقة. إلى غير ذلك من صنوف الجهاد والتي نرجو الله أن يكافئ الأمير عليها بتحقيق نتائجها وأمتاعه بها في الدنيا وإثابته عليها يوم الدين.



فهرست المحتويات



١٨٦٩ ـ ١٩٤٦

متى وجب على الهيئة الاجتماعية أن تسير بحسب مقتضى العلم بدون أدنى اعتبار آخر وشاهدنا ذلك في الأمم التي هي أرقى منّا في سلم الاجتماع وجب علينا أن نبادر إلى ما بادر إليه غيرنا بلا نزاع فأمّا أن يكون الإفرنج تعزّ عليهم عاداتهم وشنشناتهم ومشخصاتهم القومية ومميّزاتهم الوطنية ولو كان العلم في عكسها ولو كانت الصحّة في خلافها ولو كان الاقتصاد في تركها وينبغي لنا نحن وحدنا أن لا تعزّ علينا أطوارنا وأزياؤنا وعاداتنا وأن نتهافت على تقليد غيرنا تقليد القردة فلسنا نرى في ذلك شيئًا من الوطنية ولا من العزّة القومية، بل نرى فيه إثارة من إنكار الوطن والتجرّد من العاطفة القومية وهذه علامات سيّئة جدًا.

وهذا يجب له خطّة توفير لحقوق العرب واعتبار لمكانتهم في الدنيا وتأمل بأنّ أمّة كهذه فيها العدد وفيها الثروة وفيها النخوة وفيها الصبر وفيها الإقدام وفيها الذكاء المضروب به المثل وبيدها أنفس المواقع وأشرف البقاع هذه أمّة لن تموت وأنّ الحزم كلّ الحزم في مصافحتها ومخالفتها لا في احتقارها والنظر إليها شزرًا.

شكيب أرسلان